أنــوار اليقين

دكتور
السيد محمد الديب

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة
٩- درب الأتراك خلف الأزهر الشريف



المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على محمد بن عبـــدالله ، رســـول الإسلام ، الذى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين... وبعد

فإن الأيام المتداولة بيننا تؤكد لى دوما حتمية توجيه الخطاب الدينى نحـــو القضايا الإسلامية، التى تنير طريق السالكين إلى المعرفة، والراغبين فى التحول بالمعتقدات الراسخة من نطاق النظرية القولية إلى حيز التطبيق العملـــى، وهـــو الدلالة الواضحة، على ملامح الإسلام ومظاهره، ذلك أن ارتباطنا بديننا وانتسابنا إليه يرسخ لدينا ــ بالنقل ثم العقل ، أهمية الوصول إلى اليقين وأنواره ٠

وتأتى التصرفات المضطربة ، والأفعال غير المرشّدة التى تحدث كثيـــرا ، عند فريق من المخالفين، الذين يفصلون عن قصد أو عن جهل بـــين النظريـــة الإسلامية للحياة ، والسلوكيات التى تطبق فى عالم الواقع ، ويغفلون أحيانا عـــن قول الله الواضح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[1] ٠

أما الآخرون الذين لا يدينون بالإسلام فى الشرق أو فى الغرب ، أو فـــى الوسط ، وسواء أكانوا محبين أم كارهين، فلا تعنيهم الأقوال المقدسة من القرآن والسنة كثيرا ؛ لأنهم يأخذون ما يتوافق مع معتقداتهم فى الدين والسياسة، وفـــى شتى مناحى الحياة ، ويبقى جل أحكامهم على ديننا من خلال التصـــرفات التـــى تنتشر، إما فى البيئة الإسلامية ،وإما فى المجتمعات الأخرى، التى ترصد الأفعال قبل الأقوال ، والسلوكيات قبل النظريات ٠

إن قصتى مع هذا الكتاب ليست قصيرة بمعيار الزمن ، إذ أنها على أبواب الثلاثين عاما ، ويوم شرعت فى كتابة أول موضوع فيه ، لم يكن يشغل ذهنى،

---

(١) الصف ٢ ، ٣ ٠

أو يتحرك فى وجدانى، أن تلك البذرة ستكون دوحة، وأن الأوراق الثلاث ستصل مع أخريات شقيقات لها إلى ما يقرب من مائتين وخمسين صفحة٠

أما أبعاد ما بين دفتى الكتاب فكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمسجد ، والجامعة ، والصحافة ، والإذاعة، وقد حددت فى بيان استرشادى ــ قبل الفهرس ــ ما ارتبط بالمنفذين الأخيرين ،إذ أن الدعوة من خلالهما أكثر اتساعا ، وربما أكثر تأثيرا ، وأبقى وجودا ، وأسهل استدعاء٠

ولقد جاء الحديث عن (الحرص على العلم وتبليغه إلى الراغبين فيه) فى نهاية الموضوعات، إذ أنه آخر ما خطته يداى، وكأنه إشعار للقارئ بضرورة العناية والتذكر دوما لهذا الموضوع٠

وأهدف بما كتبته هنا إلى الدعوة لترسيخ الإيمان فى القلوب ،وتأييد اليقين الحقيقى الذى يتحول بمنهاجه،لإضاءة طرائق الحياة؛حتى تتوحد مكونات الإيمان عقيدة وعملا، نظرية وتطبيقا، وتجلت الرؤية لذلك بوقفات متعاضدة وهى :

أولا : من البيان القرآنى ٠ **ثانيا** : مع الرسول صلىالله عليه وسلم ٠

ثالثا : قضايا إسلامية٠ **رابعا** : من أخلاق الإسلام ٠

خامسا: من صفات عباد الرحمن٠

ولذلك تفصيلات سيتضح بيانها فى فهرس الكتاب ، داعيا ربى أن يجعل الجهد الذى بذلته أثناء الإعداد والمراجعة فى ميزان أعمالى " ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1] ٠

وآمل أن تكون هذه الصحائف بداية لعمل متواصل ، وبحث دءوب ، يأتى بعدها ما يتوافق معها فى أجزاء أخرى، وليس ذلك على الله بعزيز ، خاصة أننى حريص ــ فى هذه المرحلة من عمرى ــ على شكر ربى من خلال قصتى مع المرض والشفاء ، وسائر نواحى الحياة ، والله ولى التوفيق ٠

السبت ١٤ من رجب ١٤٢٨هـ

٢٨ من يوليو ٢٠٠٧م

الدكتور/السيد محمد الديب

وكيل كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بالزقازيق

(١) الشعراء/ ٨٩ ٠

أولا : من البيان القرآنى

١ـ مع سورة العصر ٠

٢ـ مع سورة الكوثر٠

٣ـ مع سورة الإخلاص٠

٤ ـ اهدنا الصراط المستقيم٠

١ـ مع سورة العصر

قـال تعـالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾صدق الله العظيم.

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، المنزل علـى رسـوله ﷺ، والمتعبـد بتلاوته، والمتحدى به الإنس والجن والعالمين، ولم يتحد بـه الملائكـة...؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيارات يعملون بها، إنما هم يفعلون ما يؤمرون به.

إن القرآن هو الكتاب الذى اكتمل على عهد الرسول، وكان ولا يزال مجالا لتحدى كل القوى المختارة، أو التى لها اختيار وإرادة، أو التى ميزها الله بقـدرة العقل والفكر والاختيار ــ والعصر : هذا الأسلوب قسم من الله سبحانه وتعالى.

ومن مقاصده عند العرب تأكيد المعانى التى تأتى بعد القسم، فجاء القرآن الكريم على هذا النحو من المقاصد والتوجهات فى لغة العرب، وقصد التوكيد لا يتنافى مع المقاصد الأخرى، التى تتكشف للمتدبرين، وقـد أقسـم الله بالمعـانى وبالمحسوسات، لا لتعظيمها ، فحسب وإنما لإرشاد العقول؛ لتستفيد مـن تلـك المعانى، أو من تلك المخلوقات الصماء.

ومن أقرب الأمور التى ينشدها المسلم فى هذا القسم هو صلاة العصـر؛ وذلك لفضلها وغفلة الناس عنها، وقد جاء هذا التفسير فى بيان المراد من الصلاة الوسطى، التى وردت فى سورة البقـرة قـال تعـالى : ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[1].

وقيل إن المراد من قوله تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ عصر النبى أو زمانه، أو أن القسم بالدهر؛ لاشتماله على الأعاجيب ، والتعريض بنفى ما يضاف إليـه مـن الخسران، وقيل غير ذلك، وقد خصص الله تعالى العصر، للدلالة على شـرفه، وأن الشقاء والخسران إنما لزم الإنسان لعيب فيه، لا فى الدهر ولذلك قـال ﷺ : "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر"[2].

---

(١) البقرة/ ٢٣٨ .

(٢) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير وقال: أخرجه مسلم عن أبىهريرة.

أما ما يتصل بقضية القسم فى الظروف الزمانية، فلأنها أوعية للأعمـــال، محصية لها، ضابطة لأنواعها، وليس الأمر بعد الإيضاح السابق قاصرا علـــى العصر، وإنما يشمل القسم ــ كما فى القرآن الكريم ــ أزمنة أخرى مثل الفجـــر، والليل، والنهار، والضحى، وكلها أوقات يهمل فيها الكسلان فتمر عليه بالوبـــال، وتشهد عليه، بالضلال والخبال، ويعمرها العاملون بالأعمال الصالحة، فيسعدون فيها، ويفرحون بها.

والقسم الذى جاء فى أول هذه السورة، أو فى القرآن بصفة عامـــة زمـــن واسع، مبهم تتسع معالمه بصورة قد يعجز الإنسان عن بيـــان حـــدودها، مثـــل العصر الحجرى، والعصر الجاهلى، وعصر الآلة، وهـــذه العصـــور وغيرهـــا مراحل وأطوار من عمر البشرية، حيث تحققت شهرتها بصفات وملامح غلبـــت عليها، فنسبت إليها.

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ .

إذا كان خالق القوم قد كرم الإنسان فخلقه فى أحسن تقويم، وخلـــق فيـــه العقل، وجعله به أرقى المخلوقات الأرضية، يتحكم به فيها، ويجلب به خيرهـــا، ويتقى به شرها، فإن الواجب على الإنسان الذى يحكم العدل ويحكـــم العقـــل أن يؤمن بربه، وأن يوحده، وأن يعبده حق عبادته، وأن يقف عندما حدد له بهدايـــة الفطرة، أولا ثم بهداية الوحى ثانيا، وأن يسعى فى رضا الله ، ويتجنب غضـــبه، وأن يتعامل مع أبناء جنسه بالمحبة والمودة، وأن ينفق كل ما آتاه الله من مواهب فى طاعته، وفى إقامة دينه الذى ارتضاه له؛ ليسعد بذلك سعادة أبقـــى، وحيـــاة أرقى، وهى حياة الخلود والرضوان الأكبر من الله تعالى.

لكن هذا الإنسان عجز عن الالتزام الكامل بالتكاليف فسقط فى معظمهـــا، وباء بالخسران المبين، ورصدت هذه السورة المباركة ضياعه وضلاله، وابتعاده عن خط الله المستقيم.

والحكم على الإنسان بالخسارة هو حكم خالق الإنسان الــذى ركــب فيــه طبائع الخير وغرائز الشر، وهو حكم على الأغلب من هذا الجنس؛ لأنه يعلم أن الغالب على البشر الغواية لا الهداية، والشر لا الخير، والفساد لا الصلاح.

إن الواقع فى تاريخ البشرية يؤكد هذا ويعضده ، قال تعالى فــى مســيرة سيدنا نوح مع قومه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١).

وقال فى شأن قوم موسى:﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾(٢).

وفى حديث القرآن عن الغيب وأنبائه فى نهاية الطرح الإيمانى لبيان قصة ســيدنا يوســف عليــه الســلام ، قــال تعــالى:﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

ذلك لأن الفساد فى العالم كثير، ويختلف من عصر إلى آخر، ومن بيئــة إلى أخرى، كما أن المؤثرات الخارجية على الفطرة الإنسانية قوية وعنيفة فــى ظل الضعف الإنسانى الذى ينتاب شباب العالم الإسلامى فى هذا الوقت، الــذى تبدلت فيه كثير من المعايير، التى لا أول لها ولا آخر ، وأن الخروج من هــذا النفق المظلم لا يكون إلا للخاصة الذين دخلوا فى النطاق الواضح المعالم، الــذى ترسمه بقية السورة استثناء من عمومية الخسران المبين، وذلك فى قوله تعــالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

أى أن الله سبحانه وتعالى استثنى قليلا من عباده نجحوا فى قهــر الــنفس ودحر الشيطان، وإخلاص العبادة لله بكامل معاييرها، التى تتم بها النجاة والظفر والرضا والقناعة لمقسومات الحق سبحانه وتعالى.

فهؤلاء الذين استثناهم الله موصوفون بهذه الصفات:

١ – الإيمان.　　　　٢ – العمل الصالح.

---

(١) هود ٤٠ .
(٢) يونس ٨٣ .
(٣) يوسف ١٠٣ .

٣ - التواصى بالحق.   ٤ - التواصى بالصبر.

والقرآن الكريم يكثر من هذه الصفات الأربع، ويكررها فى كثير من سوره بأساليب مختلفة، فأما الإيمان والعمل الصالح فهما مقترنان فى القرآن، والإيمان فى حقيقته وأصله: ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وهو الإذعان الباطنى الذى لا يعلم حقيقته إلا الله، وهو من صفات النفس، والصفات النفسية لا تخلو من آثار تنشأ عنها وشواهد تدل عليها ، والأعمال الصالحة هى آثار الإيمان الكامل وهى شواهده الناطقة وعلاماته الواضحة، والصالحات جمع صالحة، وهى وصف لكل خصلة حميدة جاء بها الدين، وشهدت لها الفطرة بالحسن، وشهد لها العقل بالاستحسان، ونفعت صاحبها فى دينه ودنياه، والميزان الصحيح للرجل الصالح هو وقوفه عند حدود الله قولا وفعلا، والتزامه بالسنة المحمدية اقتداء واتباعا.

وقد تحدث القرطبى عن هذا الجزء من السورة فذكر أن المراد من قول الله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ " أى أدوا الفرائض المفترضة عليهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، قال أبى بن كعب قال : قرأت على رسول الله ﷺ : ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ثم قلت: ما تفسيرها يا نبى الله؟ قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قسم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾: أبوجهل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ :أبوبكر، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ : عمر ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: عثمان، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: على رضى الله عنهم أجمعين. وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه[1].

وأما التواصى بالحق والصبر فقد جمعت الآية بين الحق والصبر، وكررت كلمة "وتواصوا"؛ لأن الحق يحتاج دائما إلى الصبر، ولولا الصبر على الحق ما قام له وجود، ولا ثبت له بناء، ولولا صبر نبينا محمد ﷺ على أذى قريش وجفائها ، وإعراض العرب عن دعوة الحق ما تم للإسلام أمر.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢٠ صـ ١٨٠ ، ١٨١ .

والتواصى بالشيء: هو التأكيد له والحرص عليه من جانبين، وكأن كـل واحد من الطرفين يثبت الشيء فى نفس صاحبه، ويحضه على الاعتنـاء بـه، والعمل بمقتضياته، وكثيرا ما قرأنا فى سير الصالحين من هذه الأمة الإسـلامية أن الواحد منهم كان يطلب من أخيه قبل أن يفترق بهما المجلـس، أو الطريـق فيقول له:أوصنى،فيقول الآخر:أوصيك بتقوى الله سبحانه وتعالى. وجاء أيضا فى معنى وتواصوا،أى وتحابوا بمعنى أوصى بعضهم بعضا ٠ وحث بعضهم بعضا ٠

والحق: كل شيء ثابت فى نفسه، وهو اسم من أسماء الله تعـالى، وهـو بمعنى التوحيد ٠

والقرآن أيضا هو الحق، وقيل: إن الحق هنا هو الله عزوجل، إذا فكلمـة الحق كلمة تتسع، لتشمل أمورا كثيرة ،فضلا عن كونه اسما من أسماء الله تعالى، والواجب علينا نحن المسلمين أن نحيى سنة التواصى بالحق فى حياتنا الإيمانية، وألا نغفل عنها فنقع تحت سيطرة الشيطان، وعبادة الـذات والغـرور، والتيـه والضلال ٠

والصبر، سبب الفضائل، وقوة العزيمة، وحبس الـنفس علـى المكـروه، وحجبها عن الرغائب؛ خاصة فى مراحل الضعف والتراجع، والسقوط فى متاهة الغفلة، والبعد عن يقظة الضمير، وقوة العزيمة ٠

والواجب علينا أن نحيى سنة التواصى بالصبر، وأن نتمسك بها، ونحرص عليها، ولعلنا لاحظنا أن تكرار كلمة "وتواصوا" قد جاء لتأكيد إخلاص المـؤمن للمؤمن فى نصحه وإرشاده وحسن توجيهه، قال تعـالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾[١].

---

(١) البقرة ١٥٥، ١٥٦ ٠

ونخلص من واقع معايشتنا لهذه السورة الكريمة إلى ضرورة المحافظة على الوقت، وعدم التفريط فيه، وإضاعته فيما لا يفيد، كما أن خسارة الإنسان مؤكدة بالنص القرآنى للذين لا يبالون بالواقع، وينفصلون عنه، ويغفلون عما يحيط بهم من مستجدات، أوشكت أن تمثل خطرا وتهديدا لكيانهم فى العصر الحاضر، وفى غمرة كل ذلك يجب على الإنسان ألا يغفل عن نصيحة أخيه الإنسان، ولا عن الوصاية به فى مجال الحق، وفى مجال الصبر؛ حتى تستمر المسيرة الإيمانية للأمة الإسلامية منتقلة إلى عوالم أرحب وأفسح من ذى قبل.

٢ ـ مع سورة الكوثر

قـــال تعـــالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ ٠

إن هذه السورة الكريمة تعرض لثلاث قضايا، أو موضوعات على جانب كبير من الأهمية فى حياة المسلم، وترتبط الآية الثانية بعيد الأضحى، وهى أكثر هذه الأمور التى تعلق فى أذهان المسلمين ؛ لأن الأضحية يتكرر التعامل معهـا فى هذه المناسبة من كل عام٠

وقد قيل إن سبب نزول هذه السورة يرجع إلى أن العاصى بن وائل كـان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر، لا عقب لـه، لـو مـات لانقطع ذكره، واسترحتم منه، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ السورة٠

والكوثر: هو الخير الكثير من النبوة ، والقرآن ، والشفاعة، أو هو نهر فى الجنة٠

فصل لربك وانحر: الصلاة صلة بين الله وعبادة، وفى النحر صـلة بـين الفقراء والآخر تقربا إلى ذى الجلال والإكرام٠

والمقصود بالنحر: هو الأضحية، وهى الذبيحة التى تذبح من الغنم والبقر والإبل؛ تقربا إلى الله فى أيام النحر، وهى سنة مؤكدة للقادر عليها، بمعنى يكره تركها، لمن استطاع فعلها٠

وشانئك: أى مبغضك٠

والأبتر: هو المنقطع عن كل خير، أو المنقطع العقب، وكان ذلك بعد موت القاسم بن رسول الله ﷺ ٠

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: ضحى رسـول الله ﷺ بكبشـين أملحين أقرنين ذبحهما بيده، وسمى وكبر ووضع رجله على صفحاهما"[١]٠

---

(١) متفق عليه .. وعلى صفحاهما أى على جانببهما٠

وقال ﷺ : "ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم"[١].

وقال ﷺ : "من وجد سعة فلم يضح، فلا يحضر مصلانا"[٢].

وقال ﷺ : "ما عمل ابن آدم من عمل يوم النحر أحب إلى من إهراق الدم"[٣].

لماذا شرع الله الأضحية؟ شرع الله الأضحية، إحياء لذكرى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وتوسعة على الناس يوم النحر، ونشرا للمحبة والمودة في ذلك اليوم؛ حتى لا يبقى فقير أو مسكين أو طالب حاجة إلا وصله الطعام، واشتمله الخير، وأنعم الله عليه بما يغنيه عن النظر إلى ما فى أيدى الآخرين، وإلى ما يتناولونه من طعام ربما يعز عليه فى كثير من الأوقات.

ويجب أن تكون الأضحية صالحة للذبح، نقية من العيب، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٤].

وتكون من الغنم والبقر والإبل، ولا تصح من غيرها، وقد نص الفقه الإسلامى على تمام الشروط التى يجب توفرها فى الأضحية، وكيفية توزيعها وحكم الاشتراك فى أضحية واحدة إلى غير ذلك من الأمور الخاصة بها.

أما فيما يتصل بوقت الذبح فيبدأ عند جمهور الفقهاء عقب صلاة العيد، كما يجوز أن تذبح فى أى يوم من أيام العيد الثلاث، وقيل يجوز كذلك فى اليوم الرابع، وعليه فلا تصير الذبيحة أضحية جائزة قبل صلاة العيد، واشترط بعض الفقهاء أن يكون القائم بذبح الأضحية مسلما، وأن تذكر التسمية عند الذبح، ويسن أن يصلى ويسلم على رسول الله، وأن يكبر ثلاثا بعد التسمية، وأن يقول : "اللهم هذا منك وإليك فتقبل منى" كما يسن لمن يحسن الذبح أن يقوم بذبح أضحيته بنفسه، وأن يقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا عن فلان.

---

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجة والحاكم وغيرهما.
(٢) الحاكم مرفوعا وصححه ، ورواه موقوفا .
(٣) ابن ماجه والترمذى، وإهراق الدم أى إسالته، وذبح الأضحية .
(٤) آل عمران ٩٢ .

وقد ذبح الرسول كبشا وقال: "بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى"[١]، ومن لا يحسن الذبح يسن له أن يشهده، قال رسول الله ﷺ : "يا فاطمة قومى فاشهدى أضحيتك، فإنه يغفر لك عند أول قطرة من دمها كل ذنب عملته وقولى: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين"[٢].

وتجوز أضحية واحدة عن أهل البيت الواحد؛ لأنها فرض كفاية، وتجوز المشاركة فيها، على أن يكون ذلك فى الإبل والبقر، الواحد أو الواحدة عن سبعة.

قال جابر ﷺ : "نحرنا مع النبى ﷺ بالحديبية".

والأضحية توزع أثلاثا: ثلث للمضحى وأهل بيته: وثلث يقدم هدايا: وثلث للصدقة، وفى ذلك تفاصيل موسعة فى كتب الفقه والأصول.

وقد جمعت السورة بآياتها الثلاثة بين عدة أمور تتصل بعضها اتصالا حميما، حيث كان الحديث فى الآية الأولى عن الخير العميم لرسول الله ﷺ فى الدنيا والآخرة، وتجلى ذلك الخير فى وفرة الزاد المتمثل فى الأضحية التى تقرب بها الرسول إلى ربه، وصارت سنة مؤكدة ،أو فرض كفاية ينهض به كل قادر على ذبح الأضحية الصالحة للطعام، مع الأخذ فى الاعتبار أن يكون ذلك للناس جميعا سواء أكانوا من أهل المضحى أم من أصدقائه الذين يهدى إليهم ما لديه من خير، أو كانوا من الفقراء والمساكين الذين يحتاجون إلى ما يسد رمقهم ويغنيهم عن النظر إلى ما فى أيدى الناس، خاصة فى أيام العيد، وأن الله سبحانه وتعالى قد وعد رسوله الكريم بالخير واستمرار ذريته وأهل بيته، حتى تتواصل الحياة من بعدهم، وأوعد الذين يتربصون به ويسيئون إليه بأن نسلهم لن يكون له شأن يذكر فى تاريخ الحياة، وأين هذا النسل من أبناء فاطمة الزهراء رضى الله

---

(١) الجزء الأول من الحديث " ضحى وقال : بسم الله والله أكبر، فقد ثبت من حديث أنس عن البخارى ومسلم ،وأما قوله : " اللهم هذا عنى......إلخ" فهذه الزيادة عند أبى داود والترمذى من حديث جابر.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك ، من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

عنها، حيث كان للحسن والحسين رضى الله عنهما شأن عظيم فى تاريخ الحياة الإسلامية بعد عصر رسول الله، ﷺ وهكذا تجتمع آيات السورة حول رؤية متقاربة تعرض لحياة الرسول ﷺ .

وقد تواصل الخطاب فى السورة ، إذ كان الضمير للمخاطب وللغائب أسلوبا فى ذلك الحاضر دوما بالنص القرآنى الكريم، والتعبير جلى واضح فى مخاطبته بقول الله تعالى (أعطيناك)، (لربك)، (شانئك).

وأما الإعطاء فيأتى أيضا متواكبا مع الموقف ، وتنفيذا لوعد الله تعالى لرسوله ﷺ ، الذى جاء بيانه فى قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[١].

وقد قدم القرآن الكريم الصلاة على النحر خلافا لما كان يجرى عليه الحال قبل الإسلام من ممارسات جاهلية لعبدة الأوثان، وتتصرف الصلاة فى عمومها إلى الفرائض المكتوبة، وإن كان المقام يتوجه بها إلى صلاة عيد الأضحى.

أورد النيسابورى فى تفسير "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" بيان وجه الإعجاز فى هذه السورة قال:

"وقد يقال: إن هذه السورة مع قصرها معجزة من وجوه، لما فيها من الإخبار بالغيوب، وهو الوعد بكثرة الأتباع والأولاد، وزوال الفقر، حتى نحر مائة بدنة فى يوم واحد، وقد وقع مطابقا؛ ولأنهم عجزوا عن معارضتها مع قصرها، فإنها أقصر سورة من القرآن"[٢] لكنها مع ذلك القصر تشتمل على ثلاثة موضوعات متشعبة، ثم تتجمع فى المضمون حول الخير الكثير لرسول الله ولأمته جميعا.

---

(١) الضحى ٥ .

(٢) غرائب القرآن للنيسابورى جـ١١ صـ٥٣٤ .

٣ ـ مع سورة الإخلاص

الإخلاص: هو الصفاء والنقاء، والتنزه عن الأخلاط والأوشاب.

والإخلاص الدينى: تجريد التقرب إلى الله تعالى من جميع الشوائب والعلل، والتبرؤ من كل ما دون الله سبحانه وتعالى، وفى القرآن الكريم سورة تسمى الإخلاص، التى يقول الله تبارك وتعالى فيها بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ وسميت السورة بذلك؛ لأنها خالصة لصفة الله تعالى، خاصة؛ أو لأن الناطق بها المؤمن بمعناها قد أخلص التوحيد لله عزوجل، وقد قيل إنها تعدل ثلث القرآن الكريم، حيث اشتملت على ثلاثة معان هى: "معرفة ذات الله تعالى وتقديسه،ومعرفة صفاته وأسمائه،ومعرفة أفعاله وسننه مع عباده.

ولما تضمنت سورة الإخلاص أحد هذه الأقسام الثلاثة، وهو التقديس وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن"[١].

وجاء عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال النبى ﷺ لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد" ثلث القرآن[٢].

وقال فى حديث آخر: "والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن".[٣]

وقيل إن السورة أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت على الثالث، فكانت ثلثا لذلك.

وينبغى على كل مسلم أن يخلص الدين لله، وألا يقصد به المراءاة، أو نفاق الناس، أو خداع الآخرين؛ لأن ذلك يحدث كثيرا فى بعض المجتمعات الإسلامية، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يسلم عباده الأتقياء من كل ما يسيىء إلى دينهم وإليهم أنفسهم .

---

(١) غرائب القرآن للنيسابورى جـ١١ صـ٥٦٢ .
(٢) من صحيح البخارى (٥٠١٥) .
(٣) فى صحيح البخارى جزء من الحديث رقم (٥٠١٣).

قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾(٢) .

ولمكانة هذه السورة، ولمنزلتها فى القرآن الكريم الذى كله منزل من الله تبارك وتعالى روى أنس رضى الله عنه : "أن رجلا كان يقرأ فى جميع صلاته: "قل هو الله أحد" فسأله الرسول ﷺ عن ذلك ــ فقال: يا رسول الله إنى أحبها فقال: حبك إياها يدخلك الجنة"(٣).

وجاء فى سبب نزول هذه السورة حسب ما رواه أبى بن كعب أن المشركين قالوا للنبى ﷺ انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

والصمد: المقصود فى الحوائج على الدوام، وكفوا: متكافئا.

وكتب صاحب ظلال القرآن عن سورة الإخلاص فقال: "هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة [الكافرون] نفى لأى تشابه، أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك، وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه.

وقد كان الرسول ــ ﷺ ــ يستفتح يومه فى صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه"(٤).

إن الأمة الإسلامية فى حاجة الآن أكثر من أى عصر مضى إلى الإخلاص فى العبادة، وفى معاملة الناس، وفى الأمور كلها؛ حتى ترتقى النفوس، وتسمو الأرواح، ويشعر كل فرد بالآخرين، فلا ينصرف عنهم ،أو يتدخل فى

---

(١) البينة ٢ .
(٢) الزمر ٢، ٣ .
(٣) ذكره الرازى فى مفاتيح الغيب مرويا عن أنس ﷺ ، كما جاء فى غرائب القرآن للنيسابورى .
(٤) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ٦ صـ٤٠٠٥ ــ دار الشروق.

شئونهم؛ لكى تكون علاقات البشر بعيدة عـن الضـعف والانكسـار، والـذل والاحتكار.

نعمة الإخلاص:

إن أخطر شيء على الإخلاص الدينى الذى يجب التمسك به، والحـرص عليه، هو أن يبتغى الإنسان بعمله الرياء والمفاخرة، إذ أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالنية، التى يجب تطهيرها وتنقيتها من الشوائب التى تلوثها، وتفقدها قيمتها فـى ميزان العمل، والسعى نحو الطريق إلى الله.

والإخلاص نعمة من عند الله تعالى تستحق الشكر؛ حتى يديمها الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده، ويصطفى من خلقه؛ لكن المؤسـف حقـا أن كثيرا من بنى البشر عندما يسيرون خطوات فى طريق الإخلاص، فإنهم يغترون بأعمالهم، ويعجبون بها أشد العجب، فيتجهون بما لديهم من مكونات إيمانية نحو التقرب من الناس على حساب التقرب من الله، فيتجلى الأمر فى صورة مـراءاة فارغة، لا قيمة لها عند الله، وهكذا ينبغى على الإنسان أن يستمر فى تجرده من انحرافات البشر، مصمما على ألا يجعل للشيطان حظا فى عبادته.

الطريق إلى الإخلاص:

يسأل كثير من الناس عن علامات الطريق إلى الإخلاص، وكيفية الوصول إليه، وهل يمكن أن يتحقق ذلك لبعض من أغروا بمظاهر الفتنة أينما وجـدت؟ والإجابة واضحة وضوح الشمس، وهى أن السير فى طريق الإخـلاص يكـون بتعبيد هذا الطريق، والنظر فيه إلى كل ما هو نـافع ومفيـد للـدنيا والآخـرة، كمحاربة النفس الأمارة بالسوء، والتحول معها إلى نفس لوامة على ما كان فـى ماضيها القريب والبعيد، ومقاومة الطمع، والتجرد من عبـادة الـذات، للإقبـال المرتقب على العالم الأخروى القريب، واضعا فى الاعتبار أن الشيطان ينهـزم بقسوة أمام المخلصين لله تعالى، فيعجز عن إغوائهم، ويفشل فى مكائده معهـم، قال تعالى على لسان إبلـيس اللعـين: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

(١) سورة "ص" ٨٢، ٨٣.

ثمرات الإخلاص:

إن الإنسان ينظر إلى شجرة الإخلاص ويتابعها وهى تنمو وتعلو، ثم تزهر وتثمر، وأفضل هذه الثمار محبة الله تعالى لمن أخلص الحب له، وقبول المولى جلت قدرته من المخلص كل ما يرتقى به فى طريق الخلاص والإخلاص، وقد عرض الرسول ﷺ لهذا الأمر فى حديث يذكره الناس كثيرا، ثم يغفلون عنه فى غيبة عن الوعى الدينى قال ﷺ : "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه"(١).

وللإخلاص ثمرة لابد أن نضعها فى حسابنا، ونحن فى طريقنا إلى الله وهى انقطاع الوسواس عن الإنسان؛ لأن بعض الناس يقعون فى أخطاء ولا يحرصون على البراءة منها والندم عليها، فيعيشون ما تبقى لهم من عمر تحت سيطرة الشيطان، الذى يوسوس لهم ويصرفهم عن الرؤية الواضحة فى كل أفعالهم، ويتوهمون أن سحرا لحق بهم، أو مكيدة دبرت لهم، أو كارثة ستحل عليهم، فيحتمون بالقرآن الكريم، الذى يعيشون معه كثيرا من الوقت، طلبا لبعض الراحة، وحرصا على التوبة التى تأخروا فيها كثيرا، ومن ثمرات الإخلاص أيضا صرف الفحشاء والمنكر عن الإنسان، ويكون ذلك بالمداومة على الصلاة، كما ذكر القرآن الكريم، ومن الثمرات كذلك النطق بالحكمة، ومضاعفة الحسنات، ونصر الله للإنسان، على أن ثمرات الإخلاص لا تنحصر فى كل ذلك، وإنما هى مجرد أمثلة يتذكر بها أصحاب القلوب الرحيمة والنفوس المطمئنة الراغبة فى الإخلاص.

إخلاص المرء لأهله ،وأصدقائه، وسائر الناس جميعا:

إن الإنسان قليل بنفسه كثير بإخوانه، فلا يستطيع الاستغناء عن البشر مادام قد أنس إليهم ووثق فيهم، وبادلوه حبا بحب، وكلما حافظ على مشاعرهم وتقرب منهم وجد ما يشجعه على السير فى ذلك، وهنا تتجلى قضية سلوكية

---

(١) رواه النسائى واللفظ له من حديث شداد بن أوس رضى الله عنه.

هامة، وهى الإخلاص فى التعامل مع الآخرين، فيبدأ بالتعاطف معهم، والتقـرب إليهم بالقدر المناسب، والسؤال عنهم فى كل ما يشغلهم فرحا أو ترحـا، وكلمـا أخلص لهم كان ذلك ــ فى المقام الأول ــ تقربا من الله تعالى، وإخلاصا له جل شأنه، والناس هم الأهل والأصدقاء والجيران والزملاء وأبناء الوطن وغيرهم.

وقد نبه الإسلام إلى أهمية النية، وتأكيد دورها فى السمو بالإخلاص إلـى مرتبة عالية تتجاوز حدود النزعات الإنسانية القاصرة، فقد قال الرسول ﷺ : "إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملهـا كتبهـا الله تعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها، فعملها ، كتبها الله عشـر حسـنات إلـى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنـده حسـنة كاملة، وإن هم بها، فعملها كتبها الله سيئة واحدة"[١].

وقال ﷺ : "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قلت يا رسول الله: القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه"[٢].

والآن ... هيا بنا إلى طريق الإخلاص للسير فيه، والتقرب من خلاله إلى الله تعالى، ومقاومة الشيطان أينما كان، والإحسان إلى المؤمنين جميعا.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) متفق عليه من حديث أبى بكرة رضى الله عنه .

٤ ـ اهدنا الصراط المستقيم

هذا العنوان آية من فاتحة الكتاب التى يقرؤها المسلمون فى كل صلاة، وهى دعاء من أدعية القرآن الكريم، التى يتعبد الناس بها، ويحرصون على ترديدها فى كثير من الأوقات.

والصراط المستقيم: هو طريق الله الواضح، الذى لا زيغ فيه ولا التواء، وهو ضمان السعادة فى الدنيا والآخرة؛ لأنه ينظم حركة الإنسان فى علاقاته مع البشر، تقديرا وحرصا على إقباله على الله تعالى وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بالهداية والرشاد؛ إذ أنهم لم يفعلوا ما يغضبه سبحانه وتعالى، ولم يكونوا مضلين لخلقه، ولا ضالين لأنفسهم، فاستحقوا بأفعالهم، ورضا الحق عليهم أن يكونوا من أهل الطريق القويم.

وطريق الله: هو الخط الواضح المستقيم، وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه خط خطا مستقيما، وخط عن يمينه خطوطا، وعن شماله خطوطا، ثم قال مشيرا إلى الخط المستقيم: "هذه سبيل الله".

وقال مشيرا إلى الخطوط التى عن يمينه وشماله : "هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه" ثم قرأ ﷺ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

ويشتمل هذا الدعاء على خلق من أخلاق الإسلام، ومنهج من مناهج ديننا الحنيف، يؤثر تأثيرا عظيما فى حياة المسلم، وجاءت الدعوة إليه فى العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ لما لهذا الخلق من قيمة ومنزلة فى حياة الناس جميعا، إنه السلوك القويم الذى يحرص كل راغب

---

(١) الأنعام ١٥٣ .

فى الهداية والصلاح أن يسير على أضوائه، وهو الاستقامة التى هى الاعتدال، والاستواء فى الالتزام بالمنهج الذى لا عوج فيه، وقيل إنها : الإقامة على الإسلام، والدوام على هدى الله عزوجل، والاستمرار فى التقيد بقيوده، والوقوف عند حدوده، والاستجابة لأوامره، والانتهاء عن محارمه.

وقيل إن الاستقامة فى الشرع هى: "لزوم طاعة الله، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه".

وقد تحدث القرآن الكريم فى مجموعة من الآيات عن الاستقامة حديثا يختلف فى دعوته ومناسبته بين آية وأخرى، ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1].

ومعنى تتنزل عليهم الملائكة: أى عند الموت، وقيل: إذا قاموا من قبورهم للبعث، وقيل إن البشرى فى ثلاثة مواطن: عند الموت وفى القبر وعند البعث. ومعنى: "ألا تخافوا" أى من الموت "ولا تحزنوا" أى على أولادكم، فإن الله خليفتكم عليهم، والمعنى ــ كما قال القرطبى ــ " أى تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة " نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ " قال مجاهد : أى نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا: لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة، وقال السدى : أى نحن الحفظة لأعمالكم فى

(١) فصلت ٣٠ ــ ٣٢ .

الدنيا، وأولياؤكم فى الآخرة[١] ... وذكر أيضا أن هذه الآية نزلت فى أبـــى بكر الصديق، وذلك أن المشركين قالوا: ربنا الله ، والملائكة بناته، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، فلم يستقيموا، وقال أبوبكر: "ربنا الله وحده لا شريك لـــه، ومحمد ﷺ عبده ورسوله فاستقام" [٢].

أمـــا قـــول الله تعـــالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾[٣].

فقد نزل فى الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة، حيث سألا النبى ﷺ أن يرجع عن دينه.

والاستقامة: هى الفارقة بين مؤمن ومؤمن، فالأول آمـــن باللســـان، وصدق بالقلب، والثانى التزم بذلك، وأضاف إليه الحرص على التكـــاليف والاستجابة للأوامر، والانتهاء عن المنهيات، ومطابقة الأفعال للمعتقدات.

والأصوب أن تكون الاستقامة شاملة لكل سلوك الإنسان، لا فرق فيه بين ما اتصل بالدنيا وما اتصل بالآخرة، فإن منهج المسلم كل لا يتجزأ قولا وفعلا، وإن كانت الاستقامة دعوة إلى استمرار الالتزام بالسلوك الإيمـــانى القويم.

فعن أبى عمرو، وقيل أبىعمرة سفيان بن عبدالله الثقفى ﷺ قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ــ وفى رواية غيرك ــ قال : "قل آمنت بالله ثم استقم"[٤].

(١) تفسير القرطبى حـ ١٥ ص ٣٥٩ .
(٢) السابق ١٥ ص ٣٥٧ .
(٣) الشورى ١٥ .
(٤) رواه مسلم .

وقـــال تعـــالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١].

وقد جاءت هذه الآية فى سورة هود التى قال الرســول فــى حقهــا: "شيبتنى هود وأخواتها"[٢] وأخوات هود هى : الواقعــة، والحاقــة، وعــم يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية ، إذ أثارت فيه أى : هــود وأخواتهــا حسب الروايات ــ الفزع، وقد قيل إنه ــ أى الفزع ــ يورث الشيب.

وجاء فى تفسير القرطبى : أن الذى شيب النبى صلى الله عليه وسلم من سورة هود قوله : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ .

كما جاءت عدة آيات متفرقات عن صراط الله المستقيم منها قولــه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[٣].

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٤] .

وقوله تعــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[٥].

إن واقع المجتمعــات المعاصــرة يشــهد كثيــرا مــن المخالفــات والتجاوزات، التى يضج الناس منها، وإن المشكلة تكمن فى عدم الالتــزام بالمنهج الإسلامى، أو ما يمكن أن يسمى بالخروج على القانون الذى هــو

---

(١) هود ١١٢ .

(٢) رواه الطبرانى ، واختلف الرواة فى أخوات هود وقيل إن أخوات هود هــى : الواقعــة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت .

(٣) آل عمران ٥١، وسورة الزخرف ٦٤ .

(٤) الأنعام ١٦١ .

(٥) الأحقاف ١٣، ١٤ .

انحراف عن خط الله المستقيم، بالسير فى طرق معوجة غير واضحة، وقد يكون ذلك فى شكل تقصير من خلال الاكتفاء بالقول، دون الحرص على الفعل الجيد، والسير على طريقه، ذلك مما حذر القرآن الكريم منه فى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾[1].

أو يكون الانحراف من خلال المطالبة بالمبادئ، ثم التحلل منها، أو الحرص عليها علانية، وطعنها والانفلات منها خفية، وتمر السنون، وينكشف ما كان مستورا ولا يلبث أن يهوى إلى الحضيض من كانوا ملء السمع والبصر؛ بسبب ميلهم عن الجادة، وانحرافهم عن الطريق المستقيم، وهذا يذكرنا بقول الشاعر الجاهلى القديم:

ومهما تُكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ∴ وإنْ خالَها تَخفى على الناس تُعْلَم

إن الاستقامة خلق إسلامى ورسالة دينية، والتزام حضارى، وتوجه يتحلى به كل من يفهم الإسلام فهما أصيلا ومتجددا، وليس تراثا يجأر الناس به فى دور العبادة ومعاهد التعليم، مجردا من الأفعال العظيمة الخالدة، وهو منهج يضاف إلى السيرة العطرة التى يحيا الشخص المعتدل المستقيم بها بين الناس، جزاء إيمانه واستقامته فى الدنيا، وجزاء ما يدخره الله له من ثواب عظيم فى الآخرة.

---

(١) الصف ٢، ٣ .

ثانيا : مع الرسول صلى الله عليه وسلم

١ـ السنة والبدعة٠

٢ ـ من الهدى النبوى٠

٣ ـ عتاب الله للرسول (صلى الله عليه وسلم) ٠

١ـ السنة والبدعة

تعد السنة النبوية المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم، وتطلق فـــى اللغة على الطريقة والمنهج، كقول الرسول ﷺ : "... فمن رغب عن سنتى فليس منى"(١).

والسنة عند علماء الحديث: ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعـــل أو تقرير أو صفة خُلُقيه أو خِلْقية، وهى بهذا التعريف مرادفة للحديث النبوى.

فالقول كما جاء فى كلام الرسول الذى رواه عمر بن الخطاب ﷺ ، قـــال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات ... الحديث) (٢).

والفعل: مثل أعماله التى نقلها إلينا أصحابه رضوان الله علـــيهم، كقـــول بعضهم: "كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقـــول: لا يصوم... الحديث"(٣).

ومثل إقراره لمعاذ بن جبل فى القضاء حينما بعثه إلى اليمن، وقال له: "بم تقضى إذا عرض لك قضاء؟".

قال: بكتاب الله .

قال : "فإن لم تجد؟".

قال: بسنة رسول الله .

قال : "فإن لم تجد؟" .

قال: اجتهد رأيى ولا آلو .

فضرب رسول الله صدره، وقال له : "الحمد لله الذى وفق رسول الله، لما يرضى الله ورسوله"(٤).

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) رواه أبو داود والترمذى .

ومعنى لا آلو : أى لا أجهد نفسى فيه، ولا أبالغ فى طلبه؛ دفعا للمشـــقة، وطلبا للتيسير ٠

وتمثل الصفة جانبا من السنة مثل قول الراوى: "كان رسول الله ﷺ أجـــود الناس"(١).

ويتصل بصفاته الخِلْقية مثل: "كان رسول الله ﷺ أحســـن النـــاس وجهـــا، وأحسنهم خلقا، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير البائن"(٢).

وقد اكتمل الإسلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية، أما المستجدات الحديثـــة التى يلزم إبداء رأى الدين فيها، فتخضع للقياس، أو لآراء العلماء الذين يصلحون للاجتهاد، فيكون كلامهم حجة على مَنْ دونهم فى العلم والفقه والتقوى ٠

ونؤكد أن للسنة إطلاقات أخرى عند علماء الأصول، وعند الفقهاء، كمـــا أنها تطلق ، ويراد بها الطريقة المسلوكة فى الدين سواء أكانت حسنة أم سيئة ٠

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "من سن فى الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غيـــر أن ينقص من أوزارهم شىء"(٣).

والتحديد للسنة عند علماء الحديث هو المقصود هنـــا؛ لأن العمـــل بهـــا، والالتزام بما صح عن الرسول يقابل ويباين الخروج عن نطاق السنة، والوقوع فى شرك البدعة التى نهى عنها رسول الله ﷺ ٠

وقد أكثر العلماء فى الحديث عن البدعة فى الدين؛ للتحذير من خطورتها، وآثارها الضارة فى ضياع شخصية الأمة الإسلامية، وتمزيق كيانها، وصـــرفها إلى الاختلاف، وإبعادها عن جوهر العقيدة٠

قال الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر السابق:

---

(١) رواه البخارى ومسلم ٠
(٢) رواه البخارى ومسلم ٠
(٣) رواه مسلم ٠

"وقد جرت على ألسنتنا من قديم كلمة (بدعة)، وأخذها بعض الناس عامة فى العبادات والعادات، وحرموا باسمها كثيرا من العادات الطيبة، ووسائل الحياة القوية، وأهدر بعض آخر قيمتها باسم حرية الرأى، وامتدت إلى العقيدة فأفسدتها، وإلى العبادة فحرفتها أو أهملتها، واستباح المنتسب للإسلام بهذا الوهم الخادع أن يعتقد ما يشاء، وأن يعبد أو لا يعبد كما يشاء"[١].

والبدعة المذمومة هى التى تكون فى الدين، ويؤكد ذلك قول الرسول ﷺ : "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد[٢]".

أما الابتداع فى أمور الدنيا فخارج عن نطاق البدعة الدينية، كما جاء عن الرسول فى تأبير النخل: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"[٣].

ولقد كلف الله عباده بالعقائد، كالإيمان بالله وكتبه ورسله، كما كلفهم بالعبادة مثل الصلاة والزكاة والحج ، وأبان لهم أشياء أحلها لهم، وحرم عليهم أشياء؛ صونا لحياتهم، والدين أو الشرع جماع كل ذلك، والخروج عنه، والتحلل منه وعدم التمسك به يعد انحرافا عن دين الله، ولهذا فالابتداع فى الدين إنما يكون فيما نعبد الله به من عقيدة أو عبادة أو حل أو حرمة، أما ما عدا ذلك مما ليس عبادة لله فليس بدعة أو خروجا من الدين.

إن التجديد فى وسائل الحياة والتنظيم والتغيير فى مناهجها يخضع فى ميزان البشر ومواقفهم للمنفعة والضرر، فإذا كان الشىء مستحدثا فى أمور الدنيا فهو مقبول ولا اعتراض عليه، أما إذا أسفر عن ضرر وإيذاء للإنسان فهو مرفوض.

وتكمن خطورة البدعة فى استشعار المبتدع أنه يكمل نقصا فى دين الله، لعدم ثبوته فى القرآن الكريم والسنة النبوية، وأن الرسول لم يقم بتبليغه وإرشاد الناس إلى فعله أو تركه .

أما الإطار العام لشخصية المسلم التى تتوافق مع المجتمعات الإنسانية الأخرى فلا يتوقف به عند حد، بل له أن يطور فى مستحدثاته، ولا يتوقف نطاق ما ورثه عن آبائه وأجداده.

---

(١) الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت طبع دار الشروق صـ١٨١، ١٨٢ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه مسلم وتأبير النخل : تلقيحه.

قال الشيخ محمود شلتوت: "وإذن؛ ليس لنا أن نقول عن شيء يقع في هذه الدائرة إنه لم يفعله الرسول، ولا أحد من خلفائه، فلا تفعله؛ ذلك بأنهم لم يفعلوه؛ لأن زمنهم لم يطلبه، ولم تخلق لديهم بواعث عمله أو التفكير فيه .

ومحال على الرسول وخلفائه أن يعترض تقدمهم في الحياة شيء لا يمس عمله عقيدة ولا عبادة، ولديهم وسائله والقدرة عليه، ثم لا يعملوه بحجة أن الله لم يأذن لهم فيه"(١).

أما العقائد والعبادات والمباحات والمحرمات بنص القرآن والسنة، فلا يصح التصرف البشري فيها؛ لأن الدين قد اكتمل، ولا يبقى إلا العمل على إحيائه، والاستمرار فيه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾(٣) .

وصح أن الرسول ﷺ خط خطا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين هذا الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾(٤) .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٥).

"فالبدعة الدينية تكون في الأصول المتفق عليها، أما الفروع التي هي محل للاجتهاد، وفيها خلافات للعلماء، فلا ينبغي أن توصف بالبدعة، وقد قال العلماء

---

(١) الفتاوى ص١٨٣ .
(٢) البقرة ٢٢٩ .
(٣) آل عمران ١٠٣ .
(٤) الأنعام ١٥٣ .
(٥) الأنعام ١٥٩ .

إن العمل المستحدث إذا استند إلى حديث، ولو كان ضعيفا يخرجه عـن نطـاق البدعة"[١]٠

إن البدعة الدينية ممارسة لعمل أو قول بقصد العبادة لم تكـن فـى عهـد الرسول وأصحابه، أما ترك ما كان يفعله الرسول ﷺ فيمكن أن يسمى مخالفة أو تحريما أو كراهة، ولهذا لا يليق أن نسرع فى إطلاق اسم البدعة على كل شيء جديد ٠

فالبدع المستحدثة فى القرون الأخيرة أكثر من أن تحصر فى مقالة موجزة ولنعط أمثلة ظاهرة منها:

أولا: بدع المآتم وزيارات القبور، للمبيت فيها والنواح أمامها٠

ثانيا: بدع المناسبات الدينية مثل مولد الرسول، وليلة النصف من شعبان، ويـوم عاشوراء، وغيرها٠

ثالثا: موالد بعض الأولياء والصالحين٠

رابعا: سلوكيات الناس فى الأسواق العامة٠

وغير ذلك من المظاهر التى تسيىء إلى الإسلام أكثر مما تفيده ويمكن لمن أراد المزيد فى هذا الموضوع – أن يرجع إلى كتاب (إحياء علوم الدين) لأبـى حامد الغزالى رحمه الله ٠

(١) بيان للناس من الأزهر الشريف جـ٢ ص١٨٠ ٠

٢ـ من الهدى النبوى

عن أبى هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"(١).

ذكر الرسول ﷺ فى هذا الحديث ثلاث خصال من دلائل الإيمان بالله واليوم الآخر، وهى تنظم بعضا من علاقات المسلم بغيره من البشر؛ تأكيدا لنشر المحبة والمودة بين الناس، فليس الإسلام قاصرا على مجموعة من الصلوات يؤديها المسلم بالمسجد، أو صدقة يدفعها لفقير أو مسكين، ولكنه عبادة شاملة لعلاقة المسلم بربه وعلاقته بالناس.

وقد عرض الحديث الشريف لمجموعة من الأخلاق جاءت **أولاها** فى قول الرسول ﷺ : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت".

والمقصود من الإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وقول الخير: أى قول ما فيه نفع دينى، كقراءة القرآن، أو التعليم لعلم مفيد فى الدنيا والآخرة، وشهادة الصدق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والمعرفة الصحيحة للمعاملات الدنيوية المحققة للكسب والخير .

ويكون الكلام أو القول حراما كالكذب والخديعة،والغيبة والنميمة، ويكون مكروها كالمزاح المفرط،أو يكون لغوا لا قيمة له،ومن الأفضل تركه مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٢).

وليس المراد من حفظ اللسان هو السكوت دائما، وإنما المقصود الكلام النافع الذى لا يضر، أو السكوت إذا رأى الإنسان فيه السلامة والخير للآخرين.

قال رسول الله ﷺ : "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"(٣).

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) المؤمنون ٣ .
(٣) رواه مالك فى الموطأ ،وأحمد والطبرانى والترمذى من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: "... وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم"[١]٠

وكتب أبوحامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين عن مجموعة من السلوكيات القولية أطلق عليها (آفات اللسان) مثل: كلام الإنسان فيما لا يَعْنيه والخصومة، والكذب، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، وغيرها٠

وقال رسول الله ﷺ : "إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار"[٢]٠

وقال الشاعر:

عوِّدْ لسانك قولَ الصدق وارضَ به ∴ إن اللسانَ لما عودتَ معتادُ

وقال تعالى فى شأن الغيبة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] ومن هنا كانت صيانة المسلم لسانه تمثل أهمية كبيرة فى المجتمع الإنسانى عامة، الذى صارت فيه الكلمة ذات تأثير فى نمو العلاقة بين الناس إيجابا وسلبا٠

وثانيها: إكرام الجار، وجاء ذلك فى قول الرسول ﷺ من الحديث المذكور: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره"٠

وقد تحدث رسول الله ﷺ فى كثير من الأحاديث عن إكرام الجار، وحقوقه وواجباته، حرصا على تنمية العلاقة الحميمة بين الجار وجاره، مما يتجلى معها التوجه الحضارى للإسلام ،وأنه يمثل بهذه التشريعات صورة راقية ومتجددة، لتقوية البنية الاجتماعية، وزيادة أواصر المودة والمحبة بين الجيران، مهما اختلفت درجة كل واحد عن الآخر، وجاء قول رسول الله ﷺ بما فيه من أسئلة وأجوبة؛ لتنبيه أصحابه وسائر المسلمين إلى أهمية الالتزام بهذه الحقوق، قال:

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه٠

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث معاوية رضى الله عنه بإسناد حسن٠

(٣) سورة الحجرات ١٢ ٠

"أتدرون ما حق الجار"؟ إن استعانك أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر جدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها، وإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا تخرج بها ولدك فيغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك[1] إلا أن تغرف له منها"[2].

وفى الصحيحين: "ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

هذا وقد قيل إن الجار من يجاورك إلى أربعين دارا من كل جانب، ولو قلنا بمثل ذلك فى الحقول والمتاجر والمصانع والمصالح والبلدان، لعلمنا أن الإسلام يدعو إلى نشر المحبة ، وتوثيق الروابط بين الأفراد والجماعات، وأهل البلدان والأقطار؛ ليعم السلام بقاع الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[3] .

فالجيران ثلاثة: جار مسلم قريب له حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار، وجار مسلم له حق الجوار، وحق الإسلام، وجار غير مسلم له حق الجوار، فالجيران مهما تعددت أو اختلفت سبل التقارب بينهم، ينبغى أن تكون العلاقة بينهم خاضعة للحب والاحترام والمودة والتقدير.

وينبغى للجار أن يتحمل أذى جاره، وأن يصبر عليه؛ حتى تتغير سلوكياته إلى الأفضل، وأن هذا التحمل من جملة الإحسان إليه.

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عَملت به دخلت الجنة، فقال: "كن محسنا" فقال يا رسول الله: كيف أعلم أنى محسنٍ، قال:

(١) رائحة ما فيه.
(٢) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ،وابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الإيمان حديث (٩٥٦٠).
(٣) النساء ٣٦ .

"سل جيرانك، فإن قالوا إنك محسن فأنت محسن، وإن قالوا إنك مسيئ فأنت مسيئ"[(١)].

وعن أبى هريرة ﷺ قال:جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له: ["إذهب فاصبر" فأتاه مرتين أو ثلاثا: ثم قال: "اذهب فاطرح متاعك على الطريق" ففعل، فجعل الناس يمرون به ويسألونه عن حاله فيخبرهم خبره مع جاره، فجعلوا يلعنون جاره، ويقولون: فعل الله به، وفعل، ويدعون عليه، فجاء إليه جاره، وقال: يا أخى ارجع إلى منزلك فإنك لا ترى ما تكره أبدا] [(٢)].

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قيل يا رسول الله: إن فلانه تصلى الليل، وتصوم النهار، وتؤذى جيرانها بلسانها، فقال: "لا خير فيها هى فى النار" فسأل الله أن يهديها [(٣)].

إن نشر المحبة بين الناس هدف إسلامى، ولذلك لابد للشخص أن يراعى حقوق الجار فيحرص عليها، وأن يعرف واجباته فليلتزم بها، بحيث لا يقحم نفسه فى شئون جيرانه، وألا يتجسس عليهم، أو يتحدث بأخبارهم، وعليه أيضا ألا ينصرف عنهم، أو يخرجهم من دائرة اهتمامه، فتبقى العلاقات بينهم فى حدود الشرع القويم بلا تجاوز أو تقصير.

وثالثها: إكرام الضيف، ويتجلى ذلك فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه".

وتخضع الضيافة لقدرات المضيف، ومن عجز عنها فلا تطلب منه، فإن تحامل على نفسه وأكرم ضيوفه كان ذلك إيثارا لغيره، وهو من صفات المتقين، كما فعل أحد الصحابة مع ضيف رسول الله حينما نوم صبيانه وعشى ضيفه.

وقد تلاشت الضيافة فى العصر الحديث لاعتبارات كثيرة، فلم يعد للناس من الوقت ما يسمح لهم باستقبال شخص أو جماعة ليوم أو يومين، ثم إن سعار

---

(١) رواه ابن ماجه وأحمد والطبرانى.
(٢) رواه أبو داود والحاكم.
(٣) رواه أحمد والحاكم (احياء علوم الدين جـ٢ ص ٢١٢).

المادة، والحرص على الدنيا جعل الكثيرين يكتفون بفعل القليل، بل ربما اقتصر الأمر على كلمة مجاملة، أو عبارة تقليدية محفوظة، وينصرف كل إلى حاله، ثم إن سهولة التنقلات جعلت الضيافة فى حدود ضيقة، خاصة فى المجتمعات الشعبية إذ أن الغائب عن بلده أو بيته لا يجد مشقة فى الرجوع، لكن ذلك كله لا يلغى حتمية التمسك بهذا الخلق الإسلامى المشروع الذى ينبغى أن يكون حيا متجددا فى وجدان الناس مهما اختلفت الأزمان والأوطان.

٣ـ عتاب الله للرسول ﷺ

نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ منجما حسب المواقف؛ تعبيرا عن بعض الأحداث الكائنة فى حياة الرسول، وتوجيها له نحو الأساليب المثلى فى الدعوة إلى الله، خاصة فى السنوات الأولى من عصر المبعث.

وقد جاء العتاب تصويرا وتعبيرا لعلاقة الرسول بأصحابه فى بعض المواقف، التى لم يستوعب نفر منهم مدى صلتهم بالرسول، فكانوا يتعاملون معه بالموروث الأخلاقى، الذى انتقل معهم جيلا بعد جيل، ومن هنا كان العتاب انطلاقا من إنسانية الرسول التى تحكم على الأمور بمعيار هذه الانسانية، التى لم تصل إلى عالم الملائكة بأسراره العجيبة، وهو رسول موحى إليه، وينزل عليه القرآن الكريم، كاشفا له أبعاد الحقيقة، ومنيرا له طريق الهداية، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾(١).

والإسلام دين حضارى نبتت الدعوة إليه فى أعماق الصحراء، قريبا من الكعبة، وبين أقوام أشتات، وتحول بهم إلى ساسة وقواد، وعلماء متميزين فى ساحات الفكر الإنسانى دون التفريق بين شخص وآخر، إلا بمقدار تقواه، واقترابه من التشريع الإلهى قال ﷺ : "الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى"(٢).

ولذلك قرب الإسلام بين الأجناس المختلفة، فالنبى ﷺ من العرب، وصهيب من الروم، وسلمان من فارس، وبلال من الحبشة.

وفى نطاق اللغة:عتب عليه عتبا وعتابا: أى: لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال،طالبا منه حسن مراجعته،ومذكرا إياه بما كرهه منه، والعتبى:الرضا .

---

(١) الضحى ٧ .

(٢) ذكره أبو هلال العسكرى بإسناده إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنما الناس كأسنان المشط "، قال مخرج أحاديث جمهرة الأمثال : أخرجه ابن عدى فى الكامل، والقضاعى فى الشهاب، وانظر الأمثال للميدانى.

قال الشاعر:

دَع العتـــابَ فـــرُبّ شَــرٍّ :. هـــاجَ أولَـــه العتـــابُ

وعتاب الله للرسول صلى الله عليه وسلم : إرشاد إلهى وتوجيه ربانى، ينظم العلاقة بين الله ورسوله من جهة وبين الرسول وأصحابه من جهة أخرى؛ تذكيرا للناس، وبيانا لأساليب المخاطبة فيما بينهم ٠

ونفتتح هذا العتاب بقول الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ [١] وقد نزلت هذه الآيات فى مكة يوم أن كان المسلمون ضعافا، ولا قوة لهم، بالنظر إلى ما كان يسود الجزيرة العربية وبلاد الروم وفارس من نفوذ وسلطان، وكانت الدعوة الإسلامية تعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة، والنقاش بالكلمة الطيبة الهادئة، ووجدت أصداء لها عند الضعاف، والأرقاء الذين وضعوا آمالهم فى الدين الجديد؛ خلاصا لهم من الواقع المر الأليم، فالتقوا بالرسول وببعض أصحابه من الأغنياء الموسرين ٠

وعبس: أى كلح بوجهه، وتولى: أعرض بوجهه٠

وجاء فى تفسير القرطبى ما يأتى: "روى أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبى ﷺ ، وقد طمع فى إسلامهم، فأقبل عبدالله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبدالله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية ... وقيل إن الذى كان عند الرسول رجل واحد، وجاء إليه عبدالله يقول له: ارشدنى أو علمنى مما علمك الله، وهو لا يدرى لعدم رؤيته أن الرسول مشغول، حتى ظهرت الكراهة فى وجه الرسول، فنزلت الآيات"[٢].

---

(١) سورة عبس ١ ــ ٤ ٠

(٢) تفسير القرطبى جــ١٩ صــ٢١١ ٠

وكان النبى إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: "مرحبـا بمـن عاتبنى فيه ربى" ٠

ومع أن ما فعله هذا الصحابى الجليل لم يكن مناسبا للموقـف، ولكـن الله عاتب الرسول؛ حتى لا تنكسر قلوب بعض المؤمنين، وإن كان ما فعله نوعا من المصلحة؛ ثقة بما كان فى قلب ابن أم مكتوم من الإيمان٠

وقول الله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾: أى وما يعلمك لعله (يزكى) بمـا استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة فى دينـه وزوال ظلمة الجهل عنه٠

وقيل : لعله يعنى أنك إذا طمعت فى أن يتزكى بالإسلام، أو يذكر فتنفعـه الذكرى إلى قبول الحق، وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن٠

وعن عائشة قالت : أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فى أن ابن أم مكتوم الأعمى أتـى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله: أرشدنى، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، فيقـول له: أترى بما أقول بأسا؟ فيقول: لا، فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [(١)] وقد اختلفوا فى اسمه اختلافا كثيرا،فقالوا:عبدالله، وعمرو بن قيس بن زائدة الأصم٠

وأم مكتوم: أمه واسمها : عاتكة بنت عبدالله، واشتهر بعبدالله بن أم مكتوم الأعمى القرشى العامرى٠

واختلفوا أيضا فى تاريخ هجرته فقالوا: إنه هاجر مع مصعب بن عمير ، وقيل: هاجر بعده بقليل ، وقيل: بعد غزوة بدر بوقت قصير، وكـان الرسـول يستخلفه على المدينة، حين يخرج للغزو؛ حتى قيل إنه استخلفه فى ثلاث عشرة غزوة، وكان ــ مع عماه ــ يشارك فى الفتوحات الإسلامية، وذكروا أنه شـهد

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم٠

القادسية، ثم رجع منها إلى المدينة، وتوفى بها، ولم يعد له ذكر بعد عهد عمر بن الخطاب[١].

وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يؤذن له، ونزل فيه أيضا قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

ويأتى عتاب آخر مع جماعة أخرى من الصحابة، الذين نزل فى شأنهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

وهذه الآية مما نزل فى مكة يوم أن كان الإسلام دعوة جديدة فاجأت الكثيرين بمعتقداتهم القديمة ، وعاداتهم المتوارثة، فتصدوا لها؛ حتى لا يزوغ سلطانهم، وتغرب شمسهم، وجاء فى سبب نزولها أن المشركين قالوا:" ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء، يعنون سلمان وصهيبا وبلالا وخبابا فاطردهم عنك، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك، فهم النبى ﷺ بذلك، ودعا عليا؛ ليكتب ، فأنزل الله الآية"[٤].

وقد رغب الرسول ذلك؛ طمعا فى إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى ألا يفوت أصحابه شيئا، ولا ينقص لهم قدرا، فمال إليه، فأنزل الله الآية، فنهاه عما هم به من الطرد.

وقد روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا من النبى صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء عنك

---

(١) راجع تاريخ الصحابة ، والاستيعاب، والإصابة .
(٢) النساء ٩٥ .
(٣) الأنعام ٥٢ .
(٤) القرطبى جـ٦ صـ٤٣١ .

لا يجترئون علينا ، قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست اسميهما فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فانزل الله عزوجـل " ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ "(١).

يدعون ربهم: يحافظون على الصلاة المكتوبة فى جماعة.

يريدون وجهه: طاعته والإخلاص فيها.

وخص الغداة والعشى؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس.

وقولـــــه:﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾. أى جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله .

ولعلنا نلحظ فى مناسبة نزول هذه الآية أن الصحابة الذين نهى الرسول ﷺ عن إيقاع الطرد بهم، هم : سلمان وصهيب وبلال ، وخباب، والذين يتضح أنهم يمثلون أربعة أجناس مختلفة ، وقد وحد الإسلام بينهم وقرب بـين مشـاعرهم، وجعل حبهم للرسول قويا وعظيما، وكان لكل واحد منهم سجل حافل فى تـاريخ الدعوة الإسلامية.

وقريب من مضمون هذه الآية قـول الله تعـالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾(٢).

ومعنى من أغفلنا قلبه: أى وجدناه غافلا.

واتبع هواه : أى الشرك .

وفرطا: تقصيرا، أو تكبرا، أو قدما فى الشر(١).

---

(١) القرطبى جـ٦ صـ٤٣١ ، ٤٣٢ ـ والآية من سورة الأنعام رقم ٥٢ .
(٢) الكهف ٢٨ .

ويقترب مضمون هذه الآية مع سابقتها إلا فى الأشخاص الذين أمر الرسول بالصبر عليهم، وإن كان الأسلوب هنا أقل شدة وأكثر رقة، تجاوبا مع الموقف، فقد جاء النهى عن الطرد فى الآية السابقة صعبا وشديدا على نفس الرسول، وآية الكهف مكية مثل ما ورد فى سورتى عبس والأنعام، وهكذا تعرض المواقف الثلاثة لقضية واحدة مختلفة المناسبة، أو متحدة فيها، وهى مراعاة حالة الأصحاب الضعاف الذين كانوا يتعلقون بالإسلام ورسوله أشد التعلق، ويؤلمهم وجود بعض الحواجز التى تفصلهم عن دينهم، كما تعرض الآيات لرقى الإسلام وحضارته من حيث ضرورة الحرص على القادم، وحسن استقباله، وعدم التفريط فى الجالس أو التقصير فى حقه ، دون النظر إلى المكانة الاجتماعية، التى لا قيمة كبيرة لها فى ميزان الدين والأخلاق، والحرص على فهم المبادئ الإسلامية، التى احتلت مكانة مرموقة فى أعماق البسطاء والراغبين فى الخلاص مما ألم بهم قبل ظهور الإسلام.

وقد نزلت على الرسول ﷺ بالمدينة آيات أخرى[٢] فى عتاب الله له تعود بمرجعيتها إلى بعض المواقف التى كان المسلمون أطرافا فيها؛ تدليلا على مزج العلاقة الإيمانية بينهم وبين الرسول؛ حتى تتحرك الدعوة فى مساراتها الصحيحة، التى اشتملتها آيات الذكر الحكيم وهدى النبى ﷺ .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٣٩٠ .

(٢) منها فى سورة التوبة آية ١١٣ وآية ١١٤ وهى مدنية، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ ، وقد نزلت الآية فى استغفار النبى لعمه أبىطالب، واستغفار بعض الصحابة لآبائهم المشركين. كما ورد فى القضية نفسها الأية ٦٧ من سورة الأنفال ،وهى مدنية ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ ومعنى ، "يثخن" : أى يبالغ فى قتل الكفار .

ثالثا : قضايا إسلامية

١ـ الحلال والحرام٠

٢ـ الخوف من الله ٠

٣ـ محبة الله ورسوله والناس جميعا٠

٤ـ الإسلام والعلاقات الاجتماعية ٠

٥ـ ثواب السعى فى مصالح الآخرين٠

٦ ـ منهج الإسلام فى التثبت من الأخبار٠

٧ ـ رعاية اليتامى٠

٨ ـ النذر فى الإسلام ٠

٩ ـ من مظاهر التيسير فى الدين الإسلامى٠

١٠ـ قيمة الوقت فى الإسلام ٠

١١ـ الأخوة الإسلامية٠

١٢ـ تنظيم الإسلام لحياة الإنسان٠

١ - الحلال والحرام

كتب الشيخ أبوحامد الغزالى فى إحياء علوم الدين بحثا واسعا عن الحلال والحرام، تناول فيه معظم ما يتعلق بهذا الأمر باستقصاء وتوسع، يتناسب مع علوم الغزالى وسعة معارفه، وعمق ثقافته، مما يجعل هذا الموضوع جديرا بالعناية؛ لانعكاساته على ورع المسلم وتقواه.

والحلال: من الحل وهو ضد المنع والحظر، والشيء الحلال هو الذى أحله الله تعالى لعباده وأباحه لهم، وأذن لهم فى التمتع به، سواء أكان هذا الشيء يتعلق بمأكلهم، أم بمشربهم أم بملبسهم، أم بغير ذلك من شئون حياتهم .

أما الحرام فهو الذى نهى الله عنه نهيا قاطعا، ومرتكبه معاقب فى الدنيا والآخرة[١].

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[٢].

والاستفهام فى الآية يعارض من يحكمون أهواءهم فى بيان الحرام والحلال؛ لأن الحكم فى ذلك مرده إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد ذكر الغزالى أن تفصيل الحلال يكون فى كتب الفقه ، وقال: إن المال إنما يحرم إما لمعنى فى عينه، أو لخلل فى جهة اكتسابه، فالحرام لصفة فى عينه كالخمر والخنزير.

والأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام، فإنها إما أن تكون من المعادن، أو من النبات، أو من الحيوان.

أما المعادن فهى أجزاء الأرض، وجميع ما يخرج منها فلا يحرم أكله، إلا من حيث أنه يضر بالآكل.

---

(١) انظر جريدة الأهرام يوم ١٠/ ٥/ ٢٠٠٠م، من مقال للدكتور/ محمد سيد طنطاوى .
(٢) يونس ٥٩ .

وأما النبات فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل مثل (الخمر والمسكرات) أو يزيل الحياة مثل (السموم) أو يزيل الصحة مثل الأدوية فى غير وقتها.

وأما الحيوانات فتقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل، وجميع التفصيلات الخاصة بذلك فى كتب الأطعمة وفى كتب الصيد والذبائح.

كما ذكر الشيخ عبدالوهاب خلاف فى كتابه: "علم أصول الفقه" ما يأتى: "الشيء المحرم هو ما طلب الشارع الكف عن فعله طلبا حتما ، بأن تكون صيغة طلب الكف نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ أو يكون النهى عن الفعل مقترنا بما يدل على أنه حتم كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أو أن يترتب على الفعل عقوبة كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ .

وقال ... المكروه هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله؛ طلبا غير حتم، بأن تكون الصيغة نفسها دالة على ذلك، لما ورد أن الله كره لكم كذا، أو كان منهيا عنه، واقترن بما يدل على أن النهى للكراهة، لا للتحريم، كقوله سبحانه: ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[١] ".

والرأى أن الحلال والحرام واضحان للخاصة ولمعظم العامة، وقد توسعت فى بيانهما كتب الفقه والتفسير والحديث، وفى توضيح درجات كل منهما، وتبقى الأمور المشتبه فيها محلا للبحث والتحرى والإيضاح، ونعرض لحديث فى هذا الموضوع رواه أبو عبدالله النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول" :" إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب"[٢].

---

(١) جريدة الأهرام ١٠/ ٥/ ٢٠٠١م.
(٢) رواه البخارى ومسلم .

والواضح أن الأصل فى الأشياء أنها مباحة ما لم يرد نص بتحريمهـا، أو بكراهتها، وأما الحرام فهو ما ورد نص بتحريمه، أو ببيان كراهته، فكل الطيبات ما دامت حلالا فى كسبها، ولا تلحق ضررا بالإنسان فهى حلال، وأما الخبائث فهى محرمة على الإطلاق قال تعالى:﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾[١].

فعلى المسلم أن يستفيد بالحلال فعلا وقولا، وأن يجتنب الحرام، لما ورد بحقه من الأمر الواضح فى القرآن والسنة.

وأما المشتبه فيه بين الأمرين (الحل والحرمة) فهو ما تنازعه دليلان، وتعارضت حوله أقوال العلماء؛ لسكوت الشرع عنه، فلم يدخل فى عموم حل أو حرمة، وربما يرجع ذلك إلى حكمة قد يعجز الإنسان عن إدراكها الحقيقى، فضلا عن أن هذه الأمور المشتبه فيها ترجع إلى درجات الورع والإيمان فى الإنسان المتحرى للحلال والحرام.

ونعرض فيما يأتى إلى بعض ما حرمه الشرع خاصة أن الأفكار أو المفاهيم قد انتابها كثير من التغير، وعدم الثبات تحت مرئيات تبتعد بها عن المنهاج الصحيح للإسلام.

١- الإشراك بالله:

كان الإشراك بالله قديما متمثلا فى عبادة الأصنام، التى كانت تبدو فيه بساطة الجاهليين وسذاجتهم ؛ نظرا لطبيعة العصر، وخضوعهم لموروثات قديمة عن السابقين.

لكن الأصنام القديمة قد تحولت فى القرون الأخيرة إلى أصنام مجردة، وهى ما يعبد الآن عند كثير من الناس، حيث يتخذ الإنسان نفسه صنما، إذ يعبد رأيه وهواه ومصلحته؛ فلا يشغل نفسه إلا بها .

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [٢].

---

(١) الأعراف ١٥٧ .
(٢) الجاثية ٢٣ .

والضرر واضح فى حياة هؤلاء الذين يتحولون إلى أذلة تابعين لآرائهم؛ فضلا عن تحريم هذا النوع من عبادة الذات، إذ أن كل ما يعبد من دون الله شرك، نعوذ بالله منه، فالذى يصير عبدا لعصبية العائلة أو القبيلة، فهو يرتكب جرما خطيرا، وإذا استعبدت الإنسان فكرة مجردة، أو نظرية تقبل الصحة والبطلان ، وتحول معها إلى رفض أى فكرة أخرى، فهو غافل عن حقيقة نفسه ومرتكب لهذا اللون الجديد من الإشراك ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾(١).

٢ - النظر إلى ما حرم الله :

قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ ﴾(٢).

إن مجرد إرسال النظر على إطلاقه لا ضرر منه، خاصة إذا كان عارضا ولا يمثل تدقيقا وإمعانا فى المنظور إليه، ولكن الضرر يتجسد فيما يجرى فى القلب والعقل، نتيجة النظر الخبيث.

وليس الأمر ممثلا فى النظرة، وإنما ما فيها من عبودية وتبعية وهبوط من ذروة الإنسانية إلى حالة إنسان لا يعرف لنفسه خلاصا من المواضع التى تستحوذ عليه.

كما أن غض البصر ليس قاصرا عما يتعرى من الجسد، وإنما يمتد ليشمل ما فى أيدى الناس من المال والنعمة، أو النظر إلى المستور الخفى، عندما يحاول الناظر الوصول إلى أغراضه، وقد فصلت كتب الفقه المواضع التى يباح للإنسان فيها النظر للآخر فى الحالات والأوقات المعينة، وذلك مثل النظر عند الخطبة للوجه والكفين من المرأة.

---

(١) النساء الآية ٤٨،والآية ١١٦ .
(٢) النور ٣٠، ٣١ .

٣ - تحريم الزنى:

أورد القرآن الكريم كثيرا من الآيات فى تحريم اللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة بالطريق غير المشروع ، فإذا اجتمعا بقصد الزنى ... فإنهما يحولان العلاقة الجنسية من قوة دفع وإنتاج إلى أداة استهلاك ودمار، حيث يقضيان على طاقة من أشرف الطاقات الحية، التى خلقت لتبنى أمما وحضارات.

كان الزنى موجودا فى الجاهلية، وحرمه الإسلام تحريما قاطعا، وبقى كغيره من المحرمات موجودا، وإن كان فى الخفاء، بدرجات تختلف من بيئة إلى أخرى؛ ومن عصر إلى آخر، وقد كان موجودا فى مصر ومصرحا به فى بعض الأماكن إلى أن صدر القانون الذى منعه منعا باتا.

تبقى توابع هذه الجريمة معلقة فى ضمائر أولى الأمر، إذ لابد من السعى نحو إعفاف الشباب، وتشديد العقوبة الهزيلة التى ينص عليها القانون الوضعى، كما يشارك فى المسئولية العلماء الذين عليهم أن يطالبوا بمراعاة الحشمة والوقار من الفتيات والسيدات، أما التبعات الأخرى فتحملها جهات كثيرة مثل الإعلام، والقنوات الفضائية التى تصور المحرمات، ومنه الجنس، وتذاع فى بعض الوسائل الإعلامية المختلفة.

وقد تحدثت بعض الآيات القرآنية عن جانب مما أحله الله للناس، وجانب حرم عليهم، كما أن الحلال أو الحرام لا يأتى على حسب أهواء البشر، وإنما يخضع للتشريع الإلهى الذى بين كل ذلك ، قال تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [١]، وقال عبدالله ابن عباس رضى الله عنهما: "كل ما شئت، والبس ما شئت، ما دمت بعيدا عن صفتين: عن الإسراف، وعن الخيلاء"، أما الذين يبالغون، ويتشددون فيما أحله

---

(١) الأعراف ٣١ ، ٣٣ .

الله، ويحرمونه على أنفسهم فإن سلوكهم بعيد كل البعد عن يسر الإسلام وسماحته، قال ﷺ : "هلك المتنطعون"(١).

إن من أخطر ما يقع الناس فيه استهانتهم بالحرام، فيتعاطونه، ولا يحرصون على ما أحلّ الله لهم، ويتجهون إلى الله بالدعاء، ولا يستجاب لهم، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : "يؤتى يوم القيامة بأناس معهم من الحسنات كأمثال جبل تهامة، حتى إذا جيئ بهم جعلها الله هباء منثورا، ثم يقذف بهم في النار، فقيل يا رسول الله كيف ذلك؟ قال: كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، غير أنهم كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام أخذوه، فأحبط الله أعمالهم"(٢).

الوصايا العشر:

تحدثت سورة الأنعام عن مجموعة من الوصايا التى تعرض لبعض ما حرم الله سبحانه وتعالى، وجاءت واحدة منها مختلفة عنها، وهى الوصية الثانية، حيث إنها فى قمة أعمال البر والخير، التى حض الشرع عليها، مفرقا بينها وبين غيرها من أحوال المحرمات الأخرى.

قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ (٣).

وقد عرضت الآية الأولى لأكبر المحرمات وأشدها فسادا للفطرة الإنسانية التى لا تقبل العفو والمسامحة، ثم أوصت بالإحسان إلى الوالدين، كما نصت على تحريم قتل الأولاد، بعد ذكر الوالدين مباشرة لشدة الارتباط بينهم، وذكرت الوصية الخامسة جريمة قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالطرق المشروعة،

---

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود .
(٢) رواه الطبرانى .
(٣) الأنعام ١٥١ ، ١٥٢ .

حيث حدد القانون طريقة معالجتها ومقاومتها، وذكرت الآية الثانية من المحرمات أيضا جريمة سلب الأموال، سواء أكان ذلك من مال اليتيم أم من غيره وكـذلك جريمة عدم استيفاء الكيل، والغش فى الميزان، كما عرضت لأهمية الحفاظ على دور الكلمة، وضرورة توظيفها فى الحكم بالعدل، وفـى الالتـزام بالعهـد، وأن الوصايا السابقة داخلة فى دائرة صراط الله المستقيم، الذى يجب اتباعه والحفاظ عليه، وأن الخروج عن ذلك مدعاة للفرقة والانقسام، مما يعد خطرا شديدا علـى حياة الأمة، وعلى علاقات المسلمين بعضهم ببعض، والله الهادى إلى صـراطه المستقيم ٠

٢ ـ الخوف من الله

قدم الأستاذ سيد سابق رحمه الله للمكتبة العربية مجموعة من الكتب والمؤلفات المفيدة منها كتابه (إسلامنا) وجاء من موضوعات الحديث فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١].

وتحدث فى ذلك عن قضية الخوف من الله.

ولا ينبغى لأحد من المسلمين أن يفهم معنى الخوف على أنه إرغام البشر، للإقبال على الله تعالى إذ أن الأمر أكبر من ذلك، فالمحبة والقرب من المولى سبحانه وتعالى هى الفيصل فى الأمر، وهى الأساس فى العلاقة بين العبد وربه، لكن بعض الناس لا يبالون بهذه العلاقة، فينحرفون عن الجادة، ويميلون مع الهوى حسب رغائبهم وأهوائهم، وعند ذلك كان التشريع الإسلامى حاسما جازما فى ضرورة التعامل مع هذا الفريق من الناس، بأسلوب الخوف؛ حرصا على تنمية المشاعر، نحو خشية الله، والإقبال الصادق عليه سبحانه وتعالى، ولذلك فأول ما يستدعى الحديث عنه هو:

١ـ دعوة الإسلام إلى الخوف من الله:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢].

والآية تحدثنا فى وضوح عن أوصاف المؤمنين وسماتهم، وتقصر الإيمان على من تحلى وتخلق بهذه الأوصاف، وأول العلاقات على امتثال المؤمن للخوف من الله وجل القلوب وخشيتها عند ذكر الله سبحانه وتعالى، أو حينما يتلى كتابه ويرتل قرآنه؛ لأن خشوع القلوب، وخوفها من علام الغيوب، هو المتمم

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .
(٢) سورة الأنفال ٢ .

للإيمان والمكمل لليقين، وقد خصت القلوب فى التقديم؛ لأنها محرك الإنسان نحو المشاعر والأحاسيس، وهى جوهر الحياة، وبصـلاحها يسـعد النـاس، وتهـدأ نفوسهم، وبفسادها يشقى الإنسان.

وإذا كانت القلوب عامرة بالخوف والخشية صلحت الأعمال، وانتفع المسلم بثمرات دينه، ونتائج التزامه، وتذكيره بقدرة الله سبحانه وتعالى.

قال تعـالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].

وقد حصرت هذه الآية الكريمة خشية الله وتقواه فى العلماء وحدهم؛ لأنهم بما أوتوا من النظر العميق، والبحث الدقيق، يمكنهم الوقوف على أسرار الإبداع الإلهى، فى هذا الكون ونواحى القدرة الربانية، التى لا تظهر لغيرهم بمقدار مـا تظهر لهم، ولأن المنتظر منهم أن يكونوا دعاة للخير والالتزام والخشية من الله، وعند ذلك تسلم الحياة من التكالب البشع على أمور كثيرة، لا تستقر لإنسان مهما طال أجله، وزاد ماله وكثر نفوذه.

٢- دوافع الخوف من الله:

تحدث الشيخ سيد سابق عن بواعث الخوف من الله فقال: والخوف إما أن يكـون خوفا من معرفة جلال الله، واستشعار عظمته وكبريائه، وهو خوف العارفين.

وكلما كانت المعرفة أتم، كان الإنسان أشد لله خوفا، وأعظـم خشـية ... وقال: وإما أن يكون سببه ما اقترفه الإنسان من آثام، وارتكب من سيئات فهـو يخشى أن يؤاخذه الله بما اكتسبه منها"[2].

ونلحظ فى حياتنا بعض النماذج العامة المطلقة، التى تتواكـب مـع هـذا التعليل، بما يؤكد أن الخوف من الله تتعدد بواعثه ، فإما أن يكون الخـوف مـن

(١) سورة الحديد ١٦ .
(٢) إسلامنا صـ٨٧ .

شخص عارف لله، شديد الحب له، وكلما سار فى سنوات عمره أيقن أنه بحاجة إلى مزيد من الخوف؛ حتى يرقى فى إقباله على الله إلى درجة لـم تكـن فـى حسبانه، ويستشعر هداية الحق تنمو وتثمر فى وجدانه الحى٠

وإما أن يكون الخوف من الله بعد مرحلة من الضلال والعناد وجد المؤمن نفسه بعدها فى حيرة ورغبة فى الوصول إلى طريق الهداية والمعرفة، فيـزداد قربا ، بفضل ربه، ويشتعل خوفا، وإن كان هذا الخـائف يقضـى فـى بعـض الأحوال حياته فى صراع على ما سبق منه، قبل القرب والمعرفة، وقبل الخوف الراقى إلى الحب الإلهى، وبعض هؤلاء لا تستقيم أحـوالهم تمامـا، مـع هـذا الخوف، تأنيبا على ما كان منهم، فيعيشون فى قلق وضيق، وآخرون تزداد ثقتهم فى الله، ويعمق إيمانهم به ويتجلى الخوف فى أمورهم على الإطـلاق، ولـذلك يعيشون فى رضا وقناعة، وإيمان بالحق سبحانه وتعالى،ولا يشغلون أنفسهم إلا بالذات العالية، ونذكر فى هذا موقف السيدة رابعة العدوية ــ غفر الله لها ــ فقد تحولت من النقيض إلى النقيض وحمدت ربها على المعرفة التامة به، والخـوف منه سبحانه وتعالى٠

٣ ـ الخوف من الله، والخوف من الناس:

الخوف من الله ليس ضعفا وانهزاما ...وإنما هو قوة وانتصار، فالخـائف من ربه محب له، وقانع به، وشديد الثقة فيه ، ويرى أن سـلوكه يقـوده إلـى الالتزام والارتقاء، أما الذى يخشى الناس، ويخاف منهم، أو ينافقهم ويتلون معهم، كذبا وافتراء فهو ضعيف، وقابل للتراجع، وأن أمره ــ عما قريب ــ سيبدو سبة فى جبينه، وخرقا لإيمانه، وربما كان سلوكه مراءاة وملقا، ومصانعة مذمومـة؛ سعيا لمركز أو جاه، ولا يمثل هذا الصنف من البشر إلا النماذج السـيئة، التـى تسيىء للإسلام، والإسلام منها براء، وهذا النـوع لا ينبغـى السـكوت علـى ضلالاته، بل يجب مواجهته، بالكلمة الهادئة، والموعظة الحسنة، خاصـة مـن

الدعاة والمصلحين، والراغبين في هداية الناس، والارتقاء بهم إلى طريق الإيمان.

شواهد ودلالات:

يعرض القرآن الكريم لمواقف كثيرة من حياة أنبياء الله ورسله، الذين كانوا أسوة للخلق في خوفهم من الله، فهذا نبى الله يوسف عليه السلام يقص على أبيه رؤيته حسب قول القرآن الكريم على لسانه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(1)، ولكن نبى الله يعقوب ينصح ابنه قائلا حسب النص القرآني: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(2) ويأخذه إخوته للعب معهم، ثم يعودون إلى أبيهم قائلين: "إن الذئب قد أكله" وهم فى الحقيقة كاذبون، حيث مرت مجموعة سائرة بالبئر فالتقطه واحد منهم، وباعوه إلى رجل من مصر، وأوصى امرأته به قيل إنه (قفطير) عزيز مصر، وتتوالى الأحداث فى تدرجها إلى أن راودته التى هو فى بيتها عن نفسه، كما ذكر القرآن فى قول الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(3).

ويتجلى هنا قانون الأرض الذى فرضه البشر، وقانون المولى عزوجل وهو قانون الخوف من الله، حيث عصم الله سبحانه وتعالى سيدنا يوسف، وحافظ عليه من الوقوع فى براثن المعصية، وحبائل الإثم ،حتى نجاه، وعاد إلى أبيه بعد قصة عظيمة فى سورة من كتاب الله الكريم.

---

(١) يوسف ٤ .
(٢) يوسف ٥ .
(٣) يوسف ٢٣ .

ويبقى التاريخ الإسلامى شاهدا على عظمة أبطاله الأوائل، الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى، بحب وإقبال ورغبة وامتثال، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله، وقبلوا التضحية من أجل كمال الدين وسلامة الضمير، فهذا على بن أبى طالب، ابن عم رسول الله، وزوج ابنته فاطمة، الذى كان أول الداخلين فى الإسلام من الصبيان، والذى تجلى مدى حبه لله وخوفه منه، وتجلى كذلك عدم خوفه من الناس مع أخذ الحيطة والحذر، وعدم إغفال الأسباب، وقد وضحت شجاعته فى ليلة الهجرة المباركة، حيث نام على فراش الرسول ﷺ الذى كان متأهبا للخروج (وعلى رضى الله عنه) ثابت فى منزل رسول الله، وشباب قريش أمام الدار، ينتظرون الخارج ليفتكوا به، ولا يبالى(على) بكل ذلك؛ لأن ثقته وخوفه من الله أشد وأعمق من خوفه من الأربعين شابا الواقفين أمام المنزل ٠

فخرج الرسول ونجى الله عليا، والله على كل شيء قدير ٠

إن الذين يخافون من الناس عليهم أن يراجعوا أنفسهم، وأن يتأكدوا أن من يخافون منهم ويخشونهم ليسوا إلا بشرا، لا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وهنا يقرر القرآن مدى وجوب أن يكون الخوف من الله، وليس من الناس، قال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(1) وفى آية أخرى أثنى الله سبحانه وتعالى على الواثقين فى الله، الأقوياء الذين لم يبالوا بتهديد البشر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (2) ، وترجع أسباب نزول هذه الآية إلى أصحاب رسول الله ﷺ ،قيل لهم إن المشركين قد اجتمعوا لحربكم ؛ للقضاء عليكم فلم يزدهم هذا التهديد إلا إيمانا وقوة وثباتا، وقالوا : حسبنا الله وهو كافينا، ونعم الوكيل فى الدفاع عنا"(3)٠

---

(١) الأحزاب ٣٧ ٠
(٢) آل عمران ١٧٣ ٠
(٣) انظر كتاب (إسلامنا) للسيد سابق صـ٩١ ٠

ونختتم هذه الكلمة بحديث قدسى عن المولى عزوجل، قال النبى ﷺ مرويا: "قال الله عزوجل، وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين، ولا أجمع له أمنين .. فإن أمننى في الدنيا، أخفته يوم القيامة، وإن خافنى فى الدنيا أمّنته يوم القيامة"[١]٠

من هنا كان الحرص على الخوف من الله دعوة مباشرة وصريحة فى حتمية التحول الإنسانى، إلى الحركة والفعل، باستحضار العقل والقلب، إقبالا على الله سبحانه وتعالى، وتمسكا بسيرة محمد ﷺ ٠

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ،والبيهقى فى الشعب، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه ابن المبارك فى الزهد ، وابن أبى الدنيا فى "كتاب الخائفين" ،وصححه الألبانى٠

٣ ـ محبة الله ورسوله، والناس جميعا

إن أعلى درجات الحب هو حب الله الذى ينشأ بتحريك العقول والأرواح إلى النظر فى ملكوت الله، وإلى تدبر آيات القرآن الكريم؛ حتى لا يغفل الإنسان عن ربه، ويبقى على اتصال دائم به، حريصا على طاعته، وملتزما بأوامره ونواهيه .

ويتجلى حب الله لعباده فى إنعامه عليهم بالرزق الطيب، والتوجيه الصحيح، والهداية إلى الصراط المستقيم.

وأول الحب هو حب الله تعالى، وأول الكره هو الكره من أجل الله، فإذا صدرت من إنسان معصية بطريق القصد، فلا ينبغى أن نرضخ له، أو أن نحسن إليه، بل يجب علينا أن نعيد حساباتنا معه، بعد اليأس منه، والفشل فى محاولة إصلاحه، فعند ذلك يكون بغضنا له، تقربا إلى الله وظاهرا بالقول أو بالفعل، وإظهاره بالقول يكون تارة بكف اللسان عن محادثته، وتارة بتغليظ الأسلوب معه، وإظهاره بالفعل يكون بمنع السعى فى إحسانه، وضرورة مقاطعته وإفساد مآربه؛ ليكون ذلك جزءا من النهى عن المنكر، بشرط القدرة على ذلك؛ حتى يشعر العاصى لله بعد هذه المحاولات أنه ميئوس منه، وغير مرغوب فيه، ومعاقب عما يفعل، إلى أن يرجع إلى جادة الصواب، ومحبة الله تعالى، ورسوله، والناس جميعا.

وإذا كانت المخالفة من الإنسان صغيرة، وتجرى مجرى الهفوة التى يعلم الله أنه نادم عليها، فالأفضل سترها؛ رغبة فى الإصلاح والهداية من غير كراهية وحقد، أما إذا كانت معصية الله قد وقعت على إنسان، فمن الأولى والأفضل التسامح والعفو؛ لأن الإنسان مخطئ بطبعه، ومن الأولى أن تتاح له الفرصة؛ حتى لا يتمادى فى الجحود والضلال.

ومن مظاهر محبة الله تعالى: محبة القرآن الكريم، ومحبة الشريعة الغراء، ومناصرة دين الله، والدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة.

فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر، كما يكره أن يقذف فى النار"[١].

وتكون محبة الله تعالى بالإيمان الصادق به والإقبال عليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٢].

ومما هتفت به رابعة العدوية:

تَعْصَى الإلهَ وأنتَ تُظهر حبَّه ∴ هذا لَعَمْرى فى القياس شنيعُ
لو كان حبُّك صادقا لأطعتَه ∴ إن المحب لمن يُحب مُطيعُ

وكانت نموذجا للمرأة الصالحة العابدة الخاشعة فى عصرها، وكانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة، وإذا سئلت عن ذلك قالت: "لا أريد ثوابا بقدر ما أريد إسعاد رسول الله ﷺ ؛ حتى يقول لإخوته من الأنبياء "انظرو: هذه امرأة من أمتى، هذا عملها".

وكانت رائدة فى الحب الإلهى، وتجلى ذلك فى مناجاتها لله، وإقبالها عليه وشدة حبها له.

وها نحن نجد المسلم التقى الورع مشغولا بثلاثة أنواع من الحب تتجمع ولا تتفرق، وتتحد ولا تختلف، وتتعانق ولا تتباعد، تخرج من منبع واحد، وتتوزع فى أشكال مختلفة، ثم تتلاقى لتصب فى محيط واسع: إنها حب الله وحب رسول الله وحب الناس، فإذا جعل المسلم من صميم إيمانه حب الآخرين من الخلق تلاقى البشر فى حب متكامل، يحب كل واحد منهما الآخر.

ونحن مطالبون بحب الله والإخلاص له، ومقاطعة كل ما يحول من الوصول إلى درجات أعلى من الكمال والتمام فى هذا الحب، كأن يتخذ الناس

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) البقرة ١٦٥ .

شركاء لله فيبتعدون عن حب الله ومناجاته والإخلاص له ، قال تعـالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾(١).

أو أن يبالغ الناس فى حب الدنيا والانشغال بها، إلى الوضع الذى يصرفهم عن محبة الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾(٢).

ولابد من الحرص على التوازن بين حب الدنيا وحب الآخرة، فإذا طغى حب الأولى على الثانية انعكس ذلك على سلوكيات الإنسان وحركة معيشته فى الحياة، ذلك ما عرضت له الآية الكريمة التى تقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾(٣) .

ولكن المحبة لمتع الدنيا ولذاتها لا تتنافى مع حب الله ما دام تناول الإنسان لها باعتدال، وبصورة لا تؤثر سلبا فى حبه لربه، بل ينبغى أن يكون حب المؤمن لها دافعا لشكر المولى سبحانه وتعالى ومحبته، وهذا الحب واقع مشهود، وطبيعة كائنة جبل الإنسان عليها، وإن اختلف مقدارها بين شخص وآخر، بصورة لا تتجاوز حدود الاعتدال والتوسط، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(٤).

والمراد من الأنعام : الإبل والبقر والغنم، ومن الحرث: الزرع، وكلها من المباحات غير المنهى عنها ويسعى كثير من الناس لتملكها وزيادة ثروته منها.

وينبغى أن يكون حب الإنسان لهذه الأشياء انطلاقا من حبه لله، وشكره له، فقد قال رسول الله ﷺ : "من أحب وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان"(٥).

---

(١) البقرة ١٦٥ .
(٢) الإنسان ٢٧ .
(٣) إبراهيم ٣ .
(٤) آل عمران ١٤ .
(٥) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن من حديث معاذ بن أنس رضى الله عنه ، ورواه أبو داود ،وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود .

وعلى المسلم التقى الورع أن يحب رسول الله، وأن يخلص فى هذا الحب، اقتداء به وبالصحابة الأجلاء، الذين تعلقوا بالرسول أكثر من تعلقهم بأهليهم وذرياتهم ٠

روى أنه لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة ــ وكانوا قد أسروه ــ ليقتلوه، قال له أبوسفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن مكانك تضرب عنقه، وأنت فى أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة، وإنى لجالس فى أهلى، فقال أبوسفيان: "ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا"٠

إن الإخلاص فى حب الله يتبعه حب رسول الله فى ضوء ما أشارت إليه الآية الكريمة التى قال الله فيها: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]٠

كما أن الله يلقى محبته على من يحبه، ذلك أن الآية التالية تجسد محبة الله وتبرزها، وتصورها فى صورة حسية ملموسة تتهادى على المحبوب، قال تعالى لسيدنا يوسف فى النص القرآنى الحكيم:﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[٢]٠

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٣] ٠

وقد جاء فى الذكر الحكيم قول الله تعالى فى آيات متفرقات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٤]،و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٥]و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٦] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٧] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٨]و﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٩] وغيرها٠

---

(١) آل عمران ٣١ ٠
(٢) طه ٣٩ ٠
(٣) الصف ٤ ٠
(٤) البقرة ١٩٥ ٠
(٥) المائدة ٤٢ ، والحجرات ٩ ، والممتحنة ٨ ٠
(٦) التوبة ٤ ، ٧ ٠
(٧) آل عمران ١٥٩ ٠
(٨) البقرة ٢٢٢ ٠
(٩) آل عمران ١٤٦ ٠

ونأتى إلى نوع آخر من الحب يتوجه فيه الإنسان لمحبة الآخرين، وهم المؤمنون المتقون، المخلصون الصادقون، الذين يراهم مؤهلين للحب، وجديرين به ويحسنون تقديره، ويردون عليه بكل حب سام وشريف، وهم الأولياء الذين قال الله فى حقهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(١) علما بأن هذه الآية الكريمة محل فهم خاطئ عند كثير من الناس، الذين يرتبطون بمذهب دينى معين، أو طريقة صوفية ذات شعارات بارزة، علما بأن التصوف الحق يكون فى الإقبال الصحيح على الله ، وحسن الفهم للقرآن الكريم والحديث الشريف (النبوى والقدسى)٠

أما التوسع والمبالغة فى فهم الآية إلى الحد الذى يتجاوز مدلولها الشرعى، إلى ممارسات خاطئة، وتصرفات باطلة، فليس ذلك من الحب الصحيح الذى نتوجه به إلى الله ورسوله والمؤمنين٠

وقال تعالى:﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾(٢) ، والأخلاء: الأحباء، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ : ذلك أنه لما كانت خلتهم فى الله فإنها تبقى أبد الآبدين٠

فما أعظم أن يكون حب الإنسان للآخرين صادقا نقيا، وطاهرا عفيفا، ومبرءا من الهوى؛ لأن الإنسان محكوم فى ظل علاقاته مع الناس باعتبارات كثيرة يأتى فى أولها الإخلاص فى مراعاة الله. قال رسول الله ﷺ : "إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى"(٣).

وروى أن الرسول ﷺ قال : "سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق فأخفى صدقته، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال

---

(١) يونس ٦٢ ٠

(٢) الزخرف ٦٧ ٠

(٣) رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ٠

فقال إنى أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"[١] وكان الرسول يـــدعو بهذا الدعاء: "اللهم ارزقنى حبك ،وحب من يحبك، وحـــب مـــن يقربنـــى إلـــى حبك"[٢].

ومن الأفضل أن الإنسان عندما يحب شخصا أن يعلمه بهذا الحب؛ حتـــى تقترب النفوس ، وتتصافى القلوب، وتزول الكراهية، وتزداد المحبة، فعن أنـــس ابن مالك ﷺ أن رجلا كان عند النبى ﷺ فمر رجل به، فقال يا رسول الله إنـــى لأحب هذا، فقال له النبى ﷺ أأعلمته؟ فقال: لا ، فقال: اعلمه، فلحقه وقال: إنـــى أحبك فى الله ، فقال: أحبك الله الذى أحببتنى له[٣]"، فهؤلاء المتقون المتحابون فى الله يحرسهم الله ويدافع عنهم، وتحوطهم عنايته، ففى حديث قدسى رواه الرسول ﷺ عن المولى عزوجل قال: "من عادى لى وليا فقد آذنته بـــالحرب، ولا يـــزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يســـمع بـــه، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشـــى بهـــا، ولإن استنصرنى لأنصرنه، ولإن سألنى لأعطينه، ولإن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن، يكره المـــوت، وأنـــا أكره مساءته، ولابد له منه"[٤].

وعلينا إذا أحببنا إنسانا أن نجعل حبنا له نابعا مـــن حبنـــا لله، ولابـــد أن نستحضر الله فى علاقاتنا بالآخرين دائما. وقد روى عن أنس بن مالك ﷺ أنـــه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن لله تعالى عبادا يوضع لهم يوم القيامـــة المنـــابر يقعدون عليها، هم قوم لباسهم نور، ووجوههم نور، ليسوا بأنبيـــاء ولا شـــهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، فقالوا: من هم يا رسول الله ؟ قال: "المتحابون فى الله، والمتزاورون فى الله، والمتجالسون فى الله"[٥].

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ٠
(٢) رواه الترمذى من حديث ابن أبى الدرداء بلفظ : اللهم إنى أسألك حبك ،وقال حديث حسن وضعفه الألبانى٠
(٣) رواه أبو داود باسناد صحيح ٠
(٤) رواه أحمد بلفظ مختلف ٠
(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط ٠

فهؤلاء المتحابون فى الله يحرصون على العلاقــات الطيبــة، والمشــاعر الصادقة، والأخلاق النبيلة التى تجمع بينهم، وتؤلف بين قلوبهم، حتى لو تجلــى ذلك فى كلمة طيبة أو تهنئة رقيقة حانية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قــال: "والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتــى تحــابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم"(١).

ومن صميم حب الآخرين محبة الزوجة والأولاد، والأهل والعشــيرة مــا دامت هذه المحبة صادقة ومخلصة، وغير متعارضة مع محبة الله ورسوله، كما ينبغى أن يعلم المؤمن أن الأهل والمال وزينة الحياة كلها فتن واختبارات، فيجب الحرص والتروى، ومقاومة النفس ، وعدم الإسراف فــى الشــهوات، حتــى لا ينساق المرؤ فى حب هذه (الأعراض) بصورة تصرفه عن محبة الله ورسوله .

قال تعالى:﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾(٢).

وينبغى أن يكون المسلم صاحب إرادة ومقدرة على الصبر والتقوى فــلا ينهزم أمام كل ابتلاء يختبر به، ولا يضعف فى المواقف الصــعبة، أو يستســلم لليأس مما ألم به، إذ أن المؤمن يقوى بإيمانه وعزيمته وصــبره فــى الشــدائد والابتلاءات.

ولنتذكر قصة زليخة امرأة العزيز فى حبها لسيدنا يوسف حيــث تحــول الحب إلى درجة من التدنى لا تليق بمقام العاشقين.

أما حكاية رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى فقد استطاعت أن ترحل من عالم الشهوة الفارغة والإقبال النهم على الدنيا، إلى مقام حــب الــذات العاليــة، وإغلاق صحائف الماضى بكل ما فيها من سوء وضلال.

(١) رواه مسلم .
(٢) التغابن ١٥ .

وكان سعيد النورسى صاحب كتاب (كليات رسائل النور) من المصــطفين الأخيار، حيث قدم أنموذجا للمؤمن المخلص فى عبادته، المحب لربه، وكان من أصحاب الدعوة إلى نشر حب الله ورسوله، وتنمية الشعور الإيمانى فى الــنفس البشرية، حتى تقبل على الآخرة بمثل إقبالها على الدنيا، إن لم تكن أكثر وأكثر، رغبة فى الخير والسلام.

وتبقى رسالة الإسلام خالدة سامية راقية متحضرة، فى حاجــة إلــى مــن يحسن فهمها والتعامل معها؛ لأنها دعوة للحب والمودة والخير والتسامح، والعفو والصدق فى الأقوال والأفعال.

٤ ـ الإسلام والعلاقات الاجتماعية

دعا الإسلام الناس إلى حسن التعامل، والمحبة الصادقة، والحياة الكريمة، والعيش فى هدوء وسلام، وحثهم على فعل الخير والصدق فى القــول، والأمــر بالمعروف، ونهاهم عن إيذاء بعضهم لبعض، وحذرهم من كل ما يخالف الشريعة الإسلامية فى مجال العلاقات الاجتماعية، إذ لا يتصور من الإنســان أن يحيــا وحيدا منعزلا، كما لا تستقيم حياته إذا أسرف فى الاختلاط بالآخرين، والانبساط إليهم.

ولقد وضع الإسلام العديد من الأصول والضوابط التى تحدد المنهاج السليم لعلاقة المرء بغيره، وذكر القرآن الكريم كثيرا من الآيات التى أظهرت حقــوق الإنسان، كالعزة والكرامة والحرية، والعيش فى أمان مع نفسه، ومع الآخــرين، ولكن بعض الناس لا يفكرون إلا فى أنفسهم، وفى حقوقهم، ويغفلون أو يتجاهلون عن واجباتهم؛ لأنها من حقوق الآخــرين، ولا يتورعــون عــن إلحــاق الأذى والضرر بغيرهم؛ طمعا فى مال أو سعيا لكسب حرام، أو تحقيقا لشهرة زائفة، أو رغبة جامحة فى التسلط على الأهل والأقارب والضعفاء الــذين لا يســتطيعون الدفاع عن حقوقهم، خاصة إذا كان المتسلط الطاغى من ذوى الجاه والجبروت، فيعمل على طمس الحقيقة، وتزييف الواقع، ومن المؤسف أن يمتد هذا الإيذاء إلى أقاربه وجيرانــه، قــال تعــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

ويتحقق هذا البهتان الكبير فى إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالقول أو النقل عنهم ما لم يفعلوه، للعيب فيهم والإساءة إليهم، فعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : "أتدرون ما الغيبة"؟ قالوا: "الله ورسوله أعلم"، قال: "ذكرك أخاك بما يكره"

---

(١) الأحزاب ٥٨ .

قيل: "أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول" قال: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتـــه، وإن لم يكن فيه فقد بهته"[(١)].

وكتب الأستاذ سيد قطب عن هذه الآية، فقال: "وهذا التشديد يشى بأنه كان فى المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات، بنشر قالة السوء عنهم، وتدبير المؤامرات لهم، وإشاعة التهم ضدهم. وهو عام فى كل زمان وفى كل مكان. والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد فى كل بيئة من الأشرار المنحرفين، والمنافقين والذين فى قلوبهم مرض، والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان وهو أصدق القائلين"[(٢)].

ويقع هذا الإيذاء باللسان الذى يستخدم فى السب والشتم والقذف، والتحدث عن الناس بما ليس فيهم كذبا وبهتانا، كما يتحقق باليد التى تسرق أو تخـــتلس أو تضرب أو تبطش أو تكتب أو تشهد زورا، أو توقع على ظلم واختلاس وتدليس وخيانة. ويقع الإيذاء بالعين التى تتعقب النـــاس وتتجســـس علـــيهم، وتســـتبيح محارمهم إلى غير ذلك.

فلابد أن يحترم الإنسان أخاه وقريبه وجاره وصديقه، وزميله فى العمل أو التعلم، وأن يمتنع عن سبه وقتاله وإلحاق الضرر به؛ حتى يعيش المسلم حياتـــه فى هدوء ومودة وتكافل اجتماعى محمود، قال رسول الله ﷺ : "ســـباب المســـلم فسوق وقتاله كفر"[(٣)] .

ولقد ذكر القرآن الكريم من صور الإيذاء الهمز واللمز، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ [(٤)] والويل هو الخزى والعذاب والهلكة ،

(١) رواه مسلم فى كتاب البر جـــ١٦ ص ١٤٢ .
(٢) فى ظلال القرآن جـــ٥ ص٢٨٨٠ .
(٣) متفق عليه .
(٤) الهمزة ١ ــ ٥ .

والهمزة اللمزة كما قال ابن عباس: "هم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب" وعلى ذلك فهما بمعنى واحد، وقال جماعة: "الهمزة الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل، واللمزة الذى يغتابه من خلفه إذا غـــاب" وقـــال آخرون: "الهمزة الطعان فى الناس، واللمزة الطعان فى أنســـابهم" قـــال ســـفيان الثورى فى معناهما: "يهمز بلسانه، ويلمز بعينيه" وقيل غير ذلك[١].

وتتحدث الآيات عن صورة واقعية فى المراحل الأولى من عمر الـــدعوة الإسلامية، ولكنها لازالت قائمة واقعة تتكرر فى كثير من المجتمعـــات، وبـــين العديد من الناس، وقال الشيخ سيد قطب عن هذه الآيات إنها تكشف : "صـــورة اللئيم، الصغير النفس، الذى يؤتى المال، فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة ... وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب! كما يروح يحسب أن هذا المال إلـــه قـــادر على كل شىء، لا يعجز عن فعل شىء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة، ودفـــع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك فى نظره حساب وجزاء!

ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال يعده ، ويستلذ تعداده، وتنطلـــق فـــى كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستعانة بأقدار الناس وكراماتهم. ولمزهم وهمزهم ... يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته. سواء بحكاية حركاتهم وأصـــواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم بالقول والإشارة. بـــالغمز واللمـــز. باللفتـــة الســـاخرة والحركة الهازئة"[٢].

فهذه الصورة للمتعالى الساخر تقابلها صورة المهمل المنبوذ الذى يلقى فى الحطم وهى النار، التى تحطم كل ما يلقى فيها .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٢٠ ص١٨١، ١٨٢ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ٦ صـ٣٩٧٢ .

ومن صور الإيذاء أيضا التنابز بالألقاب، والسخرية من الناس التى تكثر صورها، وتتعدد ألوانها ، وتختلف الدوافع إليها، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١].

فالذى يسخر من الناس، ويهمز بالفعل، ويلمز بالقول، ويسيئ إلى غيره ويتنابز بالألقاب يتحول إلى فاسق كبير ما لم يتب إلى الله تعالى؛ لأن الفسوق يشبه الارتداد عن الإيمان، وإذا كان الناس يتفاخرون ببعض المعايير، ويسخرون من الآخرين ــ على أساسها ــ فهم خاطئون؛ لأن القيم الحقيقية التى يوزن بها الخلق عند الله قد تكون خافية عليهم، ولأن ميزان الله يختلف عن ميزان البشر. وقد نبهت الآية إلى أهمية الرجوع والكف عن إيذاء المؤمنين، والتوبة عما وقع عليهم من ظلم وعدوان. وإن أشد ألوان الضرر والإيذاء ذلك الذى يقع على الأم والأب والأبناء والزوجة والأهل والأقارب، وقد أوصى الإسلام بكل هؤلاء، فأوصى بالأم، وجعل الجنة تحت قدميها، وأوصى بالأب وأوجب له العطف والرعاية خاصة عند عجزه وضعفه، وعدم قدرته على الكسب، وأوصى بالزوجة وبالنساء خيرا لضعفهن، وحض على تقوى الله، ورعاية أولى الأرحام، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[٢].

ودعا الإسلام المؤمن إلى احترام جاره وعدم إيذائه، فقال رسول الله ﷺ : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"[٣].

وقال أيضا: "لا زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[٤] وفى سنن أبى داود من رواية أبىهريرة ﷺ قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: "اذهب فاصبر" فأتاه مرتين أو ثلاثا، ثم قال: "اذهب فاطرح

(١) الحجرات ١١ .
(٢) النساء ١ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) رواه البخارى ومسلم .

متاعك على طريق؟" ففعل، فجعل الناس يمرون به، ويسألون عن حاله فيخبرهم خبره فجعلوا يلعنون جاره، ويقولون: فعل الله به وفعل، ويدعون عليه، فجاء إليه جاره، وقال: يا أخى: ارجع إلى منزلك فإنك لن ترى ما تكره أبدا(١)".

فالحرص على حسن العلاقة الاجتماعية مع الآخرين يشمل، مساعدة المحتاجين، وتوقير الناس جميعا، والحفاظ على حقوقهم.

ولابد لكل مسلم من سلام داخلى يعيشه مع نفسه، من خلال معرفته لربه سبحانه وتعالى، ومن سلام خارجى يعيشه مع أهله وأقاربه وسائر الناس.

ولقد قال عمر بن عبدالعزيز: "أدركنا السلف، وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة، ولكن فى الكف عن أعراض الناس"(٢).

وإذا كان درء المفاسد مقدما على جلب المصالح أو المنافع، فإننا ندعو كل مسلم أن يحاسب نفسه، وأن يمنع أذاه وضرره عن أخيه المسلم، حتى يزداد الحب، وينتشر الوفاء، ويعم الإخلاص بين الناس، وأن يحيا المسلمون فى سلام ووئام، خاصة فى أيام المحن والكوارث، وللرسول ﷺ حديث يذكر فيه تجربة الأشعريين عند الأزمات الاجتماعية والنوازل القبلية، ويعبر عن الشق الثانى من القاعدة الأصولية السابقة، قال: "إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية، فهم منى، وأنا منهم" (٣).

فهذه الصورة الإيجابية المفيدة تعبر عما يجب أن يكون عليه المسلمون؛ لتحقيق المصالح وجلب المنافع، وهذه قضية أخرى تندرج تحت واجبات الأخوة الإسلامية، وهى كثيرة والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم.
(٢) إسلامنا لسيد سابق ص٢٥٨ .
(٣) رواه البخارى ومسلم.

٥ ـ ثواب السعى فى مصالح الآخرين

يعجز بعض الناس عن الوصول إلى حقوقهم، ولا يتمكنون من قضاء الكثير من مصالحهم، بسبب ضعفهم، أو عدم معرفتهم بالأساليب الصحيحة؛ لتحقيق ما يسعون إليه ويرغبون فيه.

ولما كان الارتقاء المعرفى بهذه النماذج الإنسانية ليس من الميسور على المدى القريب، فإن الأمر يصير منوطا بمن يعرف ، ويملك الأداة أو الوسيلة فى الوصول إلى حقه، وحقوق من يهمهم أمره؛ لأن الإنسان بصورة عامة – ينبغى أن يكون عضوا مؤثرا فى المجتمع تأثيرا نافعا، ولا يقتصر فى تحمله للمسئولية على مصلحته الخاصة، وإنما لابد أن يشمل نفسه، وغيره، فلا يتوانى عن مساعدة الآخرين، حتى لو كان ذلك فى صورة نصيحة مخلصة، أو كلمة طيبة، أو معونة نافعة، لوصول الحق إلى صاحبه، فضلا عن بعض المتطلبات التى تفرضها الأخوة الإسلامية الصادقة. وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما، عن الرسول ﷺ أنه قال : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه (لا يهينه) ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"[١].

فالمسلمون أمة واحدة، وهم مثل الأعضاء فى الجسد الواحد، ولابد أن يتكاملوا ويتعاونوا فيما بينهم من غير أنانية ممقوتة، وبعيدا على كل تصرف أحمق، وهم جماعة من البشر ، وأعضاء فى الأخوة الإنسانية الشاملة، فالمسئولية التى تناط بالمسلم ليست سهلة هينة، وإنما هى صعبة عسيرة، إذ عليه أن يتجاوز الحدود الضيقة لنفسه، وبيئته إلى مستوى أرحب فى خدمة البشرية المقهورة، فإذا قدم واجبا، أو حقق مصلحة، أو أسدى نصيحة للآخرين، بعيدة عن الشبهات فلا

---

(١) متفق عليه .

يهيئ نفسه على انتظار عوض، أو مقابل ممن يعجز عن قضاء مصلحة نفسه، أو لا يتبع المساعدة بنوع من المن والأذى ، فيجرح بتصرفه مشاعر من تلقوا منه عونه ونشاطه ، ويمحق ثواب ما فعل وقدم وأنفق ٠

أما إذا كان ما ينهض به فى نطاق عمل مشروع محدد، فله أن يأخذ ما يقره العرف الصحيح أو القانون ٠

ولقد سئل الرسول ﷺ : "أى الناس أحب إلى الله ...؟ فأجاب عليه السلام: أحب الناس إلى الله أنفعهم إلى الناس"[١]٠

إن المعروف الذى يسديه المسلم للآخرين لن يذهب سدى، فالله سبحانه وتعالى سوف يكافئه عليه، وأبواب الخير كثيرة، مثل زيارة المريض، وتقديم المساعدة للمحتاج ، والشهادة الصادقة بين الناس، وحضور جلسات التصالح بين المتنازعين، والإسهام فى إعادة الحق إلى صاحبه ، ومقابلة الناس بوجه منبسط ، وصدر منشرح، وكلام طيب ٠

فهذه الأمور البسيطة تؤدى إلى نتائج كبيرة، قال ﷺ : "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق"[٢]٠

وعندما تقضى الحاجات والمصالح على أيدى أصحاب الجاه والسلطان، فإنهم يقدمون زكاة نفوذهم ومكانتهم، فيجعلهم الله أهلا لما هم فيه، بشرط أن تكون تصرفاتهم خالصة لله، فلا يطلبون مقابلا ماديا، أو معنويا غير مشروع. أو يبتغون بسلوكهم وصولا إلى تحقيق مآرب خاصة بهم، وهى فى الحقيقة ليست حقا لهم٠

وينبغى ألا يكون التدخل والسعى مع صاحب الحاجة على حساب الآخرين، فتضيع بذلك الحقوق، وتعم البلوى، قال ﷺ: "من أعان ظالما بباطل؛ ليدحض به حقا، فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله"[٣]٠

---

(١) رواه مسلم (من رياض الصالحين)٠
(٢) رواه مسلم ٠
(٣) رواه الطبرانى والأصبهانى٠

وعلى أولياء الأمر، وأصحاب الجاه الذين يريدون زكاة جـــاههم بشـــفافية وإخلاص ألا يقعوا فى الإثم بالاحتجاب عن الناس، والانفصال عنهم، خاصة إذا كان طالبو الحاجات من أولى الضعف والاستكانة، الذين لا حول لهم ولا قـــوة، قال رسول الله ﷺ : "من ولى من أمر الناس شيئا، فاحتجب عن أولى الضـــعف والحاجة، احتجب الله عنه يوم القيامة"[١] ولهذا لابد من الاختلاط بالناس، وعـــدم الاحتجاب عنهم، وضرورة مشاركتهم فى أفراحهم وأحزانهم بالقدر المناسب الذى يحقق الفائدة، ويمنع الضرر .

فعن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : كان النبى ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه، فقال: "اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب"[٢].

ومن زكاة الجاه محاولة الإنسان الصلح بين النـــاس فـــى نطـــاق الأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٣] وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤] وقال تعـــالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [٥] فتساءل رسول الله مستوضحا ما هذا يا جبريل؟ فقال: "إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطى من حرمك"[٦].

والإصلاح بين الناس مهمة صعبة، ومسئولية شاقة، لا ينهض بها إلا كل مخلص لدينه، بشرط أن يكون هذا الصلح نابعا من الشريعة الســـمحة، وعلـــى أساس من العدالة المطلقة، وليس صلحا يحلل الحرام، أو يحرم الحلال، فتضـــيع الحقوق، وينتشر الظلم، وتعم البلوى، ويصير السعى لقضاء المصـــالح مشـــوبا بالاضطراب والفوضى، وليس زكاة خالصة لمركزه ومكانته فى المجتمع .

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد والطبرانى وغيره وقال الهيثمى فى المجمع ٥/٢١٠ رجال أحمـــد ثقات .

(٢) فى رواية "ما شاء" بدلا من (ما أحب) متفق عليه (من رياض الصالحين).

(٣) الحجرات ١٠ .

(٤) النساء ١١٤ .

(٥) الأعراف ١٩٩ .

(٦) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ،وقد ذكره ابن كثير فى تفسيره للآيـــة ١٩٩مـــن ســـورة الاعراف.

٦ ـ منهج الإسلام في التثبت من الأخبار

لقد تعددت المواقف وكثرت العظات فـي أعقـاب مـا حققـه الرسـول والمسلمون فى الانتصار على بنى المصطلق عند موضع الماء الخـاص بهـم، الذى يسمى "المريسيع" ، فتمخضت الغزوة عن الثورة الغادرة، والحقد الدفين من المنافقين بقيادة عبدالله بن أبى بن سلول، على الرسول وأصحابه المهاجرين.

ومن الأحداث التى أعقبت هذه الغزوة زواج الرسول ﷺ من جويرية بنت الحارث، ثم ما حدث لأم المؤمنين عائشة بنت أبىبكر الصديق زوجة رسول الله فى حديث الإفك، الذى روج له بعض المنافقين بالمدينة، إلى أن برأ الله سـاحتها بالقرآن الكريم، الذى نزل على رسول الله ﷺ فى سورة النور.

ومن المواقف التى أعقبت النصر على بنى المصطلق نبأ الفاسق الذى ورد ذكره فى سورة الحجرات.

ولقد أرسل النبى ﷺ إلى أهل بنى المصطلق الوليد بن عقبة بن أبىمعيط؛ ليجمع الصدقات من أغنيائهم ، ويردها على فقرائهم، وما إن رأوه حتى أقبلـوا نحوه ـ وكانت بينه وبينهم إحن قديمة وغل موروث ـ فهابهم، وخاف مـنهم، وعاد إلى الرسول فأخبره بأنهم منعوا الصدقات ، وأنهم قد ارتدوا عن الإسـلام، فبعث إليهم خالد بن الوليد، الذى انطلق نحوهم ليلا، وبعث فيهم بعض عيونـه، الذين يستطلعون أخبارهم؛ حتى عرفوا كل ما لديهم، وتأكدوا من أنهـم لازالـوا مؤمنين متمسكين بإسلامهم.

وفى الصباح التقى بهم خالد بن الوليد ، وتأكد من صحة ما نقـل إليـه، فانطلق إلى الرسول ﷺ ، وأخبره بما كان منهم، فنزل قول الله تعـالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾[١] .

وتذكر بعض الروايات أن الوليد بن عقبة عندما رجع إلى الرسول، وأخبره بأن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا الزكاة شرع الرسول ﷺ فى إعداد العدة لغزوهم وقتالهم، وعند ذلك وفد إليه وفد منهم وقالوا له : "يا رسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدى إليه ما قبلنا من الصدقة، فاستمر راجعا، ثم بلغنا أنه زعم إليك أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية" ... إلى قول الله تعالى﴿ نَٰدِمِينَ ﴾ وذلك فى سورة الحجرات.[٢]

وقد قال الرسول ﷺ : "التثبت من الإيمان والعجلة من الشيطان"[٣].

وعلى كل فالرجل قد كذب على رسول الله، واستحق أن يسجل القرآن عليه فسقه وكذبه؛ ليكون عبرة وعظة لكل من تسول له نفسه خيانة الرسول والمسلمين، وقد صلح حال هذا الرجل فولاه عثمان بن عفان الكوفة، ثم عاد إلى فسقه وفجوره ومكره، فشرب الخمر ذات مرة، ثم صلى بالمؤمنين الصبح أربع ركعات، فشهد عليه الناس بشرب الخمر، فأقيم عليه الحد، وعزل عن ولاية الكوفة[٤] .

وقد سمى القرآن الكريم هذا الرجل فاسقا أى كاذبا، والفاسق: هو الذى لا يستحى من الله، والفسوق العصيان، والترك لأمر الله ، كما فسق إبليس عن أمر ربه ، أى جار ومال عن طاعته[٥].

---

(١) الحجرات ٦، ٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ١٦ صـ٣١١ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى فى بيان هذه الآية بسورة الحجرات.
(٤) راجع أسد الغابة جـ٥ صـ٤٥١ .
(٥) انظر لسان العرب مادة : فَسَق يفسِق ويفسُق فِسْقاً وفُسوقا أى فجر.

وقيل الفسوق هو الخروج عن الدين، والميل للمعصية ومجانبة الحياء.

وتدعو الآية الكريمة إلى الثقة بين أفراد الجماعة المسلمة؛ حتى لا يعم الشك والظن والريبة كل ما ينقله المسلمون من أنباء؛ تأكيدا على ضرورة التثبت من أخبار الفاسقين، وكان من الممكن أن تتحول كلمة هذا الرجل [الوليد بن عقبة ابن أبى معيط] إلى نار مشتعلة تلتهم بنىالمصطلق جميعا، ولكن الرسول ﷺ لم يتسرع، وانتظر حتى يتثبت من كلام هذا الفاسق؛ ليضرب النبى صلى الله عليه وسلم مثلا لأصحابه وأتباعه، ولكل من جاء بعده إلى قيام الساعة فى عدم التسرع أو الانسياق إلى أمور خطيرة ، نتيجة لأخبار كاذبة، وعارية من الصحة.

وقال ابن كثير فى شأن هذه الآية: "يأمر الله تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق؛ لئلا يحكم بقوله ، فيكون فى نفس الأمر كاذبا أو مخطئا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عزوجل عن اتباع سبيل المفسدين"[١].

ومعنى قوله : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾: أى بين أظهركم رسول الله فعظموه وتأدبوا معه، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[٢].

ومعنى قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾: إشارة إلى استقرار الإيمان فى القلوب، أما الإسلام فيكون علانية فى الأفعال الظاهرة.

فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "الإسلام علانية، والإيمان فى القلب[٣] قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ويقول: التقوى ههنا، التقوى ههنا".[٤]

---

(١) ابن كثير جـ٤ صـ٢٠٨ .
(٢) الأحزاب ٦ .
(٣) من (مجموع الفتاوى) لابن تيمية .
(٤) التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، جزء من حديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

وفى الحديث المرفوع:"من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن"[١]
وبالنظر إلى الآيتين المذكورتين من سورة الحجرات نهتدى بهما إلى منهج صحيح نحو الأخبار، التى نسمعها، إذ لابد أن نتثبت منها، ونستوثق من صحتها٠

والأصل أن نأخذ خبر الصادقين بالصدق والثقة؛ لأن ذلك هو القاعدة، ونأخذ أيضا خبر الفاسقين بالشك والظن، وضرورة التثبت منه، كما ذكر القرآن الكريم ٠

---

(١) رواه : احمد ورواه الترمذى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما بلفظ (من سرته حسنته ، وساءته سيئته فذلك المؤمن٠

٧ ـ رعاية اليتامى

إن رعاية اليتامى واجب شرعى، والتزام إنسانى، وسلوك حضارى، ومسئولية مشتركة، وهم يمثلون شريحة اجتماعية تستحق التذكير والمتابعة؛ للتنبيه إلى حقوقهم المالية والإنسانية.

واليتيم: الذى فقد أباه قبل أن يصل إلى مرحلة البلوغ، واليتم: الانفراد وأصل معناه: الغفلة؛ لأن الناس يغفلون عنه، أو معناه الإبطاء؛ لأن البر والمعروف يبطئ إليه .

وحمل الإسلام مسئولية رعاية الأطفال على الوالدين، ونبه إلى حقوقهم فى التسمية والتنشئة والتعليم وحسن القدوة، فقال الرسول ﷺ : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالوالد راع، فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى مال زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1].

ويمثل الأطفال أهمية مادية ومعنوية بالغة للوالدين، وهم إحدى فتن الدنيا التى يمتحن الإنسان بها، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وقال الشاعر:

إنما أولادُنا بيننَا ∴ أكبادُنا تمشى على الأرض
لو هبّت الريحُ على بعضهم ∴ لامتنعتْ عينى عن الغَمْضِ

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وأبوداود والترمذى.
(٢) الأنفال ٢٨ .

ومن مظاهر عناية الإسلام بالأطفال، تقرير حق الطفل فـــى الحضـــانة، وحسن الرعاية والتربية، فلا يعرض للأخطار، وينبغى تعويــده علـــى تحمـــل المسئولية، ومراعاة الاعتدال فى الإنفاق عليه، قال الشاعر:

وينشـــأُ ناشـــئُ الفتيـــانِ منـــا .·. علـــى مـــا كـــان عَـــوّده أبـــوه

١ ـ الانتقال إلى اليتم :

عندما تكشر الحياة عن أنيابها للطفل فى المراحل المبكرة من حياته بموت والده، فتختفى البسمة الحانية والكلمة الناعمة، وينتشر جو الحزن والكآبة، وتظهر علامات اليتم على ملامح الصغير، ويأسى الناس وبعض الأقارب للحالـــة، ولا يستطيعون ــ فى بعض الأحوال ــ فعل شىء ، وفى أحيان يكون الأمر مختلفا؛ لأن مواكب الحياة لا تسير على نمط واحد، ولا تخضع لمقيـــاس ثابـــت، ففـــى حالات يكون وضع الطفل الذى مات والده أفضل كثيرا من طفل لم يمت والـــده، ولكنه ــ أى هذا الطفل ــ صار يتيما يتما اعتباريا لانصراف الأب، وغفلة الأم، أو انفصالها بالطلاق ــ أو الهجر ــ فيبقى الصغير فى مهب الريح، يلقى الهوان من زوجة أب ،أو زوج أم، أو غيرهما، ففى كثير من هذه الأحوال يلحق بالطفل من الألم والمعاناة ما يفوق الذى يلحق بكثير من الأيتام.

فالانتقال إلى اليتم مرحلة جديدة ومهينة فى عمر الصغير يصعب التعويض فيها عن موت الأب، أو الأم،أو موتهما معا،فينعدم الراعى الأساسى للصغير.

ولا شك فى أن القانون يلزم الأم أو ولى أمر الطفل بعد وفاة الوالد إثبـــات ميراث الصغير وتسجيله، والحفاظ عليه، وعدم التصرف فيه، إلا بعد الرجـــوع إلى الجهات الحكومية المختصة ،حيث يعين شخص يكون وصيا على الطفل، وله ذمة مالية خاصة به، وغير متداخلة مع حق القاصر اليتيم، فإذا بلغ الطفل ســـن الرشد رفعت الوصاية عنه، وصارت له الأهلية فى التصرف، بعد التأكـــد مـــن

صلاحيته لذلك وفى حدود قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾[1]٠

٢ ـ حالة الأيتام قديما:

كان الطفل ــ قبل الإسلام ــ خاضعا لأمه، أو لولى أمره٠ بعد وفاة الأب، وغالبا ما كان الطمع يملأ النفوس ، ويعميها عن حقوق الصغار، خاصة فى المجتمع الذى يخضع النفوذ فيه لسلطة الأقوياء وفكر الخبثاء ، وجاء الإسلام فنبه إلى ضرورة المحافظة على أموال اليتامى، وعدم أكلها بالباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[2]٠

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ ﴾[3]٠

وهذا فيما يتصل بالحقوق المالية، ولكن ذلك ليس كافيا، فأوجب الإسلام الرفق بالأيتام وحسن معاملتهم، والإحسان إليهم، فقال تعالى مخاطبا الرسول ﷺ : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[4]٠

وقال الرسول ﷺ فى مرويات البخارى ومسلم وغيرهما: "أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين" (وأشار بالسبابة والوسطى) تأكيدا على حسن الثواب الذى يناله كافل اليتيم،وملازمته للرسول ﷺ فى الجنة،فأنعم بها من صحبة وملازمة ٠

٣ـ وضع الأيتام فى العصر الحديث:

لقد اعتمدت القوانين الوضعية على الشريعة الإسلامية، وجرى العمل بها لحفظ حقوق الأيتام، وتحديد مسئولية الوصى بشأن أموال الطفل وميراثه، وحقوقه فى التعلم والرعاية والتوجيه والاستمتاع بالحياة٠

---

(١) النساء/ ٦ ٠
(٢) النساء/ ١٠ ٠
(٣) الأنعام ١٥٢ ، والإسراء ٣٤ ٠
(٤) الضحى ٩ ٠

وقد انتشرت دور الأيتام والملاجئ التى ترعى الصغار، الذين لا عائل لهم، أو ليس لدى أولياء أمورهم ما ينفقون منه عليهم، وأسهمت الجمعيات الخيرية فى رعاية الأيتام وكفالتهم، والإنفاق عليهم والإشراف على تربيتهم.

ويجب ـ دائما ـ تنبيه الأم إلى رسالتها الإنسانية، وتحذيرها من خطورة التقصير فى المتابعة والوصاية على الطفل، وحفظ ممتلكاته،وصيانتها من أطماع الأقارب الذين يقومون ـ أحيانا ـ ببعض الحيل للاستيلاء على أموال اليتامى.

ولابد من اليقظة والمتابعة ـ بشكل أو بآخر ـ لأحوال بعض الأطفال الذين ماتت أمهاتهم، ولا يبالى الوالد بالحق الشرعى لابنه فى مال أمه، فلا يحفظه له، ويتكتم عليه، ويستفيد به، ويضمه إلى أمواله، أو يقدمه لزوجته الجديدة التى تكون ـ أحيانا ـ فاقدة الشعور بالرحمة والعطف نحو هذا الطفل، الذى ماتت أمه، فغاب ضمير أبيه.

وتحفل الحياة بالكثير من النماذج الإنسانية الرائعة التى تقوم فيها الأم من أحزانها، وتنهض بدور الأب مستكملة المسيرة، ولا تعرض أبناءها الأيتام للضياع فتأخذ بأيديهم، حتى تصل بهم إلى مرفأ الأمان، كما يمتلأ المجتمع بحالات كثيرة قام فيها الآباء برسالتهم خير قيام، ونهضوا بمعظم ما تقوم به النساء تجاه الأطفال، الذين حرموا من عطف الأم، وصاروا فى حكم الأيتام.

إن كفالة الطفل اليتيم عمل دينى وإنسانى مشروع،ينبغى أن يكون خالصا لوجه الله، ولا يخضع حب الطفل فيه لظروف الشخص وأحواله التى لا تثبت مع الزمن، ومثل ذلك من يتبنى طفلا يتيما، لكن بشرط ألا ينسبه إلى نفسه؛ لأن إلحاق الطفل بالنسبة إلى غير أبويه محرم شرعا؛ لما يترتب عليه من أخطار كثيرة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾[1].

---

(١) الأحزاب ٥ .

إن رعاية الأيتام مسئولية مشتركة ينهض بهـا ولـى الأمـر بالقـانون الوضعى، الذى لا يتعارض مع التشريع الإسلامى، وتنهض بها الأم والأقـارب وسائر الرحماء، الذين تكتمل بهم منظومة الحب الصادق، لكل طفل يتيم، مـات أبوه، وافتقد أمه، أو غابوا معا فى متاهة النسيان.

٨ ـ النذر فى الإسلام

النذر: عبادة قديمة يتقرب بها الإنسان بمحض إرادتـه إلـى الله سـبحانه وتعالى، وغالبا ما يكون النذر متعلقا بشرط محدد ، مثل شفاء مريض، أو نجاح ابن ، أو إنجاب ذَكَر، وما شابه ذلك مما يتوق الناس إليه، وقد ذكـر الله تعـالى النذر حكاية عن امرأة عمران (أم مريم) عندما نذرت ما تحمله فى بطنهـا لله، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [١] وكانت كبيرة لا تلد، ومن أهل بيت من الله بمكان، وكانت تحت شجرة، فبصرت طائرا، ودعت ربها إن ولدت ذكرا أن تجعل ولدها لعبـادة الله، محررا أى عتيقا، خالصا لله تعالى، كما حكاه الله عن مريم نفسها، فقال: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [٢].

وكان العرب فى الجاهلية يتقربون إلى آلهتهم بالنذر؛ لطلب شفاعتهم، قال تعـالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٣] .

وجاء الإسلام فتعامل مع النذر بمعيار ثابت ، ينطبق عليه ما انطبق على كثير من الأمور، التى كانت موجودة فى الجاهلية، وعلى ذلك إذا كان فى عبادة وطاعة فهو مباح، وإن كان فى إثم ومعصية فهو حرام.

قال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [٤].

---

(١) آل عمران ٣٥ .
(٢) مريم ٢٦ .
(٣) الأنعام ١٣٦ .
(٤) الإنسان ٧ .

وقال فى الحديث عـن فريضـة الحـج : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[1] ومعنى قوله : "ليقضوا تفثهم" أى ليزيلوا أوساخهم وشعثهم، كطول الظفر، وسائر ما يلحق بالإنسان أثناء الإحرام.

وجمع القرآن الكريم بين النذر والنفقة فى سبيل الله، فقـال تعـالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[2].

أما فى الحديث النبوى فتروى السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول ﷺ قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه"[3].

والطاعات معروفة مشهورة يقوم الناس بها ويؤجرون عليها، أما المعاصى فمن المؤسف أن بعض الناس يقعون فيها عن علم أو جهل، مثل النـذر للقبـور والأموات، فمن توفى فهو مخلوق انتهى أجله، لا يملك لأمره شيئا، فضلا عـن إساءة الظن بالله تعالى، وذلك بالاعتقاد فى غيره، ومثل النذر على أهل المعاصى وشرب الخمر، وإيذاء الأهل وترك الصلاة، وفعل أى شىء آخر من المنكرات.

أما نذر العبادة بمكان محدد فلا يصح إلا إذا كان للموضع مزية على غيره مثل المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها .

أما النذر للأولياء والصالحين وأئمة المشايخ فإذا كان الهدف هو الإنفـاق على الشخص لفقره فجائز، أما إذا كان المقصود هو التبرك به والاعتماد عليـه، وأخذ المدد والعون منه، وطلب قضاء الأمر بسببه فإن ذلك لا يصح، فضلا عن كونه معصية يجب إنكارها والتصدى لها، والنهى عنها، وتحذير الناس منها.

---

(١) الحج ٢٩ .
(٢) البقرة ٢٧٠ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

ولا يتحقق بالنذر المباح شيء سوى أنه قربة إلى الله غير لازمة، وقد يساء فهم المقصود منه، وهنا يجب التنبيه والتذكير بخطورة ما يتجه إليه بعض الناس من فهم وتوجيه للنذر على غير ما شرع له ، فروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : "أخذ رسول الله ينهانا عن النذر ويقول: إنه لا يرد شيئا، وإنما يستخرج به من الشحيح"(١) وفى رواية أخرى لمسلم أيضا عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : "النذر لا يقدم شيئا ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من مال البخيل".

والثابت أنه يجب الوفاء بالنذر سواء أكان مشروطا أم غير مشروط، ما دام الهدف هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، لكن الخطورة تتمثل فى التوسع فيه، وتحميل مشروعيته أكثر مما تحتمل من المعانى، وصرف الأمر عن الوجهة الصحيحة المنوطة به .

ولابد من التأكيد على أنه لا يرد مقدرا، ولا يمنع قضاء، وأن التقصير فيه يقتضى كفارة مثل اليمين تماما، ففى صحيح مسلم: "كفارة النذر كفارة يمين" ومن الإثم أن ينذر الإنسان نذرا ثم لا يفى به، فعن عمران بن حصين عن النبى ﷺ قال: "خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم — قال عمران: لا أدرى ذكر ثنتين أو ثلاثا بعد قرنه، ثم يجئ قوم ينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويظهر فيهم السمن"(٢).

ومن الثابت أن النذر إذا كان فى معصية، أو علق عليها، وارتبط بها فإنه لا ينعقد، ولا يجب الالتزام به، بينما يجب الوفاء بالشيء المحدد المباح الذى نذره الإنسان ، وفرضه على نفسه، وإذا مات وجب النفاذ على ورثته عملا بقول الرسول ﷺ الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخارى .

إلى النبى ﷺ فقالت : يارسول الله إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتـت فقالت أفأحج عنها ؟ قال : نعم ، حجى عنها ، أرأيتِ لو كان عليها دين أكنـتِ قاضيَته، اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء "[1]٠

ولا ينبغى التحلل من الواجب سواء أكان مفروضا لطاعة، أو واجبا لنذر فرضه الإنسان على نفسه، ولذلك إذا مات وجب على الورثة تنفيذه ما دام غير مقـرون بمكروه أو معصية، والله أعلم٠

---

(١) رواه البخارى والنسائى (التاج الجامع للأصول حـ ٢ ص ١١١) (كتاب الحج)٠

٩ ـ من مظاهر التيسير فى الدين الإسلامى

إن الإسلام دين اليسر والسماحة، والوسطية والاعتدال، دين يرفض التعسير والتعقيد والإفراط والتفريط، والذين يميلون إلى التشدد فى أحكام العقيدة والفقه خاطئون؛ لأنهم يسيئون إلى الدين، ويصرفون الناس عن العبادة، ويشارك فى الخطأ نفسه أولئك الذين يتساهلون فى الأحكام الثابتة فى الكتاب والسنة، بالدرجة التى تضعف فيها علاقة المؤمنين بدينهم، ولا يخفى أن بين التيسير فى التكاليف والتفريط فيها بونا شاسعا، وكان الرسول ﷺ يدعو إلى التخفيف، فى العبادة ويحض على الرحمة انطلاقا من هدى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

فالإسلام دين ودنيا، شريعة وعمل، منهج وتطبيق، وهو دستور إلهى يجمع بين التيسير فى التكاليف، والوضوح فى العقيدة، والبعد عن الغلو والتشدد، وهذه السمات والخصائص التى يتميز بها تجعله صالحا لكل العصور والمجتمعات. والعقيدة الإسلامية لا تحتاج إلى فلسفة لشرحها وبيان حقيقتها وجوهرها، إذ أنها تتلخص فى كلمتين أو فى جملتين محددتين، وهما الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا رسول الله، فوحدانية الله: تقتضى المنع المطلق لعبادة النفس والمادة والشهوة وغيرها. وتوحيد الله: أى التسليم بحكمه والرضا بقضائه، والخضوع لأوامره، والإيمان بكتبه ورسله ، قال تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٢).

---

(١) التوبة ١٢٨ .

(٢) البقرة ٢٨٥ .

وتتميز العقيدة الإسلامية بالوضوح، وقيامها على الاقتناع، وحرية البحث والاعتقاد،قال تعالى:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[١]، وإن الطريق ميسر بين العبد وربه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾[٢] ٠

وجاء أعرابى من أهل البادية إلى رسول الله وسأله: قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك: قال: "قل آمنت بالله ثم استقم"[٣]٠

واليسر: السهولة والرفق، والسماحة واللين، وهو فضيلة إسلامية، ومنهج يتطابق، أو يتقارب من التوسط والاعتدال، بلا إفراط (تشدد) أو تفريط (تضييع وإهمال)٠

فالمؤمن السمح يؤثر السهولة واللين، على الشدة والعنف٠

ويكون التيسير فى الأمور غير المحددة، والمتروكة للاجتهاد والعرف، وفى أمور الدنيا التى تتصل بالمعاملات المختلفة، ويتجلى أيضا فى تفصيلات العبادة التى تشملها أركان الإسلام، فالتشدد والتعسير وفهم الأدلة فهما ضيقا، والالتزام بما لا يجب الالتزام به يؤدى أحيانا إلى نتائج سيئة، وتصرفات غير ملائمة، لسماحة الدين الإسلامى٠

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والروحة، وشىء من الدلجة"[٤]٠

---

(١) البقرة ٢٥٦ ٠
(٢) البقرة ١٨٦ ٠
(٣) رواه مسلم وابن حنبل٠
(٤) رواه البخارى ، والدلجة : السير من أول الليل٠

ومعنى يسر: أى لا عسر فيه ولا مشقة، والمشادة: المقاومة والمغالبة، والمقصود من قوله "فسددوا وقاربوا" : الزموا التسديد أى الاعتدال والتوسط، والمراد من السير فى الأوقات الثلاثة المذكورة (أول النهار ـ آخر النهار ـ الليل) هو الحث على طلب الرزق، والتقرب إلى الله تعالى ٠

ويكون التيسير فى الدين فى الفروع والأجزاء وبعض الهيئات والأشكال، مما لم يرد فيه نص صريح، أو يكون فى الأخذ والفهم، لما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: "ما خير النبى ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه فى شىء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله"(١)٠

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ (٢)، فالعسر فى الآيتين واحد، واليسر فيهما اثنان وقد جاء فى تفسير القرطبى قول (ثعلب) : "إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا، ثم كرروه فهو هو. وإذا نكروه، ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر"(٣)، وجاء فى الحديث عن النبى ﷺ فى هذه السورة أنه قال : "لن يغلب عسر يسرين"(٤) ، وفى الآية خصوصية لرسول الله ﷺ ، وعمومية لسائر المسلمين. وإذا كان العسر هو التشدد فى الدنيا، فيكون معه اليسر الأول فى الدنيا بزوال البلاء وتحقق الرجاء، ثم يأتى اليسر الثانى فى الآخرة بالثواب وحسن الجزاء، وإذا غلب العسر اليسر فى الدنيا فإنه لن يغلبه فى الآخرة٠

---

(١) رواه البخارى ٠
(٢) الشرح ٥ ـ ٦ ٠
(٣) تفسير القرطبى جـ٢٠ ص١٠٧ ٠
(٤) رواه البخارى ٠

وليس التيسير مقصورا علـى فهـم الإسـلام مـن ناحيـة العقيـدة، أو لبعض الجوانب من السنة النبوية، ولكنه مـنهج مقـرر فـى سـائر العبـادات والمعاملات والحدود وغيرها من الأبواب المعروفة لدى الفقهاء٠

ولنأت إلى الصلاة ، وهى الركن الذى جعله الرسول ﷺ فى مرتبة تاليـة للشهادتين، حسبما جاء فى عدد من الأحاديث النبوية ومنها حديث جبريل الـذى رواه عمر بن الخطاب، وأجاب الرسول فيه عن الإسلام، فقال: "..أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصـلاة ،وتـؤتى الزكـاة، وتصـوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ... "(١)٠

ولقد أوجب الإسلام على المؤمنين المحافظة على الصلاة، وتأديتها موزعة فى كل الأوقات؛ ليستمر اتصال المسلم بربه فى الليل والنهـار، فقـال تعـالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (٢)، ثم يسرت الشريعة فى أدائها والاستعداد لها؛ تيسيرا كبيرا، فليس من شروطها الواجبـة أن تـؤدى بالمسجد ــ فقط ــ ، وأباح الشرع الإسلامى للمسافر أن يستفيد مـن رخصـتى القصر والجمع، كما خفف عن المريض بالإباحـة فـى أداء الصـلاة، قعـودا واستلقاء، وعلى جنب، وبالإشارة والإيحاء ، وخاطب الرسول ﷺ الأئمة الـذين يصلون بالناس، ويرغبون فى زيادة القرب من الله، فيطيلون فى صلواتهم، فقال لهم: "إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير، فإذا صلى لنفسه، فليطول ما شاء"(٣)٠

ونأتى إلى الزكاة ، وهى ركن أساسى فى الإسلام حيث تقـوى أواصـر المحبة بين الناس، وتجمع القلوب على المودة والإخلاص، فأوجبـت الشـريعة

---

(١) رواه مسلم ٠
(٢) البقرة ٢٣٨ ٠
(٣) متفق عليه ٠

إخراجها لمستحقيها فى الأوقات المحددة، وبالشروط والمقادير المبينة؛ وراعـى الإسلام حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء.

ومن دلائل التيسير والتخفيف فى هذه الفريضة، أداؤها مرة واحـدة فـى العام، بشرط أن تبلغ النصاب المحدد، وبنسب تتراوح بين العشر ونصف العشر فى الحبوب والزروع والثمار، أما فى الأموال فربع العشر، فى ضوء التفصيلات المتسعة فى كتب الفقه، وبالكيفية التى تحقق الأهداف السامية والمقاصد النبيلـة، قال رسول الله ﷺ : "ما تلف مال فى بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة"(١) .

وأما الصيام فقد أوجبه الله مرة واحدة فى العام، وجعله أياما معـدودة، وليس صوما متصلا، وأباح الفطر للمسافرين والمرضى، وللنساء فـى حـالات كثيرة نصت عليها الأحاديث الصحيحة، ونبهت كتـب الفقـه إلـى شـروطها وتفصيلاتها، وقد قال تعالى فى عقب أيات الصـوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(٢).

وحبب الرسول ﷺ فى تعجيل الفطر، وتأخير السحور، مراعـاة لشـهوة الصائمين إلى الطعام والشراب، ومعاونة فى تقليل مـدة الصـوم عنـد تـأخير السحور.

وتتجلى مظاهر التيسير فى فريضة الحج بصورة جلية واضحة، فقد فرضه الله على المسلمين مرة واحدة فى العمر، كما أنه لا يجب إلا على المستطيع. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾(٣).

وروى أبو هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال: "إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا" فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثـا،

(١) رواه الطبرانى .
(٢) البقرة ١٨٥ .
(٣) آل عمران ٩٧ .

فقال رسول الله ﷺ : "لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم"، ثم قال: "ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه"(١).

أما حياة الرسول ﷺ فى إطارها العام فيحددها الحديث الآتى: "روى أنس ابن مالك أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال أخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى"(٢).

فالذى يقاطع الناس، أو يتفرغ للعبادة تفرغا كاملا، أو يرفض الزواج، أو يفعل مثلما كانت تفعله الجماعات الثلاث المذكورة فى الحديث السابق لا يعبر إلا عن مسلكه المتشدد، الذى لا يتفق بأية حال مع يسر الإسلام وسماحته.

إن بعض الناس يتشددون على أنفسهم ، وعلى ذويهم فى أمور كثيرة، ويفهمون بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فهما ضيقا محدودا ، ويحكمون على دعاة التيسير بالتقصير والتقاعس، وما عليهم إلا أن يعودوا إلى فهم القرآن الكريم، والسنة النبوية فهما صحيحا.

ونحمد الله على رقى الخطاب الإسلامى وتحضره، وميله إلى الفهم الدقيق والصحيح لهذا الدين، من غير إفراط أو تفريط، والله تعالى أعلى وأعلم .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخارى ومسلم .

١٠ ـ قيمة الوقت فى الإسلام

١ ـ قيمة الوقت:

يسرف كثير من الناس فى إهدار الوقت، وإضاعة العمر فيما لا طائل من ورائه، وإذا سألت أحدا عما يفعله فى العديد من ساعات يومه وليله، أجاب بأنه يقتل الوقت، فالهدف الذى ينشده هو إضاعة الوقت، وكأن حياة الإنسان صارت حِمّلا ثقيلا يتخلص منه الشخص بالجلوس الطويل فى المقاهى، أو أمام (التلفاز) أو بالسير الكثير فى الشوارع بلا هدف، أو بالنوم المتواصل كسلا وتراخيا وخمولا٠

ومن المستحيل أن تعود عجلة الزمن إلى الوراء، فكل ما يفقده الإنسان يمكن إعادته والتحكم فيه ما خلا الزمن، الذى لا يتعظ به إلا القليل من الناس الذين يرون أن العمر قصير، وأن الحياة محددة، فينبغى الحرص عليها والاستفادة منها؛ لصالح الدنيا والآخرة، قال الشاعر:

والمرءُ يفرحُ بالأيام يقطعها ∴ وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

ومن الأقوال الحكيمة فى ذلك: "الوقت من ذهب"٠

والزمن أو العمر هبة من الله، يجب الحفاظ عليها، وعدم التفريط فيها، أو إضاعتها فيما لا طائل منه؛ لأنها لا تعوض، ولا يمكن للإنسان أن يستردها، أو يسعى لشرائها، وكم من أناس تعلقوا بالدنيا، وانشغلوا بها، ولم يتحقق لهم إلا القليل مما كانوا يحلمون به، ويأملون فيه، ولا يفهم من ذلك إغفال حق الشخص فى الراحة، فإن الترويح عن النفس مطلوب ما دام فى حدود التوسط والاعتدال؛ حفاظا على قدر من التوازن بين الروح والجسد، لكن ترك النفس على هواها وعدم كبح جماحها يعرض الإنسان لعواقب، وخيمة ونتائج سيئة٠

٢ ـ حديث القرآن عن الزمن:

لقد تحدث القرآن الكريم عن الزمن فى حالات متعددة، وصور مختلفة ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١].

وأقسم الله تعالى بالليل والفجر، والضحى والعصر، ويوم القيامة، تأكيدا على أهمية الزمن وضرورة الحرص عليه ، والعمل ليوم القيامة، حيث يقوم الناس للحساب. كما يذكر القرآن الأيام والليالى والمشارق والمغارب، ومنازل القمر، واقتراب الساعة، وعدد شهور السنة، ورحلة الشتاء والصيف، ومواقيت العبادات كالصلاة والصوم وغيرها، ولعل الهدف من هذا الشمول والتنوع هو العبرة والعظة والاستفادة من الحاضر، والاستعداد للمستقبل، كما أن التأكيد على ارتباط العبادة بالوقت يأتى تنمية لإحساس المؤمن بالزمن، وتأكيدا للحرص عليه، وعدم إضاعته.

قال تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[٢] .

ونبه القرآن الكريم إلى قيام الليل، للعبادة وحسن العمل، فقال الله تعالى للرسول ﷺ ، ولأفراد الأمة جميعا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾[٣] .

وقال تعالى فى شأن ارتباط الصلاة بالوقت: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[٤].

---

(١) النمل ٨٦ .
(٢) الفرقان ٦٢ .
(٣) المزمل ١ ــ ٤ .
(٤) النساء ١٠٣ .

وذكر القرآن وقت إخراج الزكاة، ودفع الصدقات، فقال تعالى : ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١)٠

وقال في صيام شهر رمضان : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ (٢) وقال في شأن الحج:﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾(٣)٠

وهكذا يرتبط الزمن بما يشغل به الإنسان من أعمال للدنيا والآخرة، تأكيدا على ضرورة احترام المسلم لوقته، وحفاظه على مواعيده، واحترامه لأوقات الآخرين ٠

٣ ـ وجوب استثمار الوقت في النافع المفيد:

دعا الإسلام المؤمن إلى الاستفادة من الحياة، وذلك بعدم إضاعة الوقت فيما لا طائل من ورائه ، وحذر من المبالغة في الأمل بالدنيا؛ فيجور المرؤ على نفسه، ويعيش في عناء ومشقة، ويقصر في عبادة ربه وحقوق أهله، فعن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل" وكان ابن عمر يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك"(٤)٠

لقد أضاع كثير من القدماء نعمة الوقت فلم يعطوه نصيبا من التأمل والتفكير، إلا إذا ألمت بهم نائبة، فإنهم يذكرون الله كثيرا، ويسألونه رفع الكرب عنهم إلى أن تنجلي الغمة، فيكون الانصراف إلى الغي والضلال٠

(١) الأنعام ١٤١ ٠
(٢) البقرة ١٨٣، ١٨٤ ٠
(٣) البقرة ١٩٧ ٠
(٤) رواه البخاري ٠

إننا نشهد الحياة قد لبست أثوابا جديدة ، ولم يعد يصلح لها ما كان يمارسه ويقع فيه بعض الناس من تواكل وإضاعة للزمن، ونرى حركة الحياة فى الغرب وأقصى الشرق، حيث يحافظ الكثيرون منهم على أوقاتهم، ومواعيد أعمالهم، ويحرصون على استثمار كل دقيقة فى النافع المفيد، فإذا حل وقت الراحة فإنهم لا يتأخرون عنه، ويحافظون عليه أيضا؛ لتستمر حركة الحياة، فإذا انتهى الإنسان مما كلف به، وأدى ما وجب عليه، وصار لديه وقت لا يجد ما يشغله فيه، وجب عليه أن يحسبه نعمة من الله، وأن يحسن التصرف فيه، بما لا يتعارض مع الشرع، وبما يحقق النفع لنفسه وللآخرين ٠

قال رسول الله ﷺ : "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"[١] ومعنى الغبن: الخسران والهوان٠

وقال عمرو بن العاص: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"٠

وقال الحسن البصرى: "ما من يوم ينشق فجره، إلا نادى مناد من قبل الحق: يا بن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود منى بعمل صالح، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة"٠[٢]

ولا يثمر الندم شيئا عندما يدرك الإنسان أن سنوات عمره تمضى دون أن يستثمر وقته فى أعمال نافعة مفيدة، فيفاجأ بما حل به، ولا يجد إلا الحسرة والندامة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣] ٠

واختار الرسول ﷺ خمسة أحوال من واقع الحياة سريعة التحول إلى أضدادها، ونبه إلى وجوب اغتنام هذه الأمور التى لا تستقيم مع الإنسان طوال

(١) رواه البخارى ٠
(٢) من كتاب خلق المسلم لمحمد الغزالى ص ٢٣١ ٠
(٣) لقمان ٣٤ ٠

عمره ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"[١].

إن اتجاه المسلم والتزامه فى عبادة ربه واستثمار وقته، لا يعنى كراهة الحياة والرغبة فى الانسحاب من الزمن ، وتمنى الموت، ولكن يحسن الإقبال على الدنيا والتعايش معها، والاستعداد للآخرة، والاقتداء برسول الله ﷺ ، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان ـ ولابد ـ فاعلا، فليقل: اللهم احينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى"[٢].

وكان عبدالله بن مسعود يقول: "ما ندمت على شيء ندمى على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلى، ولم يزد فيه عملى".

ومن الخطأ أن يسرف الإنسان فى إجهاد نفسه ، وحرمان جسده من الراحة؛ لأن ذلك يصل به إلى إنهاك قواه، فيتوقف تماما عن القيام بدوره فى الحياة، وقد قيل: "إن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى" وهو من أمثال الرسول ﷺ ، والمنبت: المنقطع عن أصحابه فى السفر، والظهر: الدابة[٣].

٤ـ إضاعة الوقت خطر على الإنسان:

لا شك فى أن إضاعة الوقت عيب وفساد وسوء سلوك يلحق من يسرفون فى لهوهم وتكاسلهم وخمولهم، ولنرجع إلى ما قاله القرآن الكريم فى شأن الدنيا، ونظرة الناس إليها، وتعاملهم معها، قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

(١) رواه الحاكم .
(٢) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى .
(٣) مجمع الأمثال للميدانى جـ١ صـ١٠ .

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[١].

أى أن التعامل مع الحياة بالصورة التى حددتها مقدمة الآية يسفر عن فساد وضلال كبير؛ لأن النبات الذى يعلو بالغيث ـ بلا عناية ومتابعة ـ والذى تشبه الدنيا به يتحول إلى حطام غير ذى قيمة، فالذين يسرفون فى الجلوس أمام (التلفاز) وفى المقاهى والأندية، ويبالغون فى تعقب أخبار الذين يعملون فى السينما والمسرح، أو الذين يمارسون رياضة الأبدان لا يجنون من ذلك شيئا كثيرا، ومثلهم من يقضى بياض نهاره أو سواد ليلة فى لعب الأوراق والزهر والألغاز، ولا يعبر هذا السلوك إلا عن الغفلة والضياع، وكان جمال الدين القاسمى (عالم دمشقى) يقف أمام المقاهى المكتظة بالناس، فتمتلئ نفسه بالأسى والحسرة، ويقول: "كم كنت أتمنى لو أن الوقت يباع؛ لأشترى من هؤلاء جميعا أوقاتهم".

وينبغى للمسلم فى تفاعله مع الزمن أن يتعظ بالماضى، ويستفيد من الحاضر، ويزداد أمله فى المستقبل، من غير أن يسيئ الفهم لما رواه عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ ، قال: "خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ..."[٢].

ويشير الحديث إلى دبيب الفساد مع ابتعاد الناس عن عهد النبوة، ويؤكد تناقض المشاعر القوية التى بعثها وجود النبى ﷺ بين قومه، ونزول الوحى عليه، وأن قيمة الزمن مع أهله تتناقص مع التنائى عن عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن ذلك لا يجعلنا نتخاذل أو نتهاوى أمام تحديات العصر وطموحات المستقبل، وصراع الحضارات على جميع المستويات.

---

(١) الحديد ٢٠ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .

١١ـ الأخوة الإسلامية

إن الأخوة الإسلامية الصادقة هدف نبيل، ومظهر عظيم، واتجاه حميد نحو التكامل الاجتماعى، والإخاء الإنسانى، والحياة الكريمة، التى يعيش المسلمون فيها أخوة، متحابين، وفى ظلال علاقات طيبة، وتراحم صادق.

ولقد عرض القرآن الكريم للعديد من النماذج والمواقف الإنسانية التى تبرز فيها مظاهر الأخوة ، سواء أكانت أخوة رحم وقرابة، أم أخوة دين وإيمان، وكشف الرسول ـ ﷺ ـ فى كثير من الأحاديث النبوية عن الإخاء الإسلامى، وانتقل به من نطاق الأقوال المرسلة إلى حيز التطبيق الواقعى؛ للحرص على السعى الحميد؛ لإيجاد علاقة وطيدة بين أبناء الإسلام بخاصة، ومع غيرهم بعامة، فالإسلام رسالة سماوية، ومنهج للحياة يربط المسلمين جميعا برباط الأخوة الدينية، التى تنمحى أمامها جميع الفوارق والمتغيرات، كالنسب والمال والجاه، وتفرض على كل مؤمن أن يسعى إلى التوفيق والإصلاح بين إخوته، والحرص على تقوى الله فى كل سعى نحو تطهير الأخوة من نزغ الشيطان وكيد الخائنين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"(٢)، ومعنى : "لا يسلمه" أى لا يهينه، و"كربة" أى غما. لكن المواقف الإيجابية بين الأخوة لها ضوابط تحكمها، إذ ليس معنى الستر أن يسكت الأخ على معصية أخيه، أو يتخاذل أمامه فلا ينكر

---

(١) الحجرات ١٠ .

(٢) متفق عليه .

تصرفه، أو لا يمنعه منه، بالصورة التى يقدر عليها، حتى لو رفع المعصية لولى الأمر.

ولقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قيل: يا رسول الله، عرفنا كيف ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره"[١] ففى مقام التعدى والتجاوز ينبغى للمسلم أن ينهض بدور فعال، ولا يكتفى بالسكوت على الظلم والباطل.

ونعرض لبعض المواقف القرآنية التى تتجلى فيها مظاهر الأخوة، سواء أكان ذلك بالاعتداء عليها، أم بصيانتها والدفاع عنها.

وكان (قابيل) أول من طعن الأخوة، وطغا على صرحها العظيم، عندما أصر على الزواج من توأمته التى هام بها حبا، وأغلق مسامعه عن كلام أبيه، الذى رأى أن ابنته (إقليمياء) حلال (لهابيل)، ورأى (آدم) أن يقدم كل واحد من ابنيه قربانا إلى الله، والذى يتقبل منه يتزوجها، وقبل قربان (هابيل)، ورفعه الله إلى السماء، وبقى قربان (قابيل) الذى ذكرته الآيات فى سورة المائدة، قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[٢] لقد أكلت نار الغيرة والحقد زروع المحبة والعطف فى قلب قابيل، فقتل أخاه، فأصبح من الخاسرين، فتاه عقله وفقد رشده، وعجز عن ستر أخيه، وتعلم من الغراب كيف يوارى أثر الجريمة، فأصبح من النادمين.

ونأتى إلى أخوة يوسف الذين ذكر الله قصتهم مع أخيهم فى سورة كاملة، والتى كانت أخف فى قسوتها مما فعله قابيل، غير أنهم كانوا جماعة، ولم يشفع

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) المائدة ٣٠، ٣١.

الرباط الذى جمعهم بيوسف فى أن يكونوا رحماء به، لكنهم وقعوا ضحية للحقد والكراهية وكيد الشيطان ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾[1].

وطالت الأحداث والهموم على يوسف بسبب ما دبره أخوته فى ضوء ما ذكره القرآن الكريم، لكن النهاية كانت حسنة طيبة، فطلب (الأخوة) التوبة، وأقروا بالذنب فى حق الأخ، والأب (يعقوب) فقال تعالى على ألسنتهم مجتمعة: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾[2] .

أما (موسى) فكانت حياته قلقة مضطربة، ولما اشتد الأمر عليه طلب من ربه العون والقوة، وأبدى رغبته فى انضمام أخيه (هارون) إليه، فقال القرآن الكريم على لسانه: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[3] وأجابه الله إلى طلبه، فقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾[4].

ونأتى إلى التاريخ الإسلامى فنجد الأخوة الإسلامية تتحقق فى المدينة المنورة بصورة غير مسبوقة فى حياة الإنسانية من لدن آدم إلى مرحلة الهجرة، وما تلاها من مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

---

(١) يوسف ٤، ٥ .
(٢) يوسف ٩٧، ٩٨ .
(٣) طه ٢٩ ــ ٣٦ .
(٤) مريم ٥٣ .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[١].

وللأخوة الإسلامية روابط متعددة وواجبات كثيرة نذكر منها ما يأتي:

١- العفو والصفح والتسامح:

لقد قال الله تعالى في كتابه الكريم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [٢] فتساءل رسول الله ﷺ مستوضحا ما هذا يا جبريل؟ فقال: "إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطى من حرمك"[٣] .

وقد عنى الإسلام بالإخاء الإنسانى باعتباره سبيلا للسعادة ، ومظهرا للقوة، ووسيلة للحياة الكريمة، ونلمس ذلك فى التعاليم والمبادئ الإسلامية التى تهدف إلى المحبة والوئام، وتصل بالناس جميعا إلى تلك الغاية النبيلة، وهى أن يعيشوا إخوانا متحابين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [٤] ، وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : "قال رسول الله ﷺ : "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٥] ، وقامت العبادات على التآخى والتكافل والتعاون، ففى الصلاة يتحد المسلمون، ويكثر بينهم التعارف، وتزداد الألفة بين القلوب، كما أن الزكاة من أهم الوسائل للتعاطف والتراحم والإخاء والتعاون ، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[٦] ، ثم إن الصوم مدرسة لتربية النفوس على أتم ما يراد لها من المودة والكرم والإيثار، فالدين

---

(١) الحشر ٩ – ١٠ .
(٢) الأعراف ١٩٩ .
(٣) رواه ابن أبى الدنيا وابن جرير.
(٤) الحجرات ١٣ .
(٥) متفق عليه .
(٦) المائدة ٢ .

الإسلامى دين للإخاء والتآلف والتسامح والعطاء، قال رسول الله ﷺ : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"(١)٠

٢ ـ الصلح بين الناس ابتغاء مرضاة الله:

لابد أن يكون السعى إلى الصلح بين الناس مجردا من أغراض الدنيا، بعيدا عن الشبهات، وهذا مما يوثق العلائق بين المسلمين، ويزيل الكراهية من النفوس، ويقضى على الحسد والحقد والبغضاء، وكل صفة رذيلة سيئة، والتى انتشرت ــ للأسف الشديد ــ فى كثير من المجتمعات، وصارت سمة مميزة للحياة المعاصرة، فواجب الأخوة، يقتضى أن يكون الإصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢)٠

وتسمو الأخوة الإسلامية بكل من يقف إلى جانب أخيه، ويسهم فى رفع الأذى عنه وطلب المصلحة له، والإحسان إليه بالمعاملة الطيبة، والكلمة المهذبة، فعن أبى ذر ﷺ قال: قال الرسول ﷺ : "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق"(٣)٠

وقال ﷺ : "ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا"(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٥)، وتنبه الآية إلى ضرورة أن يكون

---

(١) رواه مسلم ٠
(٢) النساء ١١٤ ٠
(٣) رواه مسلم ٠
(٤) رواه الطبرانى ٠
(٥) الحجرات ٩ ٠

الصلح بالعدل، فلا ينحاز المصلح أو القاضى إلى طرف على حساب الآخر، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة.

٣ ـ الحفاظ على حقوق الأخوة:

يقصد بحقوق الأخوة: الأموال والأعراض والأسرار والأمانات بشتى أنواعها، فيجب الحفاظ عليها، ودعا الرسول ﷺ إلى مراعاة هذه الحقوق فى العديد من الأحاديث، ومما قاله فى خطبته بعرفة فى حجة الوداع:

"أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ... ألا هل بلغت ... اللهم فاشهد: كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه".

ويقصد بالدم: حق الحياة إذ من أخطر الجرائم أن يعتدى المسلم على حياة أخيه، سواء أكان ذلك قتلا أم إيذاء فى الصحة والبدن، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1].

ويراد بالمال كل ما يملكه الإنسان من نقود وعقارات وأطيان، إذ لا يجوز لأحد أن يسلبه منه سواء أكان ذلك بالسرقة أو الغصب، أم بالغش وتطفيف الكيل والميزان، أم عن طريق الرشوة أو الاختلاس، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾[3].

---

(١) النساء ٩٣ .
(٢) البقرة ١٨٨ .
(٣) المطففين ١ ـ ٣ .

أما الحفاظ على العرض فهو من أهم واجبات الأخوة، فقد يحتمل الإنسان الإيذاء فى النفس والمال، لكنه يغضب ويثور إذا مـــا اتصـــل الأمـــر بمســـألة الأعراض التى لها شأن عظيم فى الإسلام.

٤ ـ حسن معاملة الأصدقاء:

إن الاختيار الصحيح للأصدقاء يريح الإنسان من هموم كثيرة تتمخض عن مخاطبة رفقاء السوء، ولذلك يشترط أن يكون الأصـــدقاء متميـــزين بـــالأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، وأن يكونوا من الناضجين العقلاء الذين لا ينحرفـــون إلى المساوئ، ولا ينساقون إلى الشهوات، ولا تسفر مخـــالطتهم عـــن كراهيـــة وشحناء، قال رسول الله ﷺ : "المؤمن الذى يخالط الناس، ويصبر علـــى أذاهـــم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على آذاهم"[١].

وقال الشيخ محمد الغزالى فى كتابه (خلق المسلم) عند حديثه عن اختيـــار الأصدقاء: "إن العزلة والاختلاط لا يمكن أن يكونا وصفين دائمـــين للإنســـان، فليقسم المسلم وقته بين الخلوة النافعة والاختلاط الحسن؛ ليخرج من الحالين بما يصلح شأنه كله".

وقال الإمام الشافعى: "الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة للسوء، فكن بين القبض والبسط" .

وقال الرسول: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[٢]، فينبغى أن يكون الصديق المختار متدينا ورعا غير فاسق ولا مبتدع، وألا يكون متكالبا على الدنيا، ولا مسرفا فى التشاؤم، ولا أنانيا يحب نفســـه، ولا يقـــدر رغائـــب الآخرين .

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه الترمذى وابن حنبل والدارمى.

لقد كان الرسول ﷺ حريصا على أصحابه، فقال: "احفظوني في أصحابي"[(١)] ، وقال : "الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي"[(٢)]، وعن أنس ﷺ قال: قال رجل يا رسول الله: الرجل منا يلقى أخاه وصديقه أينحني له؟ قال: لا، قال: أفيلزمه ويقبله؟ قال: لا، قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم"[(٣)].

وقال الرسول ﷺ في حديث طويل: "لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي"[(٤)].

فالالتزام بواجبات الأخوة الإسلامية يرفع من شأن الأمة، ويعلي من منزلة أصحابها في العلاقة التي تربط بينهم، وتؤلف بين قلوبهم، وفي حديث شامل جامع رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ... التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه"[(٥)].

ولقد جمع هذا الحديث كثيرا من المعاني التي تحدثنا عنها، ونبهنا إليها، وهو بيان نبوي عظيم، وتشريع إسلامي حميد، قاله الرسول ﷺ ليأخذ المسلمون به، ويعملوا بما جاء فيه، وبخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين المسلمين، وما لهم وما عليهم، في قضايا الدين، وهموم الحياة، ونظام المعيشة، وحقوق الأخوة وآداب الإسلام.

---

(١) رواه ابن ماجة .
(٢) رواه أحمد بن حنبل.
(٣) رواه الترمذي بإسناد حسن.
(٤) رواه البخاري والترمذي.
(٥) رواه مسلم.

١٢ ـ تنظيم الإسلام لحياة الإنسان

يخطئ من يظن أن الدين الإسلامى عبادة قاصرة علـــى مجموعـــة مـــن الفرائض والسنن يمارسها المسلم فى المسجد أو فى بيته، أو فى مكة والمدينة، أو عند حلول شهر رمضان ، ثم يتخلى عنها ولا يلتزم بها فى باقى جوانب الحياة. ذلك لأن الإسلام دين كامل، ومنهج واضح، ونظام شامل من خلال علاقة المسلم بربه سبحانه وتعالى، وسنة رسوله ﷺ ،وبسائر الخلق جميعا، ونعرض لـــبعض الأمور التى يتضح منهج الإسلام فيها، وتبرز منها ملامح العلاقة بـــين الفـــرد والجماعة، علما بأن هذه الموضوعات المتفرقة يشملها أسلوب واحد فى الجمـــع بين العلاقات الوطيدة لأفراد المجتمع، ومع أن هذه الأمور ليست بخافيـــة علـــى الكثيرين، إلا أن الناس تغفل عنها ،ولا تبالى بها وتتطلع عليها، ولا تطبقها، مما يحتاج فى ضوء ذلك إلى مزيد من التنبيه والتذكير .

١ ـ نظام الإسلام فى المساجد :

إن للمساجد حرمتها وقدسيتها، فهى بيوت الله، وليست أماكن للنوم والأكل، ولا يملكها أحد، وإنما هى خالصة لله سبحانه وتعالى الذى قال : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[1] .

كما أن تعميرها مسئولية كل مؤمن لا يستقل بذلك فرد دون آخـــر، فـــإذا نهضت بذلك جهة معينة فإن دورها إشرافى لحفظ النظـــام، وضـــبط الأمـــور، ومقاومة الاضطراب والتخبط، والاختلاف فى الأمور، حيث ينبغـــى أن تكـــون الوحدة الإسلامية شعارا ومعيارا تسير الأمور ــ من خلاله ــ بالمساجد جميعا .

ثم إن جماعات من الناس يتصفون بقدر من الأمية الدينية الفاسدة يعطـــون بعض المساجد أهمية خاصة؛ لما لها من وضع متميز، كدفن أحد الأولياء بها، أو

---

(١) الجن ١٨ .

للعناية بالعمارة والزخرفة فيها، لكن ذلك غير جائز؛ لأن المزية لا تكون إلا للمساجد الثلاثة المعروفة، والمحددة بحديث رسول الله ﷺ الذى قال فيه : "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى ببيت المقدس"[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

إن كثيرا من الاختلاف بين الناس واقع ملموس، حين يترك المصلى الواجبات ويشغل بالهيئات وبالنواحى الظاهرية، التى تؤثر سلبا على أداء المسلمين للصلاة، وقراءة القرآن، والاستماع إلى حديث العلماء، والواجب على المسلم أن يعرف أن المسجد بيت الله تنقطع فيه صلة المؤمن بكل شيء سوى عبادته وإقباله على ربه، ويلتزم بآداب المساجد، ويعرف رسالتها، ودورها فى الحياة الدينية، ويعطيها حقها من العناية والرعاية والاحترام.

قال رسول الله ﷺ فى شأن دخول المسجد وتقديم التحية لبيت الله : "إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس"[٣].

فالمساجد ليست أماكن ، للدعاية لشخص ، أو لجماعة أو لحزب أو لبضاعة، أو لأمر خاص من أمور الدنيا، وهى أفضل مكان لذكر الله، وقراءة القرآن، وتلقى العلم من غير تأثير على الرسالة الأولى للمساجد، وهى الصلاة جماعة أو فرادى.

ويكره الخروج من المسجد بعد الآذان، حتى يصلى المسلم الفريضة، إلا إذا كان لديه عذر، فعن أبى الشعثاء قال: كنا قعودا مع أبى هريرة ﷺ فى

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) التوبة ١٨.
(٣) متفق عليه من حديث أبى قتادة السلمى رضى الله عنه.

المسجد ، فأذن المؤذن، فقام رجل من المسجد يمشى فأتبعه أبـــو هريرة بصــــره، حتى خرج من المسجد، فقال أبوهريرة أما هذا فقد عصى أباالقاسمﷺ "(١).

ومن الكراهة أن يؤذى المسلم المصلين بالروائح التى تنبعث منه بســـبب الأكل لبعض أنواع من الأطعمة كالبصل أو الثوم ، فعن جـــابر ﷺ قـــال: قـــال رسول الله ﷺ : "من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا"(٢).

كما أن المساجد ليست للبيع والشراء، أو الإعلان عن الأشياء المفقـــودة، فعن أبى هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا"(٣).

٢ ـ تنظيم الإسلام لاجتماع الناس فى مجالسهم:

اهتم الإسلام بتنظيم اجتماع الناس فى مجالسهم، فأمر القاعـــدين إذا قـــدم عليهم قادم ألا يضيقوا به، وأن تتسع صدورهم له، وأن يفسحوا مكانا لجلوســـه، أما بشأن القادم فيجلس حيث انتهى به المجلس، وألا يكون جلوسه بـــين اثنـــين متلازمين فيفرق بينهما، إلا إذا سمح له، فإذا أراد الانصراف خرج بالإذن، وذكر الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٤).

وجاء فى تفسير القرطبى أن الآية عامة فى كل مجلس اجتمع المســـلمون فيه، للخير والأجر، قال رسول الله ﷺ : "لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه، ثـــم يجلس فيه"(٥).

---

(١) رواه مسلم
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه مسلم .
(٤) المجادلة ١١ .
(٥) رواه البخارى ومسلم .

وقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم، وقيل فى قلوبكم، وقيل يوسع عليكم فى الدنيا والآخرة ٠

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ أى انهضوا إلى الصلاة والجهاد، وعمل الخير أو : "أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر معروف، وهذا هو الصحيح؛ لأنه يعم والنشز: المكان المرتفع من الأرض"[(١)]٠

وإذا كانت المجالس مجالس علم فلا يرفع الإنسان صوته، ولا يكلم غيره وعليه أن يجلس فى هدوء وسكينة ووقار، وإن كانت مجالس عامة فلا يؤذى غيره بعينيه أو غيرهما، ولا يفشى سر مجلسه، ويحترم مشاعر الآخرين٠

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٢)]٠

٣ ـ حقوق الطريق فى الإسلام:

لقد اهتم الإسلام بالطريق، وحث المسلمين على الالتزام بآدابها، ومراعاة النظام فيها، فلا يجلس الإنسان بها إلا إذا اضطر إلى ذلك، وإذا جلس فليكن على جانبيها، وليعطها حقوقها التى حددها الرسول ﷺ : فعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال : "إياكم والجلوس فى الطرقات" قالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ : "فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه"٠

قالوا: "وما حق الطريق يا رسول الله"؟

قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر"[(٣)]٠

---

(١) وكذلك النشز بفتح الشين ٠

(٢) الأنعام ٦٨ ٠

(٣) متفق عليه ٠

إن هذه الحقوق والواجبات ضرورية خاصة بعد زيادة عدد السائلين فـــى الطرقات، وازدحامها بالباعة الجائلين، والسيارات المسرعة، ومن هؤلاء السائلين النساء والأطفال، كما أن منهم أعدادا كثيرة من الفتيات فى مراحل سنية مختلفة، واللاتى يحتجن إلى من يحفظ لهن وقارهن وحشمتهن، فلا يلحق بهـــن ضـــررا نفسيا بالكلمات الجارحة والألفاظ الخارجة، أو ضررا ماديا بسلب ما لديهن مـــن أشياء ذات قيمة، وتعريضهن للسرقة والغصب أو الاغتصاب، وعلى المـــرأة أن يكون سيرها فى حشمة ووقار، وأدب والتزام، وفى أوقات مأمونة، وفى طـــرق مألوفة اعتاد الناس السير فيها بأمان واطمئنان، وعلى الجالس أن يرد كل معتـــدٍ عليها فى هدوء وبلا شجار، قدر الاستطاعة، حتى تستمر حركة الحياة٠

٤ ـ إلقاء السلام والرد عليه:

حرص الإسلام على تعميق الروابط الاجتماعية، والعلاقـــات الإنســـانية، والحفاظ على المودة بين الناس، فسن السلام تحية عند اللقاء والوداع؛ لأنه أفضل ما يحيى به المسلم الآخرين، حيث تهدأ به نفوسهم، وتسكن جوارحهم، ويتهيئون للرد الجميل والقول الحسن ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾[1]٠

والمسلم عندما يلقى السلام على إخوانه، فكأنما يسلم على نفسه، لأنهـــم لا يتوانون عن رد السلام، فتشيع المحبة، وتعم السكينة، وينتشر الهدوء بين الناس ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [2] ويكون السلام قبل الكلام، وعند الوصول إلى المجلس، أو عند القيام منه، ويسلم الراكب على الماشى، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، فى مودة وحب ووفاء ٠

---

(١) النساء ٨٦ ٠

(٢) النور ٦١ ٠

وعن البراء بن عازب ﷺ عن النبى ﷺ قال: "ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان، إلا غفر الله لهما قبل أن يتفرقا"[١].

إن إلقاء السلام إشعار صريح، وتصرف واضح، فى أن الإسلام دين السلام، وأن العلاقة بين الناس تخضع فى حركتها وشمولها للسماحة والمروءة، ونأسف لكثير من السلوكيات الاجتماعية التى يغفل المسلمون فيها عن الأثر الإيجابى لإلقاء السلام والرد عليه، ويتحول بالتحية الإيمانية المشروعة إلى استعمال عبارات مفرنجة، أو حركات وافدة لا قيمة لها إذا قوبلت بتحية الإسلام.

فما أحرى المسلمين أن يحرصوا على التحية الإسلامية، والرد الجميل عليها فى ضوء التشريع الحكيم، ثم إن الالتزام بالتحية يسهم فى ازدياد المعرفة بين الناس، مما ينعكس بآثاره على تقوية أواصر المودة فى العلاقات الإنسانية.

٥ ـ **نظام الإسلام فى السفر**:

نظم الإسلام شئون السفر للإنسان عند ذهابه وإيابه، فإذا أراد الرحيل لمدة طويلة غالبا، فعليه أن يبدأ برد الحقوق إلى أصحابها، وقضاء الديون التى عليه، وإعداد النفقة له ولسائر من يعولهم، ولا يتزود إلا من حلال طيب، وعليه أن يستكمل رد الودائع التى فى حوزته، وأن يترك أهله وذريته على الإيمان والتقوى فعن رسول الله ﷺ قال: "ما خَلَّفَ أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفرا".[٢]

ونؤكد أن الإسلام قد وضع المعايير الدقيقة لارتباطات المسلم فى إقامته وفى ارتحاله، على أن يداوم فى كل الأمور على حمد الله وشكره، مع الحرص على أن يكون طعامه وشرابه من حلال.

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢١٩٧).
(٢) رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق.

ولا شك فى أن رحلة السفر من حيث مسافتها، والبعد فيها عـن الأهـل تتوقف عليها اعتبارات كثيرة، لكن منهج الإسلام فى شموله وفى نظامه يراعى أن تكون علاقة المسافر برفقائه خاضعة لرضا الله ومراعاة مشاعر الآخـرين، وعدم الطغيان على حقوقهم من كافة النواحى، فلا يترفع عليهم، ولا يسخر منهم، بل ينبغى أن يكون حريصا على خدمتهم ومراعاة مشاعرهم فى سائر الأوقـات والسفر القصير الذى يخرج فيه الإنسان من بيته يخضع لمعايير أقل فى الرخص الدينية، واختيار وقت الخروج، والعودة؛ لأن ذلك السفر الذى يمارسه المسلم فى كل أيامه لمسافة قصيرة يختلف كما ذكرنا عن المسافر للحج، أو لدولة بعيدة من أجل العلم، أو السعى على الرزق، لكن المسلم أحوج ما يكون إلى الالتزام بتعاليم دينه فى الأحوال كلها ،على أنه من الثابت شرعا أن الإسلام قد مـنح المسـافر كثيرا من الحقوق، وكثيرا من الواجبات، فالذى يسافر مسافة قصر، له أن يفطر ويقضى صومه، وله أن يجمع ويقصر فى صلاته، ونص القرآن علـى كتابـة الدين، وقبض الرهن ، وبخاصة فى حالة السفر ، قـال تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [(1)] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾[(2)].

حيث نصت الآية الثانية على الكتابة، وإلا فلا يتم تسلم الشىء (مثل المال) إلا بدفع الرهن للدائن.

والسفر مدعاة للمشقة والإرهاق كما تحدث القرآن بذلك قـال : ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾[(3)] وقد ورد عن السفر أدعية كثيرة وفضائل جمة.

(١) البقرة ٢٨٢ .
(٢) البقرة ٢٨٣ .
(٣) الكهف ٦٢ .

فمن دعاء الركوب بسم الله والحمد لله ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [١].

ومن أدعية السفر: "الله أكبر الله أكبر الله أكبر، اللهُمَّ إنا نسألُك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطوعنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل" .

وعند عودة المسافر إلى بلده يقول ما سبق ويضيف: "آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون"[٢] .

وألا يشغل فكره إلا بقراءة القرآن، وأدعية الرسول، ومراعاة مشاعر الأخلاء .

وهكذا تجلى لنا أن الإسلام في نظامه وهديه وأحكامه يشمل حياة المؤمن كلها ، سواء أكان مقيما أم مسافرا، مما يؤكد حضارة هذا الدين، ومراعاته لعلاقة المسلم بالناس جميعا في حله وترحاله.

---

(١) الزخرف ١٣ .
(٢) انظر كتاب الاذكار للنووى ص ١٩٨ .

رابعا : من أخلاق الإسلام

١ـ التوكل على الله ٠
٢ـ التواضع ٠
٣ـ الحياء من الإيمان ٠
٤ـ القناعة ٠
٥ـ العدالة فى الإسلام ٠
٦ ـ الرحمة٠
٧ ـ النصيحة ٠
٨ ـ الشكر ٠
٩ ـ العودة إلى الله بالتوبة الصادقة ٠
١٠ ـ معالم الأمانة فى الأفعال والأقوال٠

١ـ التوكل على الله

١ـ التوكل لا التواكل:

التوكل على الله هو تمام الثقة فيه، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليــه، فى كل شأن من شئون الحياة ،بحيث يجتهد الإنسان فى سعيه وكفاحــه، تاركـا النتيجة لله سبحانه وتعالى، فهو القائــل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢].

وأول ما يمكن أن يحسه ويدركه من اعتمد على الله، وتوكل عليــه هــو الهدوء النفسى، فلا يقلق أو يضطرب أمام بعض الأمور التى تغيــب عنــه، أو يخشى على نفسه منها، خاصة إذا لم يكن قد أعد للأمر عدتــه، فظلــم نفســه، وأسلمها للهواجس والظنون، وعلى المرء أن يثق فى ربــه، وألا يشــغل بالــه بصورة تقض مضجعه، وترهق فكره، وتكد ذهنه فى أمور خارجة عن نطــاق قدراته، فالتوفيق من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣].

ويعتقد كثير من الناس أن التقدم العلمى والتفكير الإنسانى المــنظم، هــو المعول عليه فى حسم النتائج، وتحقيق النجاحات، والوصول إلى الغايات، وذلك وهم خادع، لا يلبث أن يكتشفه ويصل إلى أبعاده أكثر الذين ألمت بهم، وحلــت عليهم خطوب الحياة.

ولابد أن يراجع المؤمن منهاج حياته ، ويقوم تصرفاته، وألا يخدع نفسه، فيعبد ذاته، ويقدس رأيه، ويسرف فى أهوائه ونزعاته .

وتكون البداية بالإيمان الصادق والإخلاص فى العبــادة، والاجتهــاد فــى العمل، والتوكل على الله، والثقة فيه. قال رسول الله ﷺ : "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا"[٤].

---

(١) الطلاق ٣ .
(٢) التغابن ١٣ .
(٣) هود ٨٨ .
(٤) رواه الترمذى. وخماصا : جائعة ، وبطانا: أى ممتلئة البطن من الشبع.

فالطيور التى تتحرك فى أول النهار تكون خاوية البطون، لكنهـا تنشـط وتسعى إلى رزقها، حتى تعود إلى أوكارها وأماكن مبيتها ممتلئة البطون.

فالثقة فى الله زاد روحى، يقوى به المؤمن، فلا يستعين بغير خالقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾(١).

فهؤلاء الذين يظن أنهم يملكون أسباب الرزق، لا ينبغى للمؤمن أن يقهـر نفسه بالانكسار أمامهم والخضوع إليهم؛ لأن طلب الرزق يكون مـن الله الـذى يهب التوفيق لمن أخلص فى سعيه وحمد ربه، وآمن بالرجوع إليه، والثقة فيه.

وقد ارتبط التوكل بالإيمان بالله فى العديد من آيات الذكر الحكيم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(٢).

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾(٣).

وقال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤) وقد نزلت هذه الآية بسـبب اخـتلاف المسلمين فى الأنفال يوم بدر.

إن بعض الناس يسيئون فهم التوكل على الله، فيتكاسلون عن أعمـالهم، أو يؤدونها بفتور وضعف؛ استسلاما لفهم أو استنتاج خاطئ للقول، بـأن الله هـو الرازق، فصار هذا التوجه بمثابة تواكل، ويأس، وإساءة للدين.

---

(١) العنكبوت ١٧ .
(٢) آل عمران ١٢٢ .
(٣) المائدة ٢٣ .
(٤) الأنفال ٢ .

فالمتوكل على الله توكلا حقيقيا هو الذى يأخذ بالأسباب، ويجهـز نفسـه للمستقبل ببذل الجهد، وكد الذهن ،وسعة الإدراك، وأخذ الحيطة لكل ما يدور فى معترك الحياة.

أما الذين يسيئون للإسلام ــ بدون قصد ــ فى أحيان كثيرة فهـم الـذين يتركون أعمالهم لفترات طويلة، وينصرفون إلى التنقل من مدينة إلى قرية، بقصد التفرغ الكامل للدعوة والعبادة، وقد يكون ذلك مفيدا ومطلوبا من شـخص لـيس عنده ما يشغله من أمور الدنيا، أما لو كان الإنسان مسئولا عن أسرة، ولديه عمل تتوقف عليه مصالح العباد، ويحتاج للإنفاق منه على نفسه وعلى مـن يرعـاهم ويتابع أمورهم، فإن ذلك الانصراف عن الدنيا يعد لونا من الإساءة، وعدم الفهم لجوهر العبادة.

فالإسلام يدعو للتوكل، وينهى عن الكسل والتواكل، ويحض على العمـل والاجتهاد؛ طلبا للرزق، وتحقيقا لمستوى أفضل فى الحياة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[١].

وقـال تعـالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

أما الذين يقبلون على الله فى حب وصدق، ويشغلون أنفسهم بالنافع المفيد، ويقضون إجازاتهم أو جزءا منها فى اعتكاف لله فليس هذا انصرافا عن الحيـاة، بل هو تواصل إيمانى برب العالمين، يكتسب المؤمن به هدوءا نفسـيا، وراحـة قلبية ورضا من الله، ولا تتوقف عليه مصالح النـاس، فمـا أحـوج المـؤمنين الصادقين إلى مثل هذه الأوقات، التى يعودون فيها إلى الخالق سبحانه وتعالى.

---

(١) الملك ١٥ .
(٢) الجمعة ١٠ .

٢ـ صور ونماذج :

لقد كان الرسول ﷺ إماما ورائدا، ومعلما وقدوة للناس جميعا، كان متوكلا على الله توكلا حقيقيا، فإذا شرع فى أمر، أو تحرك لغزوة من الغزوات، كان يتخذ الأسباب التى يحفظ بها نفسه وجيشه وأمته، كان قوى الإيمان، عظيم الثقة بربه، ذا بصر صحيح بجوهر الدين، وكان يفكر تفكيرا عمليا منظما فى منهاج حياته، وأسلوب معيشته وعلاقاته بالآخرين، إذ جاء إليه أعرابى، وأراد أن يدع ناقته على باب المسجد بدون رباط فقال له: "... اعقلها وتوكل"(١).

أما موقفه من الرماة فى غزوة أحد فهو ذائع مشهور فى مقام الأخذ بالأسباب، فقد نسوا كلام الرسول ﷺ ، وانصرفوا ـ مع المقاتلين ـ إلى جمع الغنائم قبل انتهاء المعركة، وكانت النتيجة سيئة للغاية،، ولكنها أفادت الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم فى ضرورة الحيطة والحذر، وتنفيذ الأوامر الواعية، والاعتماد على الله سبحانه وتعالى.

وكان عمر بن الخطاب يعارض ويحارب بكل قوة المتكاسلين عن العمل بدعوى أنهم يتوكلون على الله، وقابل أناسا منهم فقال لهم من أنتم؟ فقالوا: متوكلون، قال كذبتم ما أنتم متوكلون، وإنما المتوكل رجل ألقى حبة فى الأرض ثم توكل على الله"(٢).

ذلك أنه فى مقام الحرث والزرع ينصرف الناس إلى جميع الأعمال فيقومون بها تاركين الباقى على الله، وكذلك فى مجالات أخرى، كالاستعداد للحروب والامتحانات وسائر المسابقات، التى تتطلب مزيدا من الحيلة والمران وضرورة التسليم لله والاعتماد عليه.

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه الحاكم .

٣ - التوكل والتسليم والتفويض:

تأتى هذه الاصطلاحات الثلاثة فى مقام الاعتماد على الله، والثقة فيه، وأولها: التوكل الذى يرقى المؤمن به إلى درجة تالية فيصير تسليما، ويزداد رقيا فى درجات الوصول إلى الله فيصير تفويضا له سبحانه وتعالى.

والتوكل بمثابة البداية، وأول الدرجات التى يصورها ويعبر عنها حديث الرسول ﷺ الذى رواه البراء بن عازب: "إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسى إليك؟ ووجهت وجهى إليك،وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك،لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك،آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت، فإنك إن مت ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبحت خيرا"(١).

ويعبر عن التسليم ما جاء فى قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢).

أى ما زادهم النظر إلى الأحزاب يوم الخندق إلا إيمانا بالله وتسليما بالقضاء ، وقد جاء هذا الإيمان والتسليم من الصحابة رضوان الله عليهم اقتداء برسول الله ﷺ فى ضوء ما ذكرته آية الأحزاب التى سبقت الآية المذكورة ، وهى قوله تعالى:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣).

أما التفويض فهو أعلى درجات التوكل، والثقة بالله، وتفويض الأمر إليه، وجاء ذكره على لسان رجل مؤمن من آل فرعون فى قول الله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾(٤).

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) الأحزاب ٢٢.
(٣) الأحزاب ٢١.
(٤) غافر ٤٤ ـ ٤٥.

وقال أبو على الدقاق: "التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثـم التسـليم، ثـم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصـاحب التفويض يرضى بحكمه ، فالتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية .

فالتوكل صفة المؤمنين، والتسـليم صـفة الأوليـاء، والتفـويض صـفة الموحدين. التوكل صفة العامة، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص، التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صـفة نبينا محمد ﷺ [١] .

٤ ـ عود إلى التوكل:

كان الإمام جعفر الصادق يتعجب لأى إنسان أدركه الخـوف ولا يقـول: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، كما فى قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ وذلك لأن الله قال بعدها ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

وجاء فى تفسير القرطبى: "أن الناس الذين قالوا هم المنافقون أو غيـرهم، والذين جمعوا هم: أبوسفيان ومشركو مكة عند مسـير المسـلمين إلـى بـدر الصغرى، وعن أبىهريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا وقعتم فى الأمـر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل"[٣].

وخاطب القرآن الكريم الرسول ﷺ فنهاه عن طاعة الكافرين والمنـافقين، وأمره بالتوكل على الله، فهو نعم الوكيل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(١) الرسالة القشيرية صـ٨٤، ٨٥، وموسوعة أخلاق القرآن للدكتور/ أحمد الشرباصى جـ٢ صـ٢٢٧ .

(٢) آل عمران١٧٣، ١٧٤ .

(٣) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير، وقال ابن كثير: هو غريب من هذا الوجه .

﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [(١)] وذكر القــرآن أن الشــيطان لا يقترب من المتوكل على الله، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [(٢)] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [(٣)].

فالتوكل على الله: يكون بحمده على النصر، كما جاء في آيات سابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [(٤)] وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية أنها نزلت في أعرابي استل سيف رسول الله ﷺ مــن غمده، وأراد قتله، فوقع السيف من يده.

وقيل: "نزلت في قوم من اليهود جاءهم النبي ﷺ يستعينهم في دية، فهمــوا بقتله ﷺ ، فمنعه الله منهم"[(٥)] ، ويكون التوكل على الله عند الميــل إلــى الســلم والرغبة في الأمن ، قــال تعــالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [(٦)].

وقد ذكر القرآن الكريم خلق التوكل على الله بألسنة كثير مــن الأنبيــاء، لتأكيد، الدعوة إلى الله، والثقة فيه، والاعتماد عليه، كدعوة إبراهيم عليه الســلام لقومه واستغفاره لأبيه، وتوكله على الله، قــال تعــالى: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [(٧)].

---

(١) الأحزاب ٤٨ .
(٢) النحل ٩٩ .
(٣) الإسراء ٦٥ .
(٤) المائدة ١١ .
(٥) القرطبي جـ٦ صـ١٢١ .
(٦) الأنفال ٦١ .
(٧) الممتحنة ٤ .

وخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ بشأن علاقته بأصحابه، وضـــرورة الصفح عنهم والاستغفار لهم، ومشاورتهم فى الأمور التى تحزبهم، وبين القرآن وجوب التوكل على الله عند العزم والقصد على أمر من أمور الحيـــاة، وأن الله يحب المتوكلين بالإقبال عليهم وهدايتهم، والعفو عن سيئاتهم قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[١]٠

فالتوكل الصحيح : إقبال على الله، ومنهاج للأنبيـــاء،وخلق مـــن أخـــلاق القرآن ، وأدب من الآداب الإسلامية، واكتفاء بالرزق، واستغناء عـــن الخلـــق، ومعاداة للشيطان، ودرجة عالية من الإيمان، وحسن الثقة بالله تعالى ٠

---

(١) آل عمران ١٥٩ ٠

٢ ـ التواضع

إن التواضع هو لين الجانب، والانتصار على النفس الأمارة بالسوء، والإطاحة بكل نزوة أو صلف وغرور، وهو خلق من أخلاق الإسلام، وسلوك لا يرقى إليه ويلتزم به إلا كل قوى بالله، حريص على دينه، يدرك نهايته، ولا يغيب عنه ضعفه؛ فإذا ابتعد المسلم عن التواضع، ولبس ثياب المتكبرين،فإن ذلك يشكل خطرا على عقيدته وإيمانه؛لأن التكبر أيا كانت دوافعه يتنافى مع الإيمان بالله والقرآن الكريم.قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[١]، وأخطر أنواع الكبر أن يتعالى الإنسان على خالقه سبحانه وتعالى.

وقد تحدث الدكتور أحمد الشرباصى عن أحوال التواضع وأقسامه وألوانه فقال: "والتواضع أقسام وألوان، وأساسه التواضع أمام دين الله عزوجل، بأن يتقبله الإنسان ويخضع له ، ولا يجادل فيه، ولا يعترض عليه برأيه أو هواه؛ ثم يلى ذلك التواضع مع رسول الله ﷺ ، فلا قول للإنسان أمام هديه، ولا هوى يخالف سنته، بل تسليم ومتابعة واقتداء، فى أدب وحب واهتداء، ثم يلى ذلك التواضع مع الخلق بأن يحفظ الإنسان حق غيره، حتى لو كان عدوا أو مخالفا فى الدين، وأن يقبل عذر المعتذر، وأن يفئ إلى الحق مهما كانت الجهة التى جاءه منها ، ذلك الحق، ثم يلى ذلك تواضع الإنسان فيما بينه وبين نفسه، فلا يرى فى نفسه لنفسه ما يفتح عليها أبواب الاغترار والتكبر، بل يردعها ويقمعها، فلا تختال ولا تميل"[٢].

ويرى الإمام الغزالى عليه رحمة الله أن هذا الخلق [التواضع] له طرفان وواسطة، فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا، والوسط يسمى تواضعا.

---

(١) غافر ٦٠ .
(٢) موسوعة أخلاق القرآن جـ١ صـ٧١ .

والكبر ــ وقانا الله شره ــ داء خطير، ومــرض صــعب العــلاج؛ لأن المصاب به يرى لنفسه منزلة لا توازى، ولمكانته قدرا لا يبارى، فيتعالى ظنــا وارتيابا بأنه حقق كمالا دينيا أو دنيويا، والكمال الدينى محتاج إلى رحمة الله التى يتغمد بها عباده ويشملهم فيها بعطفه وعنايته، والكمال الدنيوى ــ مهما تعــاظم وارتقى ــ إلى زوال، فالأحساب والأنساب والبنون والأموال والقــوة والجمــال وغيرها؛ لا تدوم لأحد، فالأباء والأبناء لا يستطيع طرف منهم أن يحقق كثيــرا من الأمور المستعصية للطرف الاخر، فالصحابة رضــوان الله علــيهم كــانوا يغضبون ويتألمون إذا رأوا مشهدا يوحى بإعجاب الإنسان بنفسه؛ لأنه يدفع بــه إلى الغرور، ويبعده عن التواضع.

ونعرض لموقف تجلى فيه ورع سيدنا أبىبكر ﷺ إذ دخل على ابنته السيدة عائشة رضى الله عنها فرآها تنظر إلى ذيل ثوبها، وكأنه أحس أن غرورا يمكن أن يلحق بها ، فقال لها : يا عائشة أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن، قالــت: ومم ذلك؟: قال: إن العبد إذا دخله العجب بزينته مقته ربه، حتى يفــارق تلــك الزينة .

والزينة فى حد ذاتها ليس منهيا عنها، بل هى مطلوبة فــى ســائر حيــاة الإنسان سواء عند الذهاب إلى المساجد أم عند مقابلة الآخرين، ومطلوبــة مــن المرأة لزوجها، ومن الرجل لزوجته، وهى مدعاة لإضفاء مسحة مــن الجمــال، على هيئة الإنسان، فعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قــال : "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر" ، قال رجــل : "إن الرجــل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا" قال : "إن الله جميل يحب الجمال، والكبر بطر الحق ، وغمط الناس" [١].

(١) رواه مسلم .

ولذلك كان التكبر على الله وعلى خلقه وعلى الناس داء خطيرا، ومرضا سيئا يفسد كثيرا من علاقات الود بين الأصدقاء، الذين يرون فى المتكبر ترفعا عليهم، أو إزدراء لهم، لأنه لا ينزلهم منازلهم التى يستحقونها، بل إنه يضعهم فى درجات أقل بكثير من التى ينبغى أن ينالوها.

فالتواضع خلق من أخلاق الإسلام يتنافى مع التعالى والتكبر، ويتنافى أيضا مع الذلة والمهانة، فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وليس من التواضع أن يجعل الإنسان من نفسه موضعا للسخرية والهمز واللمز، وسوء الظن، أو يهمل نظافة بدنه أو ثيابه؛ لأن الإسلام أمرنا بالتزين وارتداء أفضل الثياب فى تواضع ولين.

لقد كان الرسول ﷺ رائدا وقدوة للمسلمين فى تواضعه وسمو أخلاقه، واقتدى به الصحابة الأجلاء، فتعلموا منه، واتبعوا منهجه قولا وعملا وسلوكا، وأسوق موقفا لعمر بن الخطاب فيه الدلالة العملية على ما نقول.

روى عن قيس بن حازم أنه قال: لما توجه عمر بن الخطاب إلى الشام جعل بينه وبين غلامه تناوبا فى الركوب، فكان عمر يركب الناقة، ويأخذ الغلام بزمامها، ويسير فرسخا، ثم ينزل ويركب الغلام، ويأخذ عمر ﷺ بزمامها، ويسير مقدار فرسخ، ثم ينزل، فلما قربا إلى الشام كانت نوبة الركوب للغلام ، فركب الغلام وأخذ عمر بزمام الناقة،فاستقبله الماء فى الطريق، فجعل عمر يخوض فيه، وهو آخذ بزمام الناقة، ونعلاه تحت إبطه اليسرى، فخرج إليه أبوعبيدة بن الجراح وكان أميرا على الشام، ومن العشرة المبشرين بالجنة فقال يا

---

(١) المنافقون ٨ .

أمير المؤمنين، إن عظماء الشام يخرجون إليك، فلا يحسن أن يروك على هــذه الحالة، فقال عمر إنما أعزنا الله بالإسلام، فلا أبالى من مقالة الناس٠

إن الذى ينظر لهذه المواقف من حياة الرسول وأصحابه، ثم يشهد ما ينتاب الناس يعجب أشد العجب، لعدم الالتزام بحضارة الإسلام، ومنهاجه فى الحياة، إذ أنهم بمجرد أن يملكوا مالا، أو يظفروا بمنصب، أو يرزقوا بأبناء يصابون بلوثة من الغرور الزائف، وكأنهم مغيبون عن الوعى والإدراك، فلا يحاسبون أنفسهم على سلوكياتهم الخارجة، ولا يؤوبون إلى سيرة سيدنا رسول الله، فإذا ما لحــق بهم ضعف أو نقصان، فيما حصلوا عليه، انقلبوا إلى ناقمين حاسدين، لكل ما فى أيدى الآخرين٠

إنهم فى حاجة إلى تنبيه وإيقاظ ، وعودة حميدة إلى تشريع الحق ســبحانه وتعالى، إذ أن ذلك يحفز الآخرين على الالتزام بأخلاق الإسلام، والتمسك بخلق التواضع الذى يسعد ويهدأ كل من حرص عليه والتزم به، كما أن هذا الالتــزام دعوة مباشرة إلى المتكبرين، لكى يقلعوا عن هوسهم الذى تحكم فيهم، وغرورهم الذى أطاح باعتدالهم، وأثر فى درجات إيمانهم، خاصة أن الابتعاد عن المــنهج التشريعى لا يؤلف بين القلوب، ويجعل علائق الناس فى وهن وضعف٠

كما أن ادعاء التواضع لا بد أن ينكشف، ويصــير ســبة فــى شخصــية المتكبر، الذى يدعى التواضع وهو بعيد المسافة عنه، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾[1]٠

إن التواضع خلق من أخلاق أنبياء الله تعالى، رضــوان الله علــيهم جميعا ، أى أنه ليس قاصرا على الدين الإسلامى، ممــا يؤكــد عمــق القيمــة الإيمانية لهذا الخلق القويم٠

---

(١) الفرقان ٦٣ ٠

٣ ـ الحياء من الإيمان

لقد زادت عناية الإنسان بمن حوله من الناس، الذين يلتقون به، ويتحدثون إليه، ويتعاملون معه، فهو يأخذ ــ غالبا ــ سمتا ومظهرا يتوافق مـــع ميـــولهم واتجاهاتهم، دون اهتمام واف، ومراعاة تامة بمبادئه التى نشأ عليها، ونما تحت ظلالها٠

وما أشد حاجة المسلم إلى التمسك بأخلاق دينه، التـــى لا تتعـــارض مـــع عرف صحيح، أو تحضر راق، أو خلق قويم ٠

والحياء من أخلاق الإسلام، وهو والاستحياء بمعنى واحد، والحياء عبارة عن تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب ويذم به[١]، وهو بين الناس درجات، وأعظمها أن يتحسس المرؤ وجود الله فيما حوله، فيبتعد الحيـــى عـــن القبائح، ويتجنب فعل المنكرات، ويخشى الله، قبل أن يخشى الناس٠

وقد قال الرسول ﷺ : "الإيمان بضع وسبعون ــ أو بضع وستون شعبة ــ فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شـــعبة مـــن الإيمان"[٢]٠

والإيمان شعب كثيرة، والحياء إحداها، والذى ينقسم إلى ثـــلاث شـــعب، أولها: القرب من الله والامتثال لأوامره والإحساس بعظمته، وثانيها: الحياء مـــن الناس، ويتحقق عندما يشعر الإنسان أنه عضو فى المجتمع، وكلما كان حييا من الناس عاش محبوبا منهم، فلا يفعل ما يغضـــبهم، أو يحـــرك نفوســـهم ضـــده، والمؤمن قليل بنفسه، كثير بإخوانه، وثالثها: حياء المرء من نفسه، ويتحقق بـــأن يجعل من ذاته رقيبا عليها، فيحاسبها ويوجهها، ويحارب نزعات الشر فيها٠

---

(١) انظر كتاب موسوعة أخلاق القرآن للدكتور/ أحمد الشرباصى جــ١ صـــ٨٧ ٠
(٢) البخارى ومسلم ٠

وللرسول ﷺ مع أصحابه مواقف ظهر فيها معنى الحياء والاستحياء من الله، وهذا واحد منها، إذ قال لهم: "استحيوا من الله حق الحياء" فقالوا: "إنا نستحى من الله يا رسول الله والحمد لله" فأجابهم قائلا: "ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى"(١).

وليس معنى الحياء أن يرضى الإنسان بالظلم، أو يسكت عن قول الحق، أو يرفض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو لا يوقر أهله وذويه، أو يؤثر رضا الناس على حب الله ورسوله.

ولا ينبغى أن يتخذ الحياء سبيلا إلى الكذب والغش والنفاق، والتحدث بالنميمة بين الناس؛ لأن الضعف عن المواجهة الصحيحة للمنكر ليس حياء وإنما هو ذلة وتهاون ، وتراجع وتقاعس عن قول الحق، وفعل الواجب الصحيح، ولهذا كان الحياء خلقا عظيما من أخلاق الإسلام، فقد قال الرسول ﷺ : "إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء"(٢).

وقد قال الرسول ﷺ : "الحياء والإيمان قرناء جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر"(٣).

وإذا نزع المؤمن ثوب الحياء، فقد رفع الحواجز بينه وبين المنكرات، فلا يستبعد أن يأتى بكل قبيح ذميم، فى خلوته مع نفسه، أو فى سلوكه مع الناس.

وقال الرسول ﷺ : "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت"(٤).

---

(١) رواه الترمذى والطبرانى.
(٢) رواه مالك فى الموطأ، وابن ماجه فى السنن .
(٣) رواه الحاكم.
(٤) رواه البخارى ومسلم.

وعرض القرآن الكريم فى الكثير من الآيات لخلق الحياء، مستعملا لفـظ (الاستحياء) الذى يشمله فى المعنى، ويزيد عليه ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (١)٠

فأفاد التعبير القرآنى أن ضرب الأمثال؛ لإيضاح المعنى وبيان المراد ليس قبيحا ولا معيبا؛ حتى يكون موضعا للاستحياء منه٠

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (٢) ٠

فلم يمنع الحياء الرسول ﷺ من بيان هذه السلوكيات، وإظهار رفضه لها ٠

وفى شأن آدم وحواء قـال تعـالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ (٣) ٠

أى أخذا يستران عوراتهما بأوراق شجر الجنة٠

كما عرض القرآن لحياء ابنة شعيب، وهى مقبلة على موسـى، لتوجيـه الدعوة له بلسان أبيها، قال تعـالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ (٤) أى تمشى على عفاف وطهارة٠

وروى أن الرسول ﷺ كان مع زوجته (صفية) على باب المسجد، وشاهده بعض الصحابة، فخشى الرسول ﷺ إساءة الظن به، فقال لهما : "على رسـلكما إنها صفية" فقالا: "وهل نظن بك يا رسول الله إلا خيرا"٠

---

(١) البقرة ٢٦ ٠
(٢) الأحزاب ٥٣ ٠
(٣) الأعراف ٢٢ ٠
(٤) القصص ٢٥ ٠

فقال: "إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فخشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا"[١].

ولقد أعطى الصحابة الأجلاء أمثلة رائعة من الحياء والأدب الجم، إذ كانوا أقوياء بالله، لا يمنعهم حياؤهم من إبداء الرأى وقول الحق.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يخطب فى المسلمين مرة، وعليه ثوبان، فأمر بالسمع والطاعة، فقال أحد المسلمين: "فلا سمع ولا طاعة، عليك ثوبان وعلينا ثوب واحد" فنادى عمر بأعلى صوته:

"يا عبدالله بن عمر، فأجاب ولده: لبيك أبتاه، فقال له: أنشدك الله، أليس أحد ثوبى هو ثوبك أعطيتنيه؟ قال: بلى والله، فقال الرجل: الآن نسمع ونطيع يا عمر" فلم يمنع الحياء الرجل من أن يقول قولته، ولم يمنع الحياء أمير المؤمنين من ذكر الواقع أمام الناس.

وكانت النساء فى سنوات الإسلام الأولى يسألن الرسول عن كل ما يعرض لهن من أمور دينهن، ويصل الحال ببعضهن إلى أن تعرض نفسها على رسول الله ﷺ ليتزوجها، أو أن تسأل واحدة منهن عن أمر خاص بفقه النساء فيجيبها، أو يحيلها إلى بعض نسائه؛ لاستكمال الفهم والبيان، وفى الوقت الراهن نشهد كثيرا من الآباء والأمهات فى حيرة من أمور أبنائهم فى ظل المتغيرات المستحدثة التى تهاجم التقاليد العربية، والأخلاق الاسلامية فى الصميم، دون مراعاة تامة لخلق الحياء، حتى لم تعد التربية الدينية من خلال المنزل كافية للتصدى لهذه المستجدات، بما فيها من أمور خارجة عن العرف والأخلاق، ولكن الأمر لا يدعو لليأس والاستسلام، لمواجهة غياب الحياء كثيرا، ونسيان المبادئ الدينية، وتجاهل العادات والتقاليد الأصيلة؛ حفاظا على ما تبقى فى قلوب الكثيرين من أنوار الإيمان.

---

(١) رواه البخارى.

فالحياء خلق من أخلاق الإسلام يقتضى أن يتحلى بـــه كـــل إنســـان مكلف، فيستحى من الله، ومن الناس، ومن نفسه، ولا يتجاوز الفواصل الفارقـــة بين الحياء وسوء الأدب، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد النـــاس، مـــن خلال الكلمة الهادفة، والموعظة الحسنة، والسلوك الحميد ٠

٤ ـ القناعة

القناعة: هى الرضا بعطاء الله، والثقة فى حكمه، والاطمئنان إلى عدالته ٠

والقانع: هو الذى يقبل حكم الله فى الرزق، والصحة، والمكانة، وسائر العطاءات، التى لا يملك فعل شيء حيالها، فلا يثور ولا يغضب ،على ما خصص له، دون أن يسكت على حق مسلوب لا شبهة لآخر فيه٠

والقناعة: صفة من صفات المؤمنين الأولياء، والمخلصين الأتقياء، الذين عمرت قلوبهم بالإيمان، وخضعت نفوسهم بالرضا والقبول، لما قدره الله عزوجل فلا تجد فى تصرفاتهم وسلوكياتهم جنوحا أو تهورا، يفقدهم الرشد والصواب٠

والإنسان ــ بحكم طبعه ــ يفرح للرزق، ويشتاق إلى المال؛ لأنه زينة للدنيا، وحصن وأمان من تقلبات الحياة، وهو اختيار يمكن أن يشغل الناس ، ويصرفهم عن حقوق الآخرين، وينسيهم سبل الخير التى لابد أن يكون لها نصيب من كسب الإنسان، وبسبب هذه الفتنة وضع الإسلام المعايير والأسس التى يجب على المسلمين أن يلتزموا بها فى سعيهم إلى الأموال، وحرصهم عليها٠

ونسمع فى بياض نهارنا، وسواد ليلنا عن أناس كثيرين، ينهزمون أمام جبروت الأموال، فيسلكون الطرق الملتوية للحصول عليها، ولا يقنعون بما قسمه الله لهم فى سعيهم واجتهادهم، حيث يستولى الطمع على نفوسهم، ويدفعهم إلى مساوئ الأخلاق، وفعل المنكرات، إذ أن المال عندهم غاية الغايات، مهما سلكوا إليه من سبل، أو ركبوا له من صعاب٠

لقد أباح الإسلام الكسب الحلال، لكنه حذر من الطمع الذى يفسد العلاقة بين الناس، ويجعلهم يعيشون فى بغض وكراهية، وصراع طويل لا نهاية له ، ولو أنهم قنعوا ورضوا، وصدقوا بما آل إليهم ، لكانت النتائج أفضل لهم ولمن

يحيون تحت رعايتهم، وأعظم للمجتمع وللإسلام الذين يدينون بـه، وينتسـبون إليه.

لقد كان الرسول ﷺ عارفا بأدواء النفوس، خبيرا بتأثير المال فيها، فقـال عليه الصلاة والسلام: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى لهما ثالثـا،ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"[١].

فليست السعادة فى كثرة المال، فكم من أناس لا يملكون إلا القليل، ولكـن الله رزقهم، وأنعم عليهم بالقناعة، وهدوء النفس، فعن أبىهريرة ﷺ عن رسـول الله ﷺ قال: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس"[٢].

وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: "قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما أتاه"[٣].

إن أخطر ما يحرك الطمع والجشع فى نفس الإنسان هو كثرة النظر إلى ما يمتلكه الآخرون، فيحسدهم، ويحقد عليهم متمنيا زوال النعمة التى فى أيديهم.

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [٤]؛ لأن رغبة الشخص فى التملك قد تسوقه إلى تدقيق النظر فيما يملكه الآخـرون، فتتحـرك نوازع الكراهية بين الناس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٥].

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك .

(٢) متفق عليه ، والعرض بفتح الراء أى المال.

(٣) رواه مسلم .

(٤) سورة النساء آية ٥٤ .

(٥) النساء آية ٣٢ .

وقد حض الإسلام على القناعة، وعدم الطمع فيما يملكه الناس، والرضا بقضاء الله، فعن العباس سهل بن سعد الساعدى ﷺ قال جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله : "دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله، وأحبنى الناس" قال: "ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"(١).

ويخضع ذلك لدرجات الإيمان بالله، ومستوى علاقة المؤمن بربه، ومدى القناعة التى يتحصن بها، انطلاقا من التسليم المطلق للرازق، المعطى سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢).

إن النظر إلى ما يملكه الآخرون يمثل خطورة لا حدود لها، فى مستوى العلاقة بين الناس ، فبعضهم قد لا يقدر على كتم نوازعه، وما يموج فى أعماقه، فتنفجر تصرفاته معلنة عن كراهية تتأجج بها نار العداوة، لكن هذا النظر إذا خرج هادئا ومعبرا عن زهد وقناعة، فيما عند الآخرين سارت الأمور فى مساراتها الصحيحة قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (٣).

وقال الإمام على بن أبىطالب كرم الله وجهه: "استغن عمن شئت تكن نظيره، وتفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره".

إن قناعة الشخص بما عنده مسألة ضرورية، وقضية خطيرة؛ لأن أكثر الهموم التى يتقاتل الناس عليها، ترجع إلى الطمع فيما عند الآخرين، وتعبر عن

---

(١) رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة.
(٢) الذاريات ٥٦ ــ ٥٨ .
(٣) طه ١٣١، ١٣٢ .

نوع من الرفض لقضاء الله، ولذلك ينبغى للإنسان دائما أن يمتع نظره فيما يملكه من مال أو صحة أو ذرية أو منصب؛ لأن العطاء الإلهى للناس يختلف من إنسان لآخر، فبعضهم يرغبون فى تملك كل شىء، ولا تعنيهم هموم البشر، وإذا أحسوا أن عند الآخرين شيئا ليس لديهم طمعوا فيه، وهنا تتكاثر منابت الكراهية فى النفوس، وقد قال الإمام الحسن البصرى: "لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع فى دنياهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه".

فعلى المسلم الذى يحرص على المطابقة بين أفعاله وأقواله، أن يكون عفيفا كريما، وقانعا راضيا.

قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[١].

أى أن النفقة توجه إلى الذين أحصروا فى سبيل الله – أى حبسوا أنفسهم للجهاد – فلا يستطيعون السعى فى الأرض بالتجارة واكتساب الرزق، ومع ذلك فهم لا يسألون الناس، لعفتهم وقناعتهم وزهدهم الذى لا يخفى على أحد، فيظهر فيهم ويتجلى عليهم؛ حتى إنهم أمسكوا عن سؤال الآخرين.

وعن حكيم بن حزام قال: "اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله"[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣]، وقال الشاعر الباكستانى محمد إقبال:

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ∴ ولا دُنْيا لمن لم يُحْيِ دينا

(١) البقرة ٢٧٣.
(٢) متفق عليه، واللفظ للبخارى.
(٣) المنافقون ٨.

ومن رَضِـى الحيـاةَ بغيـر ديـنٍ .·. فقـد جعـل الفنـاءَ لهـا قرينـا
وفـى التوحيـدِ للهمـم اتحـادٌ .·. ولـن تبنُـوا العُـلاَ متفرقينـا

إن الطامع فى الكسب، والراغب فى الدنيا يستطيع أن يسلك الطرق الشرعية الصحيحة للتملك بالسعى فى الأرض، وتنمية الطموح، وعدم الاستسلام لليأس، إذا لم يوفق فى سعيه، وأن يثق فى الله ثقة مطلقة تدفعه إلى مزيد من بذل الجهد، وأن يعلم أن كثرة الأموال ليست دليلا على السعادة، إذ يستحيل شراء كل شىء، ولابد أن تكون النفوس فى سلام وهدوء وطمأنينه مع الله؛ حتى تنتصر على ما يترسب فيها من شهوات جامحة، وأفكار ضالة، ونفوس أمارة بالسوء والضلال.

إن القناعة خلق من أخلاق الإسلام، وسلوك حميد دعا إليه الرسول ﷺ، وحث الناس على الالتزام به؛ حتى يعيشوا فى حب ومودة، وحتى لا يتباغضوا أو يتحاسدوا أو يتناجشوا[١].

فالتشريع الإسلامى دعوة إلى الخير والمحبة، وتوجيه حميد إلى الرضا، وهدوء النفس، وتحذير للذين ينحرفون عن المنهج الإلهى، فيرسمون لأنفسهم خطوطا منحرفة على كل خط منها شيطان، يوجههم ويحركهم إلى التطاحن والطمع والجشع، فينحرفون ويتقاتلون، مع أن دعوة الإسلام دعوة سامية تأمر بالخير والقناعة والرضا، بما قسم الله تعالى لعباده.

ولا يغفل المسلم عن دعوة القرآن إلى القناعة، وخطابه الواضح إلى أخذ العبرة والعظة من شخصية قارون الذى مارس أساليب متعددة فى جمع المال ناسيا توفيق الله، وغافلا عن إرادة الحق فى الاختبار والابتلاء بالمال، وقد بالغ فى فرحه وبطره، وكان مستفزا بهذه الصورة التى بدا عليها أمام الناس، وذكر

---

(١) يتناجشون: يغشون ويخدعون.

القرآن الكريم خطورة هذا المسلك، فكان التوجيه البليغ والبيان الرائع فى أهمية الجمع بين حق الدنيا، وحق الآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

إن من الواجب على الشخوص المنكرة، بتصرفاتها المستفزة،أن تراجع ماضيها، وتستكشف حاضرها، وتقنع بواقعها، وترضى بالمقسوم لها بقضاء الله وحكمه، مع حتمية السعى على المعاش، وبذل الجهد المشروع، وإتقان العبادة لله، وترك جموع الآمر لرب الأرض والسماء سبحانه وتعالى.

---

(١) القصص (٧٦)، ومعنى الفَرِح: المتبطر المستفز ، الذى لا يحترم مشاعر الآخرين .
(٢) القصص (٧٧) .

٥ ـ العدالة فى الإسلام

العدل هو: المساواة والإنصاف، ويعبر عنه بالقسط والميزان، وهو متعدد الجوانب والحالات، ويبدأ الحديث عنه بعدل الله، الذى هو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، ويتسع مجاله ليصل إلى عدل الله مع الخلق، فهو لا يظلم أبدا، كما يجب تحقيقه بين البشر، الذين ينبغى عليهم أن يحرصوا على هذه الصفة، ويلتزموا بها فى سائر شؤون حياتهم، ذلك أن الله خلق العباد متساويين فى الحقوق والواجبات، فلا يليق أن يأتى منهم من يفرق بينهم فى المعاملة، بلا سبب سوى هوى نفسه، أو قرابة لصيقة ، أو رشوة بغيضة، أو مصلحة يرجوها، فإن تلك الميول والانحرافات تصيب الناس باليأس والإحباط إلا من عصمه الله، وارتفع عن صغائر الخلق وكبائرهم، فسمت روحه إلى محبة الله ورسوله، وأيقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولذا يتحتم على كل من ولى أمرا من أمور البشر أن يسوى بينهم فى الحكم والمعاملة، وأن يكون قضاؤه لهم بمعيار الشرع الصحيح، والقانون الذى ينظم المستحدثات فى شتى مجالات الحياة ما دام غير متعارض مع أصل من أصول الشريعة الغراء[١].

الأمر بالعدل والإحسان:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

قيل إن هذه الآية أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب.

والعدل خلق إسلامى فى قمة الأخلاق؛ لأنه فى بعض معانيه: لا إله إلا الله أى توحيد الله، وعدم الإشراك به، وقيل هو الإيمان بالفروض والالتزام بها، وقيل هو استواء السريرة مع العلانية، فتكون للشخص صورة واحدة لا تتغير ، ولا

(١) نص الدستور المصرى فى المادة ٤٠ على أن (المواطنون لدى القانون سواء).
(٢) النحل ٩٠ .

تتلون بحيث يكون ولاؤها لله تعالى، وقيل هو الإنصاف، وعدم التجاوز والالتزام والاستواء والاستقامة فى التعامل مع الآخرين فى سائر الأحوال.

والإحسان: أن تكون سريرة الإنسان أحسن من علانيته.

وقيل إن العدل هو الفرض، والإحسان هو النافلة، والعدل كل مفـروض، والإحسان كل مندوب، أو أن بالعدل هو الإنصاف، والإحسان هو التفضل.

وقد كتب صاحب ظلال القرآن عن معنى العدل ومعنى الإحسان، والفرق بينهما فقال: "جاء العدل[1] الذى يكفل لكل فرد، ولكل جماعة، ولكل قوم قاعـدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبـدل مجـاراة للصهر والنسب والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضى فى طريقها، تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع.

وإلى جوار العدل "الإحسان" يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويـدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح فى بعض حقه؛ إيثارا لود القلوب، وشفاء لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه؛ ليداوى جرحـا، أو يكسب فضلا.

والإحسان أوسع مدلولا، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشـمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها فى علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعا.

ومن الإحسان إيتاء ذى القربى، حيث يبرز الأمر بـه، تعظيمـا لشـأنه، وتوكيدا عليه، وما يبنى هذا على عصبية الأسرة، إنما يبنيه على مبـدأ التكافـل الذى يتدرج به الإسلام من المحيط المحلى إلى المحيط العـام، وفـق نظريتـه التنظيمية لهذا التكافل"[2].

---

(١) أى القرآن.

(٢) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب جـ٤ صـ٢١٩٠.

ومن معانى الإحسان: الإتقان (والفعل يتعدى بنفسه) كما يتعـدى بحـرف الجر بمعنى: أوصلت إلى الشخص ما ينتفع به، ويتقارب المعنى فى الحالتين، أو يتحدان فى كثير من استعمالات اللفظ، ولكنه بالمعنى الأول فى حديث الرسـول إجابة عن سؤال جبريل إذ قال ﷺ عن الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(١).

ويتسع معنى الإحسان بصورة أكبر، حتى يقترب من الرحمة، كمـا فـى حديث: "إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسـنوا القتلـة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"(٢).

وإيتاء ذى القربى: من الإحسان؛ لأن حقوقهم واجبة لا يجوز الفرار منها؛ تأكيدا لصلة الرحم التى اشتق الله اسمها من اسمه تعالى، وجعل صلتها من صلته كما فى الحديث القدسى: فعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: "خلق الله الخلق، فلما فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال لها: مَهْ، قالت: هذا مقام العائذِ بك من القطيعة. قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك، قال أبوهريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾(٣).

والقرابة من القرب ، فالأقربون أولى بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾(٤).

---

(١) من رواية مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) متفق عليه، والحَقْو: الإزار، والخَصْر وشد الإزار واللفظ للبخارى.
(٤) النساء ٣٦ .

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[(١)]٠

ولا ينبغى أن يكون إعطاء الأقارب نزوعا إلى العصبية والتكتل الأعمى، بل الواجب أن يكون ذلك سلوكا محمودا نحو التواصل والتكافل والترابط الاجتماعى، والانتقال من الدائرة المحدودة للقرابة إلى الدائرة الأشمل للأخوة والإنسانية العامة٠

وإعطاء الأقارب العطاء المعنوى أو الحسى حق ثابت، وليس منحا أو تكرما، يتفضل به شخص على آخر٠

ولنأت إلى ما نهى الله عنه فى آية العدل المذكورة، قال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾٠

الفحشاء: كل قبيح منكر من قول أو فعل ظاهر للناس، أو خفى عليهم ٠

والمنكر: ما ظهر فاعله ، واستحق أن ينكره الناس، وحدده القرطبى فقال: هو "ما أنكره الشرع بالنهى عنه، وهو يعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها"٠

والبغى: الشديد الضرر؛ لما فيه من تجاوز وطغيان وعدوان على الناس، أى أنه داخل فى نطاق المنكر، لكنه خص بالذكر؛ لشدة ضرره، وقيل هو: الظلم والكبر والحقد٠

وأعتقد أن هذه الأوباء قريبة فى المعنى، ولا يكاد يظهر بينهما اختلاف كبير سوى أن الفحشاء جريمة تتناول الأعراض (غالبا) ، وإذا جاءت فى صورة علنية أمام الناس كانت منكرا، فإذا لم تتوقف عند ممارسة الشخص، وانعكست بصورة واضحة على الآخرين كانت بغيا وعدوانا٠

---

(١) الإسراء ٢٦ ٠

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى يأمركم بما يأمركم بـه من الخير، وينهاكم عما ينهاكم به من الشر[١]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فـلا تنسوا ما أمرتم به ونهيتم عنه؛ ذلك لأن القرآن الكريم تذكرة لأولى الألباب، قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

روى أن ابن مسعود قال: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾.

وقد جاء الأمر فيها بثلاثة أمور، وجاء النهى عن ثلاثة أمور أخرى، وكان العدل أول ما أمر به؛ تأكيدا وتنبيها على أهميته فى إرساء الدعائم الاجتماعية.

وكانت الحياة العربية قبل الإسلام فى حاجة ماسة لهذا المبدأ القويم؛ حتـى تستقر الأوضاع ، ويأمن الناس، وينال كل صاحب حق حقه.

والعدل ليس مطلوبا من شخص دون آخر، بل الناس فيه سواء، ومن أعلى القمة تتجلى أهمية الإمام أو الحاكم العادل، الذى يخضع للحق ويأمر به، ويسير عليه، دون أن يتبع نفسه هواها، فيقع الظلم، وتسود الفوضى .

روى أبوهريرة عن رسول الله ﷺ قال : "سبعة يظلهم الله فى ظله يـوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة ربـه، ورجـل قلبـه معلـق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل طلبته امـرأة ذات منصب وجمال، فقال إنى أخاف الله، ورجل تصدق أخفى، حتـى لا تعلـم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٥٨٢ .
(٢) الذاريات ٥٥ .
(٣) متفق عليه.

ولا ينبغى أن يكون الشخص المسئول إنسانا جامـدا، لا يشـعر بمعانـاة الناس، فيظن أنه مخلد فى مكانه، وأن الوظيفة التى يشغلها ستدوم له، فإن ذلـك مما يزيد فى كراهية الناس له، ولابد أن يكون تطبيق العدالة مشفوعا بالرحمـة واللين، والرفق والإحسان، وقد روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبـى جعفـر المنصور (العباسى) فحاجها العامل، وغلبها بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلـم، ولا جوره فى شىء، فقام فتى من القوم فقال: يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن، قال: فعجب أبـوجعفر مـن إجابتـه وعـزل العامل[١].

وجاء البيان القرآنى ــ عن طريق ضرب المثل ــ ولله المثـل الأعلـى، بالموازنة بين شخص أبكم لا يقدر على شىء، وشخص يأمر بالعدل وهو علـى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢] .

ولا قيمة للعدالة إذا كانت شعارا يردده الناس، ولا يعملون بمقتضـاه، أو يفسرونه حسب أهوائهم بالمخالفة لما أنزل الله، وهو الثابت الذى لا يقبل جـدلا ولا هوى ، فإذا انعدمت الضمائر، وانحرفت الرغبات وقع ما لا تحمـد عقبـاه، ذلك أن الدستور الإسلامى شامل فى معالجته للخصومات والنزاعات بين الناس.

ومن الواضح أن للعدل أحوالا متعددة تجعل هذا الدستور الإسلامى شاملا لكل نواحى الحياة .

١ـ العدل فى الحكم بين الناس:

أ ـ العدل من الأصول الخمسة: ما أسوأ وما أبغض أن يحكم إنسان بين اثنين أو أكثر، ثم يجور فى الحكم، مفرقا بينهم بفروق ظالمة، تنبت حزازات كثيـرة

---

(١) القرطبى جـ١٠ صـ١٦٨ .
(٢) النحل ٧٦ .

يصعب التخلص منها مع الأيام، ثم كيف يفرق الإنسان بين الناس، وهم أمام الله سواء.

ويرى القاضى عبدالجبار بن أحمد أن الأصول الخمسة التى يجب على كل (معتزلى) اعتناقها والدفاع عنها والاجتماع حولها هى: "التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" والمراد من الأصل الرابع هو أن مرتكب الكبيرة ليس كافرا ولا مؤمنا، بل فى (منزلة بين المنزلتين) وقد استقر الرأى عند القاضى عبدالجبار على اعتبار التوحيد أسبق من العدل، وأن المقصود بالعدل هو العدل الإلهى فى محاسبة العباد على أفعالهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [1]، وكان الرسول قدوة لأصحابه، والناس جميعا فى الدعوة إلى العدل والأمر به، والحكم على أساسه، فوضع المنهج السليم للدولة التى امتدت شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا؛ لأنها قامت على دستور إلهى، لا فرق فيه بين شخص وآخر إلا بالتقوى.

فهذا أبوبكر يتولى أمر الخلافة، ويخاطب الأمة بحديث مباشر عن التسوية بين الخلق، وعدم التفريق بينهم، ومما قاله: "أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ... إلى أن قال : الضعيف فيكم قوى عندى، حتى أخذ له الحق، والقوى فيكم ضعيف عندى، حتى أخذ الحق منه".

لقد كان خليفة رسول الله ﷺ صادقا فى قوله، عادلا فى حكمه، متبعا لسنة رسوله، لا يحيف عن الحق، ويرفض الظلم الذى حرمه الله على نفسه، وجعله محرما بين الناس جميعا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: "إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأحبه، ولعلى لا أقاضى إليه أبدا، وإنى لأسمع بالغيث يصيب

---

(١) شرح الأصول الخمسة لقاضى القضاة عبدالجبار بن أحمد صـ١٠ .

البلد من بلدان المسلمين فأفرح به، وما لي بها سائمة ولا راعية، وإني لآتي على آية من كتاب الله، فوددت لو أن المسلمين يعلمون منها مثل ما أعلم".

وبعد أن تولى عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة سار على هدى من أنوار الحق جل وعلا، ، فكتب عمر ﷺ رسالة فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى جاء فيها :

"أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ..

آس بين الناس فى مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك ..

البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا، أو أحل حراما .

ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.." .

وقد عرف عمر ﷺ بعدله ورحمته،وعطفه على الفقراء ومقاومته لكل طاغ عنيد

فالعدل صفة واجبة فى حق الناس جميعا، فإذا وقع صدام بين فريقين من المسلمين، أو بين دولتين أو أكثر، فالواجب أن يكون فض النزاع محكوما بالعدل وبلا تعصب لجماعة على حساب أخرى، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

---

(١) الحجرات (٩) .

وقد دعت الآية المباركة إلى الدفاع عن المظلوم ومساندته ضد من اعتدى عليه، فإذا تراجع الظالم عن ظلمه وضلاله، فالواجب على المسلمين الاحتكام إلى مبادئ الصلح، والدعوة إلى تنفيذ العدل على الجميع، بلا تفريق وتمييز لجماعة أو لفرد على حساب الآخرين.

ومن أسوأ مظاهر الخلاف والاختلاف في الحياة المعاصرة اقتتال المسلمين مع بعضهم، مما يشجع خصومهم وأعداءهم على الانتصار عليهم والشماتة فيهم، ما داموا متفرقين وأصحاب أهواء متباينة.

ب - العدل في القول: ويتمثل في الشهادة بين الناس، وتقديم المشورة لهم، وعدم المبالغة والإشادة في مدح شخص دون آخر، عندما يكونان في موقف يحتاج إلى ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1].

وذلك عند الكتابة لهم، أو التوقيع على ما سجلوه على أنفسهم، إذ ينبغي الحرص على عدالة الكاتب والمملي في إثبات الحقوق، وتسجيل الديون.

ومن أخطر ما ينافي العدالة في القول: الكذب في الشهادة، ولعل لفظها يؤكد ضرورة الرؤية والسماع، فلا يشهد الإنسان على أمر لمجرد أنه علم به صدفة من غير تحقق،قال تعالى﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾[2] أي لا يغفل الإنسان عن ربه، وهو يتابع الأمر، ويقرره، ويشهد بما حدث فيه.

٢ - العدل بين الزوجات:

إن المرأة ضعيفة بنفسها، وتحتاج إلى الرجل الذي يأخذ بيدها، ويكون عونا لها، فإذا تزوجت انعقدت آمالها على شريك حياتها؛ ليكون سندا وقوة تلوذ به، وتلجأ إليه، فإذا تزوج بأخرى، فحرام عليه أن يتنكر لها، وأن يهضم حقها، وألا يكون هذا المسلك سبيلا للانتقام من الأولى، كما لا ينبغي أن يكون الزواج

---

(١) الأنعام ١٥٢.
(٢) الطلاق ٢.

من الثانية لهدف غير شريف يسعى إليه، فإذا قضى له تنكر لها، وأهمل حقهــا، الذى كفله الشرع، ولذلك كان العدل بين الزوجتين أو الزوجات تشريعا إســلاميا حكيما، يراعى جميع الحقوق لسائر الأطراف، دون محاباة لطرف على حســاب الآخر، فإذا استشعر الزوج فى نفسه عدم الاستطاعة على العدل بين الزوجــات فى المسائل المادية المتاحة ، فعليه أن يحيا فى ظلال واحــدة يســتطيع العــدل والإنصاف معها، أما النواحى الباطنية والميول القلبية نحو واحــدة دون أخــرى فليس الزوج مسئولا مسئولية كاملة عما لا يقدر على التحكم فيه والتمسك به، قال تعــالى: ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ ﴾[1] فلا هى متزوجة، فتشعر بالأمان مع الــزوج، ولا هــى مطلقة، فتنتظر أن يطرق بابها رجل جديد، تحيا معه حياة جديدة.

٣ ـ العدل بين الأبناء :

إن من أخطر السلوكيات الاجتماعية اتجاه كثير من الآباء والأمهات إلــى التفريق بين أبنائهم، فيحب ولى الأمر واحدا منهم دون آخر، أو يهب من يحبــه أشياء من ماله وممتلكاته مكافأة له عن السلوك الحســن، أو المــنهج الصــحيح المتبع؛ أو لأنه ناجح متفوق، وما إلى ذلك، معتقدا أن هذا العطاء أو الهبة صحيح لا غبار عليه، ولو أنه اكتفى بموقف أو موقفين يشحذ بهما الهمم، لكــان الأمــر مقبولا ومحتملا، لكن المؤسف أن هذا السلوك يصير منهجا لــه طــوال حياتــه فيزرع الكراهية بين الأبناء، وهو لا يدرى ولا يبالى بخطورة هــذا التصــرف الخطير، أو يبالغ فى حب الولد ويمتهن الأنثى، وكأنها مسئولة عن تحديد نوعها، وما شابه ذلك من السلوكيات المرفوضة دينيا واجتماعيا وتربويا.

فعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ،فقال : "إنى نحلت هذا غلاما كان لى".

---

(١) النساء ١٢٩ .

فقال رسول الله ﷺ : "أفعلت هذا بولدك كلهم" فقال: "لا".

قال: "اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم" فرجع أبى فرد تلك الصفقة[١] .

وللحديث روايات أخرى تؤكد بمجموعها حتمية العدل المطلق بين الأبناء فى كل شىء.

والعدل: خلق قرآنى حميد يشمل سائر نواحى الحياة كالعدل فى البيع والشراء بأية وسيلة من الوسائل بلا غش أو خداع.

كما يشمل النواحى المعنوية التى سبقت الإشارة إليها، وينصرف العدل فى أهم استعمالاته ومدلولاته إلى العدل فى الحكم بين الناس والمساواة بينهم .

وقد نهى الشرع الإسلامى عن الظلم، خاصة إذا لحق بالضعفاء كالمرأة والطفل والمريض واليتيم والفقير والمعاق بأية صورة، إذ ليس لهم من القوة ما يدافعون بها عن أنفسهم، فيحتاجون لغيرهم، الذى ينبغى أن يكون منصفا عادلا، قال الشاعر:

لا تَظلمَنّ إذا ما كنتَ مقتدرا ∴ فالظلمُ ترجع عقباه إلى الندم

تنامُ عيناك والمظلومُ منتبه ∴ يدعو عليك وعينُ الله لم تَنَمِ

وهكذا قدم الإسلام فى دستوره القرآنى ومنهاجه النبوى رسالة واضحة المعالم لكل الناس، منذ عصر البعثة النبوية حتى الآن؛ تأكيدا وإنارة للمنهج الإسلامى وحضارته وأسلوب خطابه ودعوته، وصلاحيته للتطبيق، وتأسيسه لأول دولة فى العالم تقوم على العدل المطلق، والمساواة بين البشر، ورفض الظلم فى شتى صورة وأشكاله.

---

(١) متفق عليه .

٦ ـ الرحمة

تتميز رسالة الإسلام بأنها رسالة اجتماعية،غير قاصـرة علـى مكـان أو زمان، أو جنس أو نوع دون آخر،إذ أنها تصل الخلق بالـدين،والعبادة بالحيـاة، وترتب محبة الله للناس على محبة الإنسان لغيره، فهي في جملتهـا وفروعهـا تهدف إلى تحقيق حياة طيبة للناس جميعا، يحيون فيها على المودة والرحمـة ، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

والرحمة كلمة تدل على الرقة والعطف والإحسان، وهي تشـمل جوانـب كثيرة من الحياة، وتأتي في القرآن الكريم واضحة مباشرة، كما تأتي بلفظ لـين الجانب والإحسان، وخفض الجناح، وأن لها مواطن كثيرة تشمل علاقة الإنسـان بالآخرين ، كالأبوين، والأولاد، والزوجات، والأقارب، وذوي الأرحام وسـائر الضعفاء، وتصل إلى رفق الإنسان بالحيوان والطيور وسائر الدواب، فهي خلق إسلامي، وسلوك إيجابي، يتناول جوانب واسعة من الحياة.

الله: رحمن رحيم.

ترجع هاتان الصفتان إلى معنى واحد أو متقارب، وقيل إن الأولى خاصة بالله تعالى، والثانية يشترك فيها معه الناس.

وقد شرح الدكتور/ أحمد الشرباصي معنى الكلمتين والفرق بينهما فقـال: "وبعض العلماء يرى أن كلمة (الرحمن) تفيد معنى الرحمة الشاملة، التي تشـمل المؤمنين وغيرهم، وأن كلمة (الرحيم) تفيد معنـى الرحمـة المقصـورة علـى المؤمنين، ولذلك يقال: الله تعالى رحمن الدنيا رحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين، وعلى هـذا قـال

---

(١) الحجرات/ ١٣ .

القرآن المجيد : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيها على أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين، وأنها فى الآخرة مختصة بالمؤمنين(١).

وذكر القرآن الكريم اقتراب رحمة الله من المحسنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٤) فالله يرحم عباده بالمغفرة والثواب العظيم، فقد وسع كل شىء رحمة وعلما، وسبقت رحمته غضبه، وجعل الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(٥)

وكتاب الله رحمة، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

وجنة الله رحمة: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٧).

٢- الرسول صلى الله عليه وسلم رحيم بأمته :

لقد خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله، فقال له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٨).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٩)، فكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن للدكتور/ أحمد الشرباصى جـ١ صـ١٢٥ .
(٢) الأعراف/ ٥٦ .
(٣) الأنعام/ ١٢ .
(٤) الأنعام/ ٥٤ .
(٥) المؤمنون/ ١١٨ .
(٦) الإسراء/ ٨٢ .
(٧) آل عمران / ١٠٧ .
(٨) الأنبياء/ ١٠٧ .
(٩) التوبة/ ١٢٨ .

رحمة من عند الله، وشفاعة من قبل الحق، وتعلم من ربه كيف يعالج أمة عاشت بين الظلم والقسوة، وعارضت الدعوة بالغدر والخيانـــة ، ولكنـــه اتبـــع معهـــم الأسلوب الهادئ والرفق واللين، والموعظة الحسنة، وهذا ما خاطبه به القـــرآن الكريم فى قـــول الله تعـــالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١) .

ويصف القرآن الكريم رحمة الرسول وأصحابه، فيقـــول: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٢) .

وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "من أحب أن يبسط لـــه فـــى رزقه، وينسأ له فى أثره، فليصل رحمه"(٣).

٣ـ الرحمة بين الناس:

الرحمة: خلق إسلامى، ومبدأ إنسانى، وغريزة فطر الله الكائنات عليهـــا، فإذا ضعفت مظاهرها، أو تجرد بعض الناس منها، فلابد أن خللا أصابهم وأثـــر فيهم، لأن طبيعة هذه الصفة تقتضى أن تتواصل بينهم، وتحكم علاقـــة بعضـــهم ببعض، وأول مقتضياتها ومناط الوجوب فيها أن تظلل الروابط الأسرية فيما بين الفرد وأبويه، وزوجته وأولاده وأقاربه وسائر الضعفاء الـــذين يعجـــزون عـــن مواجهة الآخرين، وتفتر قواهم عند التصدى لهم، فتؤثر القسوة فيهم تأثيرا سيئا، فقال عليه الصلاة والسلام: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء"(٤).

---

(١) آل عمران/ ١٥٩ .
(٢) الفتح/ ٢٩ .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه أبوداود والترمذى.

وقال عليه الصلاة والسلام: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس"[١] وما أخطر الذين يعقون آباءهم، ويسيئون إلى أصحاب الفضل عليهم، وقد خاطب القرآن الأبناء، وأوصاهم بضرورة تقدير الآباء والأمهات وعمل المعروف لهم، وتقديرهم وإطاعة أوامرهم، وعدم التلفظ معهم بكلام جارح، أو غير ملائم، ككلمة (أف) التى تعتبر شيئا هينا فى معيار العلاقة بين الآباء والأبناء، فحذر القرآن من المخاطبة بها ــ أو بما فى مستواها ــ من الابن لأبويه ، قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾[٢] .

٤ـ صلة الرحم:

تطلق الرحم ويراد بها العلاقة التى تربط الإنسان بأقاربه من النساء اللائى يحتجن إلى من يدافع عنهن، ويصلهن بالبر والنفقة والكلمة الطيبة، والعلاقة الحميمة المباركة، وقد صور الحديث القدسى المشهور حقوق ذوات الأرحام فى العلاقة الطيبة، وحذر بسوء العاقبة من يقطع هذه الصلة، ولا يرعى الله فيها .

فروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك، ثم قال رسول الله ﷺ اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ ﴾[٣] .

فعناية الإسلام بصلة الرحم عريقة أصيلة تمتد فى عمق التاريخ؛ لتصل إلى مبدأ الخلق، عندما فرغ رب العالمين من خلق العباد، فقامت الرحم؛ لتقول: "هذا مقام العائذ بك من القطيعة"، قامت تطلب حماية البشرية من القطيعة؛ لتستمر

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) الإسراء/ ٢٤ .
(٣) محمد/ ٢١ ، ٢٢ والحديث متفق عليه .

رسالة البشر على الأرض، إذ لابد للإنسان أن يتصور الرحم، وهى تطلب الحماية من الله، وعند ذلك يجب أن يراجع نفسه أمام كل تصرف يمكن أن ينشأ، فيفسد العلاقة بين الإنسان وذوى قرباه ممن يطلق عليهم ذوات الأرحام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾[1] .

إن الحديث القدسى المذكور بما يتبعه من الآية القرآنية يؤكد حتمية صلة الرحم، وخطورة قطعها؛ للحرص على تأكيد العلاقة بين أفراد المجتمع رجالا ونساء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ إما أن يكون من الولاية، فالحديث بذلك موجه إلى ولاة الأمر الذين يفسدون فى الأرض، بالقسوة والظلم، والتكالب على الدنيا ،والتناحر على الولاية، وتمزيق الرحم الإنسانية.

أو أن يكون المعنى هو الإعراض عن الشيء والتولى عنه أى توليتم عن الطاعة، وابتعدتم عن الإيمان، ونهضتم بتمزيق العلاقات، وسفك الدماء، ومعاداة الأقارب .

ولا ينبغى أن يصل الإنسان رحمه، طمعا فيما عندهم، أو أن يكون ذلك مجرد مكافأة لهم عن أفعال حميدة قاموا بها، كما لا يراد بهذه الصلة أن تتحول إلى عصبية حمقاء، جائرة يعين الإنسان فيها أقاربه على الباطل، ولكن الصلة الصحيحة تكون فى الحق، خالصة لوجه الله ومبرأة من الأغراض.

٥ ـ الرحمة بالحيوان:

لقد أمر الإسلام بالرفق بالحيوان وعدم إيذائه، ونهى عن التحرش بين البهائم، وعدم حبسها بدون داع، وقتلها بالجوع، فقد روى ابن عمر رضى الله

---

(١) النساء/ ١ .

عنهما عن النبى قال: "دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"[١]٠

وقال ﷺ : "إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"[٢]٠

ويكون إحسان القتل للحيوان بعدم حرقه، وعدم قتله بالجوع، وعدم التمثيل به، أما إحسان الذبح فيكون بسقى الحيوان، وحد السكين، وإبعادها عن نظره، والتكبير عند الذبح٠

فالرحمة خلق إسلامى، واتجاه إنسانى، وصفة لله ولرسوله، ومبدأ عام ينبغى الحرص عليه، والتعامل به بمنطق القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف٠

(١) البخارى ومسلم والخَشاش : بكسر الخاء وفتحها : حشرات الأرض ٠
(٢) رواه مسلم٠

٧ ـ النصيحة

صارت الكلمة فى العصر الحديث ذات أبعاد تأثيرية كبيرة، فقد أصبح العالم مثل القرية الصغيرة التى يعرف كل فرد فيها ما يدور من وقائع وأحداث، ولهذا عظم دور الكلمة، وزاد تأثيرها على الأفراد والجماعات، فكم من بيوت انفصمت عراها بسبب كلمة، وكم من حروب نشبت بين بلدان بسبب كلمة، وكم من نيران بين الناس خمدت وأطفئت بسبب كلمة، ولهذا وضع الإسلام للكلمة معايير ثابتة ينبغى الحفاظ عليها، والتمسك بها مع اختلاف الزمن، وطول العهد ببدايات الدعوة المحمدية.

إن الكلمة الصادقة تؤدى إلى مزيد من الثقة فى قائلها، وتفيد المتلقى لها بما يجعله يستثمر ثقة الآخرين وتجربتهم فى الحياة، وصرنا نشهد الآن العديد من مكاتب الخبرة والاستشارة والتحقيق والإنابة عن الأشخاص والشعوب، كما أن الإنسان لا يفقد الحاجة إلى من يستفيد به فيستمع إلى مشورته ونصيحته .

والدين الإسلامى فى منهاجه الشامل يقدر قيمة الكلمة ويؤكد أهمية النصيحة والتشاور بين الناس فى ظلال القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وأن النصح مهم جدا، وهو جزء من اهتمامات الإنسان وعنايته بالحياة، التى لا تخرج عن المنهج الذى يعد أساسا للتطبيق الصحيح .

وقد قال رسول الله ﷺ فى هذا الموضوع حديثا مشهورا سنفهم منه أن الإخلاص فى النصيحة من تمام الدين بل يكاد أن يكون الدين كله الذى يتركز فى النصح الصادق الأمين ، أما الحديث فقد رواه أبو رقية تميم بن أوس الدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال: "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، وللأئمة المسلمين وعامتهم"[١].

---

(١) رواه مسلم .

والنصيحة فى الشرع هى: إخلاص النية من الغش للمنصوح لـــه، وذلـــك بتحرى الفصل أو القول الذى فيه صلاح ومنفعة لصاحبه، وهى خلـــق طيـــب، واتجاه محمود، وسلوك إيجابى مفيد، ينهض به كل من اتصل بالله، وعمر قلبـــه بالإيمان، فيحرص على تحقيق المنفعة للآخرين بمثل حرصه على تحقيقها لنفسه، ولهذا كان الإخلاص فى النصح انتصارا على داء الأنانية البغيض، فعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[١].

وتكون النصيحة لله بإخلاص العبادة له، والقيـــام بطاعتـــه، والاعتـــراف بنعمه، مع ترك الإلحاد القديم المتمثل فى الإشراك بالله أو الإلحاد الجديد المتمثل فى عبادة الإنسان لنفسه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٢] .

والنصيحة لكتابه كيف تكون؟

المقصود بالكتاب هو القرآن الكريم، أو كل الكتب المنزلة التى لم يلحق بها تحريف، وسبقت القرآن فى النزول، وتكون النصيحة للقرآن بالعمل بما جاء فيه، والاعتقاد بمواعظه، وهديه، والمحافظة عليه وتلاوته حق التلاوة، وتوجيه الناس إليه؛ حتى يلتزموا به ويدافعوا عنه، ويقاوموا من يهاجمونه، للنيل منه، مـــع أن الله تعهد بحفظه وصيانته ونشره وإذاعته، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٣].

والنصيحة لرسول الله تكون بحسن الاقتداء به، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإحياء سنته بين الناس، ومداومة العمل بها، ومقاومة أى تحريف لها، ودراسة سيرته، وتعليمها لمن يجهلها، وتسهيلها لغير الناطقين باللغة العربية، قال

(١) متفق عليه .
(٢) الجاثية ٢٣ .
(٣) الحجر / ٩ .

تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١].

أما النصيحة لأئمة المسلمين فتكون بطاعتهم لغير معصية الله ومعاونتهم على الحق ، وإسداء النصيحة لهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٢].

وتمثل النصيحة لحكام المسلمين ونوابهم وقيادات الدعوة أهمية كبيرة بسبب تعدد منافذ القول والنشر على الناس، واقتحام الكثيرين لمجالات الفكر الإسلامى بما يحملون من زاد ثقافى قليل، أو يملكون نية سيئة للهجوم على الدين، وتقليل أهميته، وتحجيم دوره، وإقصائه وعزله عن شئون الحياة.

وفى الحديث الشريف عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال: "ما بعث الله من نبى، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى"[٣].

والنصح لعامة المسلمين يكون بإرشادهم إلى مصالحهم بالقول والفعل، والإخلاص لهم، والعفو عن المسيئ منهم، والتلطف معهم، ودفع الضرر عنهم، وأمرهم بالمعروف، وتوجيههم إليه، ونهيهم عن المنكر، وحجبهم عنه، وأن يحب الإنسان لهم مثل ما يحب لنفسه، وعدم التفريق بينهم فى المعاملة، وأن يكون معيار التقرب منهم هو تقوى الله، فعن جرير بن عبدالله ﷺ قال: "بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم"[٤].

---

(١) الأحزاب/ ٢١ .
(٢) النساء / ٥٩ .
(٣) رواه البخارى والنسائى .
(٤) متفق عليه .

وينبغى أن يكون الناصح صادقا مخلصا، ولطيفا مهذبا، وأن يقدم نصيحته بطريقة محببة، وغير منفرة، فعن أبى إسحاق السبيعى قال: "دخلت امرأة عثمان ابن مظعون على نساء النبى ﷺ سيئة الهيئة فى أخلاق[١] لها، فقلن لهـا مالـك؟ فقالت: أما الليل فقائم، وأما النهار فصائم، فأخبر النبى ﷺ بقولها، فلقى عثمان بن مظعون، فلامه. فقال : "أما لك بى أسوة" قال: بلى، جعلنى الله فـداك، فجـاءت بعد، حسنة الهيئة، طيبة الريح"[٢].

وهكذا تغيرت صورة المرأة بعد أن استمع زوجها لنصح الرسول، وهديه المبارك ، ولذا فقد حزنت عليه ـ عند وفاته ـ حزنا طاغيا شديدا .

إن بعض الناس يتساءلون فى حيرة عمن ينصح غيره بـأمر، ولا يعمـل بمقتضاه، فيفتقد كلامه التأثير وتحقيق الهدف مما يوجب أن يكون الشخص قدوة طيبة لغيره ما دامت لديه القدرة على النصح والإرشاد، فى ضوء قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[٣].

ويجدر بالمسلم أن يعمل بما ينصح به ما دام ذلك فى مصلحته، حتى لـو كانت النصيحة من شخص لا يطبق ما نصح به ، إذ أن بعض الناس يجيـدون توجيه النصائح، وتعجز قدراتهم عن تنفيذ ما ينادون به، وقد تحدث القرآن الكريم عن طائفة من هؤلاء فقال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٤].

---

(١) خلق الثوب بلى: ومنه الفعل أخلق فى الدلالة على المعنى .
(٢) حلية الأولياء جـ١ صـ١٠٦ .
(٣) الصف ٢، ٣ .
(٤) التوبة ٩١ .

وقال القرآن الكريم على لسان من أخلص النصـيحة لنبـي الله موسـى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (١).

وقال القرآن الكريم على لسان إخوة يوسف: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ (٢).

ونبه المولى تبارك وتعالى إلى إيراد النصيحة على ألسنة بعض الأنبيـاء إلى أقوامهم: منهم صالح الذى ذكر القرآن نصيحته لقومه فقال تعـالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (٣).

إن إسداء النصيحة جزء مهم من رسالة الإسلام، ودعوتـه الشـاملة فـي المحبة والتعاطف، ومعاونة الآخرين، وتوجيههم إلى عمل الخير، ونبذ المنكـر والاقتداء بالرسول ﷺ .

---

(١) القصص ٢٠ .
(٢) يوسف ١١ .
(٣) الأعراف ٧٩ .

٨ ـ الشكر

الشكر كما عرفه الراغب الأصبهانى: هو تصور النعمة وإظهارها، وضده: الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها، وتصور الشكر يكون بمقابلة النعمة بالفعل والقول والنية، والشكر الكامل: ما كان بالقلب واللسان والعمل، ويدخل تحته معنى الرضا .

وتجاهل الشكر لله؛ نسيان أو غفلة عن ذكر الله تعالى، مما يقرب الإنسان من ضعف الإقرار بالله، أو تجاهله ونكرانه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾(١) .

وشكر الله يعدل الإيمان به، وقرينه، أو مكمل له يرقى به المؤمن مزيدا من الدرجات فى طريق العارفين لله، المخلصين فى التقرب منه، الأوفياء للعباد، ويكون الشكر على نعم الله التى اختص بها عباده، فإذا ما أدركوها وتعرفوا عليها، واستشعروا عظمة الله فيها، فإنه من كمال الإيمان أن يتوجهوا بشكر الله عليها، ولذلك جاءت جملة : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ــ فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة مسبوقة بذكر نعم الله وآلائه وأفضاله، مثل العفو، والبعث، وتكبير الله، وتقوى الله، وإتمام النعمة قال تعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٤) .

---

(١) إبراهيم ٧ .
(٢) البقرة ٥٢ .
(٣) آل عمران ١٢٣ .
(٤) الأنفال ٢٦ .

كما أن من نعم الله سبحانه وتعالى التى لا تحصى: السمع والأبصار والأفئدة ، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

إن كل مؤمن موحد بالله يستشعر وجود الله فى بياض نهاره وسواد ليله لابد أنه قد نظر حوله، ولمس ما فى مكونات جسمه، مما يجعل وصاله بالله وبالخلق فى أتم صورة، وأجمل منظر، ثم أدرك ببصره وبصيرته نعم الله عزوجل على الخلق وسائر الكائنات، وكلما كرر المؤمن هذه النظرات الفاحصة ازداد إقبالا على الله، وتعمقا فى معرفته، وقد يقضى زمنه كله فى اتصال دائم به سبحانه وتعالى.

إذن كلما اتصلنا بالله ازددنا حبا له، وكثر حبه لنا وإنعامه علينا، أليس هو القائل : ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾، فنحن عندما نشكر الله، ونعترف بنعمه سوف ينعكس هذا الشكر علينا، ويمتد أثره الطيب لنا ، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾(٢).

ونحن نشكر الله ونبوح له بما فى أعماقنا، ونتوجه إليه بالثناء عند النعمة، وهى كل نافع مفيد فى الدنيا والآخرة، لكن النعمة الحقيقية هى توفيق الإنسان فى الوصول إلى مفاتيح السعادة الأخروية؛ لأنها الأبقى، وإذا عرف الإنسان الطريق الحقيقى للوصول إلى الله فقد وصل إلى الغاية فى تحقيق هذه السعادة، التى ينبغى لكل مسلم أن ينشدها ويتحراها، ويسعى إليها، لكن الناس غافلون، وينسون فى ظلال النعم الميسرة لهم شكر الله، وربما يفيقون من غفوتهم بعد زمن كبير من الغفلة والتيه والضلال، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾(٣).

---

(١) النحل ٧٨ .
(٢) النمل ٤٠ .
(٣) البقرة ٢٤٣، يوسف ٣٨ .

وشكر الله على النعم ليس منفيا عن سائر الخلق، بل إنه حاصل فى مقام الكثيرين، ومنهم الخاصة الذين يتنبهون لحق الله على العباد، جزاء ما أنعم عليهم، مثل دعاء سيدنا سليمان فى طلبه الإلهام والتوفيق من الله أن يشكره على ما أسداه إليه، وعلى والديه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ[١] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٢].

والشكر كما يكون لله سبحانه وتعالى يكون لعباد الله الذين صنعوا معروفا، حتى لو كان كلمة بسيطة، مثل النصيحة فإنها كثيرة النفع، عظيمة الأجر قال ﷺ: "من صنع لكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئون به فادعوا له؛ حتى تروا أنكم قد كافأتموه"[٣] .

وقال ﷺ : "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"[٤].

ويرقى شكر العباد إلى درجة من السمو يكون اسم الله حاضرا فيها، وغير مغيب عنها، وذلك ما تجلى بصورة واضحة مباشرة فى حديث رسول الله ﷺ وهو: "من صنع له معروف، فقال لفاعله، جزاك الله خيرا، فقد أبلغ الثناء"[٥].

وقد تحدث حجة الإسلام أبو حامد الغزالى عن النعمة التى يكون الشكر عليها، وتوسع فى بيان معانيها وأقسامها ودرجاتها؛ لأن نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، أما النعم التى يكون الحديث عنها — فى ضوء ذلك — فهى الأمور الكلية التى تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم، وذكر حقيقة

---

(١) أوزعنى : أى ألهمنى .

(٢) النمل ١٩ .

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما والنسائى بنحوه ، وصححه الالبانى فى صحيح سنن النسائى (٢٤٠٧) وهو فى الصحيحة (٢٥٤) .

(٤) فى (أحياء علوم الدين) كتاب الزكاة.

(٥) رواه الترمذي من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما ،وقال : هذا حديث حسن جيد وقال محقق جامع الأصول (٢/٥٥٨) إسناده قوى.

النعمة فقال: "اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة، إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشىء صدقا ، ولكن يكون اطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة، ويعين عليها، إما بواسطة واحدة، أو بوسائط ،فإن تسميته نعمة صحيحة، وصدق لأجل أن يفضى إلى النعمة الحقيقية، والأسباب المعينة"[١].

وقال: "اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هى: غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هى مطلوبة لأجل الغاية، أما الغاية فإنها سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهى النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ : "لا عيش إلا عيش الآخرة"[٢] قاله الرسول عند حفر الخندق، "وقال رجل: اللهم إنى أسألك تمام النعمة، فقال النبى ﷺ : وهل تعلم ما تمام النعمة؟ قال: لا ، قال: تمام النعمة: دخول الجنة"[٣].

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص، كفضائل النفس، وإلى ما يليه فى القرب، كفضائل البدن، وهو الثانى، وإلى ما يليه فى القرب، ويجاوز إلى غير البدن، كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة[٤].

ونذكر أن كثيرا من النعم التى يتوج بها الإنسان، ويعيش فى كنفها، ثم ينساها ــ للأسف الشديد ويغفل عنها ــ كثيرة جدا، ومنها نعمة الصحة التى لا يتذكرها الإنسان إلا فى ساعة المرض، ومن ذلك الكثيرون؛ حيث يرفعون أيديهم

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٩٦، ٩٧ .
(٢) متفق عليه من حديث أنس .
(٣) رواه الترمذى من حديث معاذ، بسند حسن .
(٤) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ١٠٠ .

إلى السماء فى أزماتهم ومعاناتهم من المرض قائلين: يا رب .. يا رب، مع أن الله موجود، ودائم الوجود، فى زمن القوة، وفى حالات المرض، والاقتراب منه، والعيش فى كنفه يجعل الإنسان عند الإصابة بالمكروه صابرا قويا، ثابت النفس فلا يبدو ضعيفا منهزما قال رسول الله ﷺ : "من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه، ، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"(١).

وما على البشر إلا أن يتوجهوا إلى الله بالشكر على الصحة، وعلى الابتلاء.

ونأتى إلى المال الذى تحدث عنه صاحب إحياء علوم الدين فقال: "أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال، وليس له كفاية، كساعٍ إلى الهَيْجَا بغير سلاح، وكبازى يروم الصيد بلا جناح، ولذلك، قال صلى الله عليه وسلم : "نعم المال الصالح للرجل الصالح"(٢).

وقال ﷺ : "نعم العون على تقوى الله ، المال"(٣).

وكيف لا ، ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات، وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر، ولا تندفع إلا بسلاح المال، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات(٤).

والمال فى حد ذاته من النعم التى يحرص الإنسان على اقتنائها وتملكها، وقد ذكره الله سبحانه وتعالى مع البنين فى الحكم عليه بأنه زينة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٥).

---

(١) رواه الترمذى وقال : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة(٢٣١٨) .

(٢) رواه أحمد وأبويعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد.

(٣) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وابوالقاسم البغوى [مرسلا].

(٤) السابق جـ٤ صـ١٠١ .

(٥) الكهف ٤٦ .

وعلى المسلم أن يحسن توظيف الأموال التى يملكها؛ حتى لا تكون مبعث هم وغم وقلق فى الدنيا، وسببا للعذاب المقيم فى الآخرة؛ لأن عباد المال يسجنون أنفسهم فى نطاق أموالهم وممتلكاتهم، وهى أفظع سجن؛ لما يحوطه من هموم مترتبة عليه.

ومن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده: أولاد الرجل وأقاربه، فهم يعينونه على ضرورات الحياة وعلى عبادة الله، كما أنهم يكونون مصدر نقمة إذا انحرفوا عن الجادة، واغتروا بما يشغلهم عن طاعة الله وحسن عبادته، كما أنه من الحماقة أن يغتر الإنسان بأولاده، أو أن يوجههم إلى الشر والمكروه، ناسيا أنهم نعمة وهبة من الله يستحق الشكر عليها، فلذلك يجب عليه أن يستحضر قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٢).

كما أن من نعم الله فى الدنيا الزوجة الصالحة التى يجب على كل مسلم رزق بها أن يقترب إلى الله وأن يشكره ويثنى عليه قال ﷺ : "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزوجل خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله"(٣).

لكن الجوانب السيئة التى ينبغى الحذر منها؛ لأنها تصرف عن شكر الله: الأولاد والزوجة فقد يكون بعضهم جديرا بأن يؤخذ منه الحذر إعمالا وامتثالا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) .

---

(١) التغابن ١٥ .
(٢) الأنفال ٢٨ .
(٣) رواه ابن ماجة عن أبى أمامة رضى الله عنه ، بسند ضعيف ، وله شواهد تقويه.
(٤) التغابن ١٤ .

كما أن من النعم التى يجدر بالإنسان أن يشكر ربه عليها طول العمر مـــع طاعة الله، وجمال البدن، والجاه، والنسب وغيرها ٠

والشكر صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، وهو خلق من أخلاق القرآن الكريم، وصفة من الصفات ذات الاعتبار والتقدير فى الإسلام ، قـــال تعـــالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[(١)]٠

كما أن الشكر صفة اتصف بها أنبياء الله سبحانه وتعالى، ومـــنهم ســـيدنا محمد ﷺ حيث يشكرون الله عزوجل على نعمه فى السراء والضراء، وفى النعمة والابتلاء٠

إن الشكر الحقيقى الذى ينبع من أعماق الإنسان ليس أمرا سهلا، بل هـــو صعب المنال، يحتاج إلى صبر على الهموم، وقرب من الله ســـبحانه وتعـــالى، خاصة فى مجال النعم المحسوسة التى توهب للإنسان، ويستفيد بهـــا ، لكنـــه لا يشكر الله عليها، قال عز من قائل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[(٢)]٠

وقد تحدث الإمام أبوحامد الغزالى عن الأسباب الصارفة للخلق عن الشكر فذكر ما يأتى : "اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلـــة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمـــة إلا بعـــد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمـــد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمـــة التى أريدت بها، وهى طاعة الله عزوجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة، واستيلاء الشيطان"[(٣)]٠

إن الشكر الحقيقى والإقبال على الله بالثناء، والصبر على البلاء، يســـتتبعه بوعد الله سبحانه وتعالى تحقيق المزيد من النعمة، ولكن الله ســـبحانه وتعـــالى

---

(١) النساء ١٤٧ ٠
(٢) سبأ ١٣ ٠
(٣) إحياء علوم الدين جـــ٤ صـــ١٢٠ ٠

استثنى من ذلك خمسة أشياء، وهى كما قال الغزالى، واقتبسها منه الدكتور/ أحمد الشرباصى:

الإغناء، والإجابة، والرزق، والمغفرة، والتوبة.

وقد تحدث الدكتور الشرباصى عن المواطن التى توحى بروح الحث على خلق الشكر والدعوة إليه مع التنبيه على أنه مقتضى الإدراك الواعى، والتقــدير البصير للأشياء، والإحساس بقيمة النعم والآلاء[١].

ونظرا ، لأن شكر الله سبحانه وتعالى يمتد إلى جوانب رحبة مما أنعم الله به سبحانه وتعالى على عباده ،فلذلك صار الشكر مطلوبا على نقيض ضده، وهو الكفر أعاذنا الله منه، فقال شيخنا الشرباصى عليه رحمة الله:

"ولأن الشكر مطلوب من الله تعالى بهذه الصورة أوصى النبى ﷺ معــاذ ابن جبل فقال له : "لا تنس أن تقول فى دبر كل صلاة: "اللهم أعنى على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك"[٢] .

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده المخلصين، وخلقه الشاكرين إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) انظر موسوعة أخلاق القرآن جــ١ صــ١١٥ .
(٢) انظر السابق صــ١١٤ .

٩ ـ العودة إلى الله بالتوبة الصادقة

لقد عرفت البشرية منذ بداية الخلق الاستقامة والاعتدال، وعرفت أيضا الخطأ والضلال، ولا تقتصر هذه المعرفة على الإنس، بل تشمل الجن الذين ينقسمون فى ضوء الاعتدال والاستقامة إلى مؤمنين عارفين لله، وإلى ظالمين متجاوزين لحدوده ، قال تعالى:﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[1].

ولا يقتصر التقسيم من حيث المنزلة والمكانة على الإنس والجن والطير، فنشهد فى عالم الجماد أحجارا تمثل قيمة إيمانية، ومنزلة رفيعة مثل الحجر الأسود الذى يقبله ، ويتزاحم على تقبيله المسلمون من شتى بقاع الأرض ، مع أنهم عارفون ومتأكدون أنه لا يضر ولا ينفع ، ولكن قيمته انسحبت إليه من تاريخه المجيد الذى أقره الإسلام، كما نرى حجرا آخر يرجمه التائبون العابدون، ويتزاحمون على إهانته؛ لأنه يمثل التمرد والعصيان والإضلال.

وفى مقام الخليقة الإنسانية اتجهت غرائز الجنس البشرى إلى اقتراف بعض الألوان من الغواية والانحراف ، فانساق آدم وحواء إلى عصيان الله تعالى، وأكلا من الشجرة ، فأخرجا من الجنة قال تعالى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [2]، وانحرف (قابيل) عن الجادة، فقتل أخاه، واقترف ــ لأول مرة ــ على الأرض تلك الجناية البشعة، التى ذكرها القرآن الكريم للعبرة والعظة فقال : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [3] .

---

(١) الجن / ١١ .
(٢) طه / ١٢١ .
(٣) المائدة / ٢٧ .

وتبقى قضية المنهج الإيمانى بين الالتزام به، والخروج عليه مطروحة على مرأى من التاريخ ومسامعه ، ويمتحن من خلال ذلك المنهج كثير من الرسل والأنبياء، فيضطرون أمام مشقة الدعوة، ومسئولية الرسالة وحكمة التشريع أن يأتوا بأفعال وأقوال تصل فى أقصى مداها إلى القتل، الذى قام به موسى عليه السلام، فى موقف أفاضت كتب التفسير والتاريخ فى بيان دوافعه وأسبابه، وتحدث القرآن عنه فى بعض الآيات ، فقال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ (١) .

وذكر القرآن أيضا بعض المواقف التى عوتب عليها رسولنا ﷺ ، ومنها ما ورد فى أول سورة التحريم ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢) ، وقد اختلف فى بيان سبب النزول للآيات الأولى من هذه السورة، وجاء فى بعض الأقوال أنها نزلت فى شأن مارية (المصرية) عندما حرمها الرسول على نفسه، وذكر ذلك لحفصة ، فأخبرت به عائشة، فأظهره الله عليه.

وعندما حضرت الوفاة أبا طالب رغب الرسول ﷺ فى إسلامه؛ لما بينهما من قرابة ومودة وصلات حميمة ، ولكن صدر أبى طالب لم يتفتح لتباشير الإسلام، وقد ذكر الإمام أحمد فيما رواه، قال : "لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ ، وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبى أمية، فقال: " أى عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عزوجل، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال: أنا على ملة عبدالمطلب، فقال النبى ﷺ : " لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" فنزلت : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

---

(١) القصص / ٣٣ .
(٢) التحريم / ١ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١) .

إن هذا الموقف بكل ما قيل فيه ينير أمامنا الطريق إلــى معرفــة الحــق سبحانه وتعالى ، ويذكرنا بأهمية الاستغفار والعودة إلى الله وحسن الظن به ، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ﴾ (٢) وكان النبى قد خرج على أصحابه وهم يضحكون ، فقال: أتضحكون وبين أيديكم النار، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : "يقول لك ربك: يا محمد، لا تقنط عبادى، فإنى غفور لذنوبهم، رحيم بهم"(٣).

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "يقول الله عزوجل : " أنــا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب منى شبرا تقربت إليــه ذراعا ،وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة"(٤)، والمعنى: أن من تقرب إلى الله بالطاعة تقرب الله منه بالرحمة والمغفرة .

والمعاصى التى يقترفها البشر لا ينبغى السكوت عليهــا، أو غلــق بــاب النقاش فيها، سواء اتصلت بحقوق الله أم بحقوق العباد، ولابد من الالتزام ببعض الشروط عند الرغبة فى التخلص من الذنوب ، خاصة إذا تحققت النية الصــادقة فى العودة إلى الله، والندم على التقصير، ومداومة الاستغفار، والعزم الأكيد على الاستمرار فى التوبة، ورفض الرجوع إلى الذنب، إلى غير ذلك مما يجب الوفاء به؛ لتحقيق التوبة النصوح .

---

(١) التوبة / ١١٣ ، وانظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٢٧٢ .
(٢) الحجر ٤٩، ٥٠ .
(٣) رواه ابن حبان .
(٤) رواه البخارى ومسلم .

إن واقع الحياة يفيض بأمثلة عديدة من النماذج البشرية التى انحرفت عن طريق الله المستقيم، وبالغت فى الضلال، وأيقنت أن طريق الهداية قد سد أمامها، ولذلك تستمر فى جحودها وغيها، إلى أن تسقط عن ضعف أو انكسار ، ثم تنفرج الأزمة وتحل المشكلة بالعودة إلى الله، وكم يكون عظيما ورائعا لو اتعظت تلك النفوس الضائعة بواقع الحياة، وأيقنت بكرم الله وسعة عفوه وحلمه.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١) .

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن رسول الله ﷺ حديث الذى قتل تسعة وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عباد بنى إسرائيل: هل له من توبة ؟ فقال: لا ، فقتله، وأكمل به مائة، ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة ؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها، فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عزوجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت ، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد"(٢).

وهذا معنى الحديث ، وليرجع من شاء إلى لفظه بالصحيحين ، فهو من الأحاديث المتفق عليها. والمقصود منه: بيان سعة عفو الله سبحانه وتعالى، وأنه يتجاوز عن أخطاء التائبين ما دامت نواياهم صادقة فى العودة إلى الله .

وقد وضح ذلك أيضا فى موقف أحد الراغبين فى التوبة عندما جاء إلى عبدالله بن مسعود وقال له: عملت ذنبا فهل من توبة؟ فأعرض عنه، ثم التفت

---

(١) الزمر / ٥٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٨ ، ٥٩ .

إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكا موكلا به، لا يغلق، فاعمل ولا تيأس"[(١)].

إن التوبة الصادقة ذات أثر كبير، ولها ثواب عظيم، وبها دلالة على سمو روح صاحبها ، واتصالها بخالقها، وأن الرجوع عن الـذنب الكبيـر والإقـرار بخطورته من أهم الخطوات فى ديمومة الطهر، ونقاء النفس، وعلـو الـروح، وصدق العزيمة، والقرب من الله ، وهى واجبة على الفور شرعا وعقلا ٠

عن عمران بن الحصين ﷺ أن امرأة من جهينة أتت رسـول الله وهـى حبلى من الزنى فقالت: يا رسول الله: أصبت حدا، فأقمه على، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال: "أحسن إليها، فإذا وضعت فأتنى بها" ففعل، فأمر نبى الله ﷺ فشـدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها. فقال له عمر: تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال:

" لقد تابت توبة لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهـل وجدت أفضل من جادت بنفسها لله عزوجل " [(٢)].

شروط التوبة :

يشترط للتوبة الصادقة الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فـات، والعـزم على عدم العودة إلى المعصية، ورد المظالم إلى أصحابها، وتتحقق باجتماع هذه الشروط التوبة النصوح التى ذكرها القرآن الكريم، وأمر بها رب العـالمين، إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ...﴾ [(٣)] .

ومن شروطها أيضا أن يكون المذنب قادرا على المعصية، لكن المسلم لو تاب مع عجز أو ضعف فإن الله ــ برحمته ــ يمكن أن يغفر له ، ويتجاوز عن إساءته ٠

---

(١) الإحياء جـ٤ صـ١٤ ٠
(٢) رواه مسلم وبعض أصحاب السنن ٠
(٣) التحريم / ٨ ٠

لكن التوبة مع المقدرة على ارتكاب الذنب أفضل من التوبة فى حال العجز والخور والضعف، فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"[(١)] .

والمعنى أن الله يقبل التوبة ما لم تبلغ الروح الحلقوم، وتتردد فيه ، ويصير الإنسان فى حالة لا تسمح له بفعل منكر ، أو ارتكاب إثم، أو ممارسة طغيان فى حق الخلق أو الخالق .

وقد ذكر القرآن الكريم أفضلية التعجيل بالتوبة، وخطورة تأخيرها إلى ساعة الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(٢)] .

والمعاصى التى يسعى المؤمن إلى التوبة منها والاعتذار عنها، إما أن تكون بين العبد وربه، وإما أن تكون بين العباد أنفسهم .

والنوع الأول (من المعاصى) يستلزم من الإنسان أن يسعى إلى التوبة منها بالندم والاستغفار وفعل الحسنات، وعدم الكذب على الله، وذلك بالعودة إلى الذنب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [(٣)] .

والنوع الثانى مظالم العباد ويتحقق كمال التوبة منها برد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها ، مهما كانت طبيعتها ومقاديرها وبحيث لا يتحول أى إجراء لذلك إلى فساد وطغيان .

---

(١) رواه ابن ماجة والترمذى وقال : حديث حسن .
(٢) النساء ١٧ ، ١٨ .
(٣) هود / ١١٤ .

ويسعى الإنسان الراغب فى الوفاق والتصالح إلى تقويم تصرفاته بميـزان الإسلام والاتعاظ بالماضى، والنظر إلى المستقبل ، وفعل الخيرات ، والثقة فـى الله، وقراءة القرآن ، والعمل بما جاء فيه، ومداومة الذكر والاستغفار، وعـدم اليأس عند الوقوع فى الخطأ مرة أو عدة مرات ما دام مخلصا وصادقا فى توبته، فعن أنس ﷺأن النبى ﷺ قال:"كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون"(١) .

وقال تعالى:﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢) والآية تدل على عموم التوبة التى تشمل الأشخاص والأحوال، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٣).

وقال إبراهيم بن أدهم : " واعلم أن العجلة من الشيطان إلا فـى خمسة أشياء فإنها من السنة : إطعام الضيف إذا دخل، وتجهيز الميت ، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب" (٤).

وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ (٥) .

وإذا تحققت التوبة لشخص فإن أمارات الإيمان والإخلاص تظهر عليه فى أقواله وأفعاله، وفى أصحابه وأهل بيته؛ حيث إن التوبة تجعل من الرجل إنسانا مختلفا، فبعد أن كان مقترفا للذنوب، مخطئا فى حق نفسه ، هاضما لحق غيره تراه كأنه خلق خلقا جديدا.

ولقد تحدث بعض الحكماء عن مظاهر التوبة، فقال: "تعرف توبة الرجـل بأربعة أشياء:

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجة والحاكم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .
(٢) النور ٣١ .
(٣) النساء ١١٠ .
(٤) من وصايا الرسول صـ٤٨٦ .
(٥) الشورى ٢٥ .

أولها : أن يمنع لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب ٠

والثانى: أن لا يرى فى قلبه حسدا ، ولا عداوة لأحد من الناس ٠

والثالث : أن يترك أصحاب السوء ولا يصاحب أحدا منهم ٠

والرابع : أن يكون مستعدا للموت نادما على الذنب، ومستغفرا لما سبق من ذنوبه، مجتهدا فى طاعات ربه" [١]٠

أما واجب المسلمين نحو العصاة التائبين فهو واجب ضخم يتجلى فى الأخذ بأيديهم ، وإنارة الطريق لهم، والعطف عليهم، والبر بهم، وإذا أحكمت السلطات القبض عليهم، فعلى المجتمع أن ينهض بدوره من خلال المساجد والجمعيات الخيرية، وأهل البر نحو أسرهم، حتى لا تقع فى مهاوى الإفك وبراثن الضلال، وتبقى توابع المسئولية على أولياء الأمر، والجهات المختصة برعاية أصحاب النفوس المذبذبة المتأرجحة بعد خروجها لمعترك الحياة، فيجعلون منهم أفرادا مهذبين، وأشخاصا تائبين، وأناسا عاملين مجتهدين ؛ ليعم الأمن والإيمان ٠

---

(١) درة الناصحين لعثمان الخوبرى صـ٤٠ ٠

١٠ ـ معالم الأمانة فى الأفعال والأقوال

الأمانة : إحساس نبيل، وصفة عظيمة ، وخلق إسلامى، وتكليف من الله لسائر الخلق، وجوهر العلاقة بين الناس، وشعور بالمسئولية، ويقظة فى الضمير، وهى تقترب فى شمولية معانيها من الأمن والإيمان، ولا تقتصر على المعنى القريب الذى يقصرها الناس عليه، وهو كل ما يجب حفظه وتأديته إلى أهله .

ولقد تحدث القرآن الكريم فى العديد من سوره وآياته عن هذه الصفة؛ لما لها من أهمية فى العبادات والمعاملات، وتأتى الأحاديث النبوية لتنير منها الصورة المثلى التى يجب أن يتصف بها الناس فى كل زمان ومكان .

ونفتح بصائرنا وأبصارنا على آية الأمانة فى سورة الأحزاب، وهى قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ (١) .

والأمانة : هى الطاعة، أو التكاليف، أو العقل، أو التوحيد، أو الفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب والعقاب ، أو هى الأعضاء مثل العين والبطن واللسان والأذن واليد والرجل وغيرها.

وقال القرطبى : " والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال"(٢) ولهذا جاز أن يكون المراد منها القرآن، أو الصلاة، أو الصوم، أو الزكاة، أو الحج ، أو سائر الأمانات مثل الأهل والأبناء وودائع الناس التى يودعونها عند غيرهم ، وهى صدق الحديث وعدم الزيادة فيه ، وهكذا يتسع معناها؛ ليشمل الأعمال والأقوال، والتكاليف التى فرضها الله على عباده، وكل

---

(١) الأحزاب / ٧٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٤ ص٢٥٣ .

أمور الدنيا بما فيها من أوامر ونواه، ولا تتعارض هذه المعانى، إذ تطلق الأمانة عليها منفردة أو مجتمعة .

فالمعنى الأول للأمانة فى الآية السابقة هو الطاعة، إذ عرضها الله على الجمادات المذكورة، قبل أن يعرضها على آدم عرض تخيير لا عرض إلزام ، فأبت، ولم تطقها، للإحساس بالعجز عن تحملها، وأما الإنسان — فى شخص آدم — فهو عاقل مكلف ليس كحال تلك الأجرام، فأخذها وتحملها، ولم يؤدها لظلمه وجهله .

والمعنى الثانى هو: التكاليف، على سبيل ضرب المثل، بمعنى أنها — أى التكاليف — لو عرضت على تلك الجمادات بما فيها لتخلصت جميعا من تبعاتها، لا عصيانا بل رهبة وإشفاقا ؛ وحول هذا المعنى قال الزمخشرى فى الكشاف : "إن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام، وأقواه، وأشده أن يتحمله ويستقل به فأبى حمله والاستقلال به، وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته (إنه كان ظلوما جهولا) حيث حمل الأمانة ، ثم لم يف بها، وضمنها، ثم خاس بضمانه فيها [١].

والحاصل أن الإنسان خان الأمانة، ولم ينهض بتبعاتها، ووصفه الله بالظلم؛ لتركه أداء الأمانة، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه، وهو الأداء.

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [٢] .

(١) الكشاف جـ٣ ص٢٧٧ .
(٢) النساء / ٥٨ .

والأمانات فى الآية تشمل حقوق الله عزوجل على عباده كالصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك، كما تشمل حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها٠

وجاء فى سبب نزول هذه الآية أنه "لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان ابن طلحة، فلما أتاه قال: أرنى المفتاح، فأتاه به، فلما بسط يده إليه، قام العباس فقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، اجمعه لى مع السقاية، فكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ : هات المفتاح يا عثمان، **فقال:** هاك أمانة الله ، فقام، ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح، فدعا عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح ثم قال:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ...﴾ حتى فرغ من الآية[١]٠

فالحفاظ على الأمانة وردها إلى أصحابها واجب دينى، وسلوك أخلاقى حميد، وشعور جميل تجاه الآخرين، وهذا ما أكده القرآن الكريم فى مواضع أخرى، منها: قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [٢] ، وقد جاء المعنى فى الآية مرتبطا بالحديث عن الرهن؛ لأن الحفاظ عليه، ورده إلى صاحبه ــ عند الوفاء بما يقابله ــ من أبرز المظاهر على صيانة الأمانة . كما وصف القرآن الكريم المؤمنين برعاية الأمانة ، وردها إلى أصحابها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [٣] ، وقال تعالى فى حق من يخونون الأمانة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٤] ٠

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى صـ٧١ ٠
(٢) البقرة / ٢٨٣ ٠
(٣) المؤمنون / ٨ ٠
(٤) الأنفال / ٢٧ ٠

وجاء فى بعض الأقوال أن هذه الآية : "أنزلت فى أبى لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة؛ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروه فى ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه ـ أى أنه الذبح ـ ثم فطن أبو لبابة ، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت، أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه فى سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال: "يجزيك الثلث أن تصدق به.." [1] .

ووصف الله جبريل بالأمانة فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [2] وتحدث عدد من رسل الله تعالى عن رسالاتهم إلى أقوامهم، وأماناتهم فقال القرآن الكريم على ألسنة (نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب): ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[3].

وذكر القرآن الكريم أمانة موسى عليه السلام منذ شبابه ، على لسان إحدى ابنتى شعيب : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[4].

وقال تعالى فى حق نبى الله يوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [5] وقال عن مكة المكرمة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾[6] .

---

(١) ابن كثير جـ٢ صـ٣٠٠ .
(٢) الشعراء / ١٩٣ .
(٣) الشعراء/ ١٠٧ وكذلك الآيات١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨ من السورة نفسها.
(٤) القصص / ٢٦ .
(٥) يوسف ٥٤ .
(٦) التين ١ ـ ٣ .

وعن أنس ﷺ قال : " ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: "لا إيمان لمـــن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" [١] .

فالأمانة خلة حميدة يتصف بها الأنبياء، ويحرص عليها الأتقياء، والتفريط فيها خيانة، خاصة فى المجالات التى تتعلق بحقوق العباد، كالتجارة ،والشـــهادة وغيرهما .

التجارة أمانة :

تتحقق الأمانة فى التجارة بالصدق فى القول، وعدم احتكار السلعة، وتجنب الغش ، والوفاء بالسداد، والقناعة بالكسب المعتدل، والالتزام بالوعد ، والمعاملة بالحسنى، وحفظ حقوق الشركاء.

وكان الرسول ﷺ قد عرف منذ طفولته المبكرة بالأمانة فى القول والعمل والخلق، ولقبه أهل مكة بالأمين، وصار معروفا به بين الناس، وبســـبب ذلـــك استأجرته السيدة خديجة بنت خويلد.

واختارته من بين شباب أهل مكة ــ لكى يتاجر فى مالها ، وتحققت لهـــا مكاسب كثيرة، مما شجعها على إظهار رغبتها فى الزواج منه، مع قلـــة مالـــه وتجربته فى الحياة.

ثم إن التجارة قد تكون بين شريكين، ولذلك يجب على كل واحد منهما ألا يخون الآخر ، قال الله عزوجل فى الحديث القدسى : "أنا ثالث الشريكين ما لـــم يخن أحدهما صاحبه، فإن خان أحدهما صاحبه خرجت من بينهما" [٢]، كمـــا أن بعض التجار يخون فى التجارة بممارسة الغش، فيلحق بالسلعة تغييرا أو ضررا؛ ليزداد الكسب ، وقد شاهد الرسول فى حياته شيئا من هـــذا الزيـــف والضـــلال

(١) رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط .
(٢) رواه أبو داود والحاكم .

فكشفه، وتحدث عنه ، وضرب المثل للحاكم والمحكومين فى ضرورة التصــدى للخيانة والغش، وأكل أموال الناس بالباطل، فعن أبى هريرة أن رســول الله ﷺ مر على صبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال: مــا هــذا يــا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله ، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ، من غش فليس منى"[١].

ولقد سرى النفاق والغش فى كثير من السلوكيات المعاصرة سريان النــار فى الهشيم، ولا علاج لذلك إلا بيقظة دينية وصحوة إســلامية؛ حتــى يتلاشــى المنكر، ويختفى أنصاره، وأن ينهض أولو الأمر بمقاومة الانحراف والتصــدى للخائنين ، قال رسول الله ﷺ : "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الســاعة ؟ قيــل يــا رسول الله ما تضييع الأمانة؟ قال : "أن يوسد الأمر إلى غير أهله"[٢].

الأمانة فى القول :

تتحقق الأمانة فى الكلمة بالصدق فــى الحــديث،وكتمان الأســرار، روى أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "آية المنافق ثلاث : إذا حــدث كــذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"[٣].

ومن أفظع الخيانات إفشاء الأسرار عن الحياة الزوجية، وقد نبه الرســول ﷺ إلى خطورة هذا السلوك فقال : "إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته، وتفضى إليه، ثم ينشر، أحدهما سر صاحبه" [٤] .

وللأسف الشديد يغفل كثير من عامة الناس عن مدى الخطورة فى إفشــاء هذه الأسرار ، ويتظاهرون بما أمروا بستره، وكتمانه، والحفاظ عليه .

---

(١) رواه مسلم وآخرون .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه مسلم وأبو داود .

وتتسع الأمانة فى الكلمة؛ لتشمل المكتوب الذى يخطه الناس، والمقول الذى يذيعونه فى الأمة، والشهادة التى يجب الحرص عليها، على أن وقوع الناس فى الإثم، وارتكابهم لأنواع من الخيانات لا يبرر لأحد أن يخون الأمانة، مهما كانت صورتها، قال ﷺ : "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك"(١)٠

ثم إن الأمانة فى الكلمة قد تأتى فى صورة رأى أو مشورة أو نصيحة ، وعلى ذلك يجب الالتزام فيها، فلا ينحرف الشخص المسئول، وصاحب الرأى عن الصواب، ويجب أن يكون أمينا، وصادقا فى قوله ، قال ﷺ : " المستشار مؤتمن"(٢)٠

وهكذا وضح لنا مقدار ما تمثله الأمانة من قيمة فى الفعل والقول، وفى الدين والدنيا، من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، وهى رسالة ضخمة، وحمل ثقيل، وتبعة عظيمة يتحملها ويسئل عنها كل مسلم غيور على دينه ، سواء أكان وليا للأمر، أم راعيا لأسرة، أم متحملا لتبعات نفسه ، والله يقول الحق وهو أرحم الراحمين ٠

---

(١) أخرجه الدارقطنى ٠
(٢) رواه أصحاب السنن ٠

خامسا : من صفات عباد الرحمن

١ـ طلب الحلال فى الطعام والشراب والكساء وسائر النفقات ٠

٢ـ المسارعة إلى فعل الخيرات ٠

٣ـ العفو والصفح والإعراض عن الجاهلين ٠

٤ ـ الصبر على البلاء والرضا بالقضاء ٠

٥ ـ الانتماء للدين والوطن ٠

٦ ـ التعاون على البر والتقوى٠

٧ـ النهوض بالمسئولية والالتزام بحقوقها وواجباتها٠

٨ ـ تجليات الأخلاق الحسنة فى حياة عباد الرحمن ٠

٩ ـ الدعوة إلى الإصلاح بين الناس ٠

١٠ ـ الزهد فى الدنيا والعمل للأخرة ٠

١١ـ التحدث بنعم الله تعالى ٠

١٢ـ الحرص على العلم وتبليغه إلى الراغبين فيه ٠

١- طلب الحلال فى الطعام والشراب والكساء وسائر النفقات

حض القرآن الكريم والسنة النبوية على كثير من الخصال والملامح، التى يتميز بها عباد الرحمن المخلصون، فهم يحرصون على طلب الحلال فى طعامهم وشرابهم وملبسهم، ويتحرونه فى إنفاقهم وعطائهم للآخرين .

وليس هذا الفريق من جماعة المؤمنين قاصرا علــى عهــد رســول الله وأصحابه وأتباعه ، وإنما تمتد وتتواصل هذه التوجهات الحميــدة إلــى الوقــت الراهن، فإن الخير فى شخصية الرسول ﷺ وفى سائر أمته إلى يوم الدين .

ولقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان كثيرا من النعم التى يســتحيل عليــه حصرها، ويصعب التعرف عليها، وعلى آثارها وفوائدها، لذلك ينظر المــؤمن إلى أقرب النعم التى يحتاج إليها، فيتحدث عنها، ويذكرها ويشــيد بهــا، وكــان المسلمون الأوائل ــ فى عهد الرسول ﷺ خاصة ــ نماذج صادقة للعمل بالكتاب والسنة، وسار على نهجهم التابعون ومن جاء بعدهم رضوان الله عليهم جميعــا، فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : إن الله، طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ وقــال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾، ثم ذكر الرجل، يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء .. يــا رب .. يا رب ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك"[١].

والمعنى فى الحديث موجه أولا إلى أنبياء الله ورســله، ثــم إلــى ســائر المؤمنين، وفى مقابل ذلك ذكر الحديث نموذجا لمن يسافر ويغتــرب، ويــدعو ويتوسل، ثم لا يستجاب له؛ لأن سائر مكوناته الظاهرة والباطنة مثــل الطعــام والشراب والملبس من حرام، فهى سحت، ولذلك لا يقبل الله دعاءه، وقــال ﷺ : "طلب الحلال واجب على كل مسلم"[٢].

ونعم الله كثيرة خاصة فى مجال الأطعمة التى تمد الجسم بالطاقة، وتحفظه من المرض، وتعين صاحبه على العبادة، ويكتسب بإنفاقه الثواب الجزيل، فلابــد

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط، وإسناده حسن .

أن يكون الطعام حلالا فى تكوينه، وبحيث لا يلحق الضرر بآكله ، ولـم يكـن الحصول عليه من طريق حرام، يرفضه الشرع، ويحذر منه، قال ﷺ "خيـاركم من أطعم الطعام"[١] .

ونعى القرآن الكريم سلوك الذين يحرمون زينة الله، التى أحلها لعباده؛ لأن الأصل فى الأشياء الإباحة، إلا ما ورد تحريمه شرعا ، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[٢] .

والحديث الآتى يوضح بعض آثار الحلال والحرام فى الأطعمـة، إذ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت هذه الآيـة عنـد رسـول الله ﷺ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فقام سعد بن أبى وقاص، فقال: يـا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال له النبى ﷺ : "يا سعد اطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده أن العبـد ليقـذف اللقمـة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به"[٣] .

وما ذكرناه من أن مسيرة عباد الرحمن متواصلة، لا تتوقف على عصـر المصطفى ... هذا صحيح، فهى تمتد قرونا وقرونا خاصة فى زمن الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس، أو يحاولون ذلك قدر جهدهم، فعن أبى سعيد الخدرى ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ : "من أكل طيبا، وعمل فى سنة، وأمن الناس بوائقـه[٤] دخـل الجنة، قالوا: يا رسول الله : إن هذا فى أمتك اليوم كثير، قال: وسـيكون فـى قـرون بعدى"[٥] .

وقد حذر رسول الله ﷺ من المتغيرات السيئة التى ستأتى على الأمة تتـوه فيها معالم الطريق، ولا يبالى الإنسان بالفصل بين الحلال والحرام، فعـن أبـى

---

(١) رواه ابن حبان.
(٢) الأعراف ٣٢ .
(٣) رواه الطبرانى فى الصغير .
(٤) بوائقه : مصائبه وأضراره .
(٥) رواه الترمذى والحاكم .

هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: "يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ أمن الحلال أم من الحرام"[١].

وهكذا تتواصل الدعوة الإسلامية فى إيضاح توجهات عباد الرحمن نحو تناول الطيب الحلال بمعيار، الآداب التى حض عليها الإسلام .

وقد عافت النفوس الراضية بقضاء الله كثيرا من المأكولات والمشروبات التى لم تستسغها البيئة العربية، أو يكون تناولها بإسراف ، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[٢]، ذلك لأن الاعتدال محمود فى الأمور كلها، والتوسط صفة وميزة فى الشريعة الإسلامية ، ومنهج ارتضاه عباد الله الصالحون فى كل مكان وزمان.

ونهى الإسلام عن أكل أموال الناس بالباطل، وحذر من التورط فى الأغذية المحرمة ومنها التى ذبحت ، ولم يذكر اسم الله عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[٣].

كما أن للطعام آدابا يحرص عليها عباد الله الصادقون فى دعواتهم للآخرين وعدم الذم لما يقدم ويجهز للقادمين، مع ضرورة التسمية والحرص على النظافة، والدعاء بالخير لكل من شارك وأسهم فى الاجتماع على الطعام، فعن أبى هريرة ﷺ قال: "ما عاب النبى ﷺ طعاما قط، إذ اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه"[٤].

والمقصود هنا إجمالا: الطعام الذى أعد من حلال، وبدون شبهة، تبعث الشك فى النفوس، والله يهدينا جميعا إلى سواء السبيل.

---

(١) رواه البخارى والنسائى .
(٢) الأعراف ٣١ .
(٣) الأنعام ١٢١ .
(٤) رواه البخارى .

٢ـ المسارعة إلى فعل الخيرات

تتجلى بعض خصائص عباد الرحمن الصادقين فى عباداتهم، المخلصين فى معاملاتهم، فى أنهم يتسابقون إلى فعل الخيرات، ويسارعون إلى الإفادة من عطاءات الله لهم، من صحة وغنى، وجاه ومنصب، كما يتنافسون فى تحصيل العلم النافع، والأدب المفيد، والخلق الحميد ...

إن الله سبحانه وتعالى ــ بقضائه وقدره ــ قد أجرى الخير على أيدى عباد الله المؤمنين، الذين تتجلى صفاتهم وأخلاقياتهم فى كتاب الله، وسنة رسول الله، فضلا عن الممارسات الإيمانية للصحابة الأجلاء، والتابعين الأوفياء، الذين كانوا قدوة ومثلا للآخرين، فهذا فريق من المؤمنين الأبرار سجلت أعمالهم فى عليين، وفى مدونات تشهد على ما فيها من خير، فضلا عن الملائكة الذين اختصهم الله بمشاهدة ذلك، وأهل النعيم فى منزلة يكونون فيها على الأرائك؛ ناظرين إلى ما أعده الله لهم، وتتضح فى وجوههم بهجة النعيم ونضرته، وتتواصل معطيات الله لهم[١] مما يجعل الوصول إلى هذا الخير محلا للمنافسة بين عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[٢] وهكذا جاء ذكر هؤلاء الأبرار المتنافسين، بعد أن ذكرت سورة المطففين نماذج شريرة، لمن يخدعون الناس فى الكيل والميزان، أو يمارسون الفسق والفجور .

إن المنافسة فى عمل الخير ترقى بالمؤمن إلى تلك الدرجة من منازل الصديقين، وفيها يرغب الراغبون، ولمثلها يعمل العاملون، وقد جاء فى بيان ذلك: "والذين يتنافسون على شئ من أشياء الأرض مهما كبر وجل، وارتفع وعظم، إنما يتنافسون فى حقير قليل، فان قريب، والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولكن الآخرة ثقيلة فى ميزانه، فهى إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة، .

(١) كما ذكرت سورة المطففين من الآية ١٨ ــ إلى الآية ٢٨ .
(٢) سورة المطففين ٢٦ .

ومن عجب أن التنافس فى أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعـــا، بينما التنافس فى أمر الدنيا ينحط بها جميعا"[١].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٢].

أى سارعوا إلى الأسباب التى تســتوجب غفــران الله تعــالى، كالتوبــة والطاعة، وما يتبعهما من جنة عالية أعدها الله للمتقين .

وتكون المسارعة والمنافسة كثيرا فى أمور تتصل بالحيـــاة الـــدنيا، لكـــن آثارها تمتد إلى الحياة الآجلة، وذلك ما نص عليه رسول الله ﷺ فى حق عباد الله المستجيبين، فقد روى عن عمرو بن ميمون أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اغتـــنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبـــل فقـــرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"[٣].

أما التنافس فى أمر الدنيا من أجل الدنيا فهو سيئ مذموم، وهذا ما حـــذرنا منه رسولنا ﷺ ، خاصة أن بين القدماء نماذج افتقدت الولاء لرب العزة سبحانه وتعالى، فأغرتهم الدنيا، ومزقتهم أطماعها .. فليس معنى ذلك أن من سبقونا كلهم كانوا النماذج الصحيحة المتنافسة فى الخير .. فشأن الحياة ـــ على امتداد الزمن ـــ أن يكون فيها الصالح والطالح، والمؤمن والمنافق، والمنهـــزم أمـــام الـــدنيا، والقادر الذى لا يضعف أمام إغراءاتها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن يبسط عليكم الدنيا، كما بسطت علـــى من كان قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم"[٤].

إن المعيار الزمنى ليس هو المعول عليه فى ســـلوكيات البشـــر، وإنمـــا الفيصل فى ذلك هو مقدار التقارب الذى يسعى إليه عباد الرحمن فى طريقهم إلى التقوى، وهم أيضا الذين يمثلون باستمرار تواجدهم بين الناس صـــيانة للحيـــاة وقدوة للآخرين، فعن الزبير بن عدى قال: أتينا أنس بن مالك ﷺ ، فشكونا إليـــه

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٦ ص٣٨٦ .

(٢) آل عمران ١٣٣ .

(٣) رواه النسائى، وأحمد، والحاكم، والبيهقى، وأبونعيم، وانظر أدب الـــدنيا للمـــاوردى فـــى موضوع (أنواع المسامحة) .

(٤) رواه البخارى.

ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم" سمعته من نبيكم ﷺ [(١)]٠

لقد تغيرت كثير من مفاهيم الناس الآن عن ذى قبل، فهم يفتخرون بأشياء لم يكن لها ميزان قبل ذلك فى دنيا البشر، بينما كان التنافس بين الصحابة وسائر المؤمنين من عباد الرحمن المخلصين فى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى صراط الله المستقيم٠

---

(١) رواه البخارى٠

٣ـ العفو والصفح والإعراض عن الجاهلين

تتجلى هذه الخصائص فى معاملات عباد الرحمن مع النـــاس، فيكونـــون حلماء معهم، صادقين فى العفو والصفح عنهم، ممـــا يقـــرب الآخـــرين مـــنهم، فيتأثرون بهم، ويحرصون عليهم، إذ ينبغى للمسلم أن يكون إيجابيا فى تعاملاته، حريصا على الأخلاق الإسلامية قولا وعملا٠

إن العفو هو ترك العقاب على الذنب، أما الصفح فهـــو الإعـــراض عـــن المذنب بصفحة الوجه،فيشمل ترك العقاب،وترك اللوم والتثريب(١)٠

وقال القرطبى: العفو هو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح: إزالة أثره مـــن النفس٠

ومعنى العفو من الله سبحانه وتعالى: محو الذنوب عن العبد، وكـــل مـــن استحق عقوبة فتركته، فقد عفوت عنه، وحقيقة العفو: أن يخطئ معـــك إنســـان، وتكون قادرا على معاقبته ومؤاخذته، ولكنك تعرض وتصفح عنه(٢)٠

والعفو:صفة من صفات الله تعالى،أو اسم من أسمائه،قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(٣)٠

وقد علم الله رسوله بأن يعفو ويصفح، وذلك فى مواقف متعددة منها مـــا كان مع أهل الكتاب ، فقال تعالى للرسول فى حقهم : ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٤) ٠

وجاء فى سورة التغابن حض للمؤمنين من عباد الرحمن المخلصـــين أن يعفوا ويصفحوا مع زوجاتهم وأولادهم ، قال تعـــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥)٠

---

(١) عن تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٠
(٢) أخلاق القرآن جـ١ صـ٣٤ للدكتور أحمد الشرباصى ٠
(٣) الشورى ٢٥ ٠
(٤) المائدة ١٣ ٠
(٥) التغابن ١٤ ٠

وقد روى أن رجالا من أهل مكة أسلموا ورغبوا فى الهجرة إلى الرسول بالمدينة، فأبى أولادهم وزوجاتهم، فلما جاءوا إلى الرسول، ورأوا أن الذين سبقوهم إلى المدينة قد تقدموا عليهم فقها وعلما، فأرادوا أن يعاقبوا زوجاتهم وأولادهم فنزل على الرسول فى حقهم : ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لم تتوقف أخلاق القرآن المتمثلة فى عباد الله الطائعين على علاقاتهم بإخوانهم من المؤمنين، ولكنها امتدت من الرسول وأصحابه إلى اليهود، وهم أهل كتاب، فى وقت كان المسلمون فيه قليلى العدد، لكنهم أقوياء بالإيمان، بينما كان هذا الفريق من أهل الكتاب كثيرين، لكنهم كانوا الأضعف ... والعفو والصفح يأتى من القوى إلى الضعيف فقال تعالى فى شأن الرسول وأصحابه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

ويعظم ثواب العفو والمسامحة إذا كان لدى الشخص من القوة ما يؤهله ويشجعه على الانتقام والردع، ويصير العفو بلا أثر إذا كان ناتجا عن ضعف وعجز عن المواجهة والانتقام، فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "ليس الشديد بالصرعة[٢]، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب"[٣] وكلما كان الصفح والعفو عن رغبة ورحمة ومقدرة، وجاء من المؤمن بلا من ولا أذى، كان ذلك صفحا جميلا.

إن الصادقين فى تقواهم يرتفعون فوق الأمور التى تحكمها الغرائز والانفعالات، وينتصرون على أنفسهم؛ لاعتقادهم الصحيح بأن ما لديهم من قوة وإرادة والتزام يجابهون به خصومهم ومنافسيهم، ولذلك ينبغى أن توجه هذه العزائم والطاقات إلى الخير والعفو والصفح عن الآخرين، وليس للتمادى فى العناد، أو الرد على الخطأ بأشد منه، وقد قيل للرسول ﷺ ادع الله على المشركين والعنهم، فقال: "إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعانا"[٤].

---

(١) البقرة ١٠٩ .
(٢) أى يغلب الناس ويصرعهم، وينتصر عليهم .
(٣) متفق عليه .
(٤) رواه مسلم .

ونأتى إلى حادثة الإفك وما تقول به بعض المنافقين علـــى أم المـــؤمنين عائشة بنت أبى بكر، وهى الزوجة المخلصة لرسول الله، وكان من بين المتقولين عليها بالإفك مسطح بن أثاثة، وهو ابن خالة أبى بكر الصديق، والذى كان ينفق عليه ويرعاه مع أهله، فلما خاض مع المنافقين فى الافتراء على أم المـــؤمنين ، اتجه أبوبكر إلى معاقبته بمنع الإنفاق عليه وعلى قرابته، وأقسم أن يتركهم، ولا يفعل معهم مثلما كان يفعل من قبل ، ولم يقبل اعتذار مسطح عما قال ،فنزل فى ذلك قول الله تعـــالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وعرف أبوبكر بما نزل على الرسول وهو الآية السابقة، فهـــدأت نفـــس الصديق، وعفا عن مسطح وقرابته، وقال: بلى يا رب إنى أحب أن يغفر لـــى، وقد تجاوزت عما كان .

فالمسلم الذى يستظل بظلال الإسلام أكثر كرما، وأعظم فضلا، ولا يليـــق به أن يقابل الإساءة بمثلها، مما يجعل سلوك العفو والتسامح فى أعلى درجـــات الكرم والحلم والصفح عن الآخرين .

إن حياة الرسول وعباد الرحمن صورة ناصعة ولوحة مضـــيئة للأعمـــال الصالحة التى ينتصر الشخص فيها على ذاته، ويقوى بإيمانه، ويعامل الناس بما يتفق مع أخلاق الإسلام، من حلم، وعفو، وصفح، وأناة، وتسامح مع الآخـــرين، والله يقول الحق ، ويهدى إلى سواء السبيل.

---

(١) النور ٢٢ .

٤ ـ الصبر على البلاء والرضا بالقضاء

إن من ألزم الخصائص التى يتصف بها عباد الرحمن هى خلق الصبر بشتى صوره، والرضا بقضاء الله وقدره، مما يجعل أنماط حياتهم، وثواب أقوالهم وأعمالهم ضياء ونورا للكثيرين ممن يحتاجون لمن يأخذ بأيديهم، وينقذهم من وهدات اليأس والقنوط، إلى معالم الصبر وأنوار اليقين •

إن حياة عباد الرحمن الذين عاشوا فى عصر الرسول، وعصر صحابته الأتقياء، وأتباعه الأوفياء، كانت ــ أى حياتهم ــ مضرب الأمثال فى الصبر والتحمل، وعدم اليأس والقنوط •

والصبر دليل القوة .. قوة الإيمان والعزيمة، والرغبة فى الانتصار على النفس الأمارة بالسوء، والالتزام بالطاعة، وقهر الغرائز والشهوات، والتصدى بقوة للنوازل والاختبارات، وقيل إن الصبر هو الرضا بقضاء الله؛ لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئا•

وقد ذكر القرآن الكريم مفردات الصبر فى أكثر من مائة موضع، وأوردت كتب السنة العديد من الأحاديث التى تعالج خلق الصبر والرضا،وما يتفرع منها•

وأورد أبوحامد الغزالى أقساما وأنواعا كثيرة للصبر، منها تقسيمه إلى ثلاثة أنواع هى:

النوع الأول وهو الصبر على الطاعة، وفى تلك الحالة يحيا المؤمن مع عبادة الله وطاعته، بالرضا والقبول، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١) ، وقال عز من قائل :﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾(٢)•

والطاعة: هى الالتزام بفعل الخير، واجتناب الشر، ولابد لذلك من عزيمة قوية، ينتصر بها عباد الرحمن على المكاره والمشقات التى تنتاب الطائعين الخاشعين، بينما يجد الراغبون فى متع الدنيا وشهواتها سهولة ويسرا، وذلك

---

(١) البقرة ١٥٣ •
(٢) العصر ٣ •

مصداق ما روى عن رسول الله ﷺ : "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"[١].

ومن الطاعات التى تبدو ظاهرة بارزة فى سجل عباد الرحمن المخلصين، مغالبة الأعداء بالأموال والأنفس، والتصدى لهم، بحيث لا يكونون أصبر من عباد الرحمن الرحيم، ثم تأتى المرابطة التى يحمى فيها المجاهدون منافذ البلاد، مما يمكن أن يتسرب إلى أرض الوطن، من نفايات الأعداء وأشرارهم على اختلاف صورها وأحوالها .

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢] وقال عمر بن عبدالعزيز : "أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس".

والنوع الثانى هو: الصبر عن المعاصى والمحرمات، وكم من عباد الله سبحانه وتعالى تعرضوا لامتحانات عسيرة فى مقام مجاهدة النفس، ودحر المنكر، والتصدى للباطل، ويحضرنا أحد المواقف لعمر بن عبدالعزيز عندما صار خليفة للمسلمين، فهرع إليه طلاب المنافع، والراغبون فى المال يخطبون وده، ويمطرونه بأعذب الكلمات، فأوصد الباب دونهم، وأبلغهم قول الله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٣].

والنوع الثالث هو: الصبر على النوازل والمصائب، والتى يحتاج فيها المؤمن إلى الرضا بقضاء الله سبحانه وتعالى، وتقوية مناعة النفس، لتحمل الابتلاءات المحزنة، التى تنتاب المؤمن فيقاس بها مقدار صبره وتحمله، فعن رسول الله ﷺ قال: "إذا أحب الله قوما ابتلاهم.. فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط"[٤].

---

(١) البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم، وفى فتح البارى بشرح صحيح البخارى، حجبت بدلا من حفت، وتقديم النار على الجنة (الحديث ٦٤٨٧) جـ١١ صـ٣٢٧ .
(٢) آل عمران ٢٠٠ .
(٣) الأنعام ١٥ ، ويونس ١٥ .
(٤) رواه الترمذى .

والابتلاءات كثيرة منها ما ورد فى قول الله تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[١].

ويقترن هذا النوع من الصبر بالأذى الذى يلحق بالمؤمن فيحتاج معه لسعة الصدر واتساع الأفق ، وقهر الهوى، وضبط النفس، ومقاومة الشـيطان، فعـن رسول الله ﷺ قال: "من يرد الله به خيرا يصب منه"[٢].

والصبر والرضا بقضاء الله من صفات الأنبياء والمرسلين، ومن أخـلاق أهل العزيمة والقوة المؤمنة والرؤية الصادقة ، قال تعـالى : ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٣].

تبدأ صفحات الصبر فى تاريخ الاسلام بما لحق بأصحاب الرسول ﷺ عند بدء الدعوة، ونذكر فى مقام الجهاد والاعتصام بحبل الله المتين، والصبر علـى تعذيب النفوس والأبدان .. نذكر البطولات التى عاشها بلال بن رباح وعامر بن فهيرة، وعمار بن ياسر، وأخوه، وأبوه، وأمه، وخباب بن الأرت وغيرهم، كمـا أن الأحزان والتجاوزات التى لحقت بالرسول محفورة فى ذاكرة كل مسلم.

ويعم الحزن عباد الرحمن فى غزوة مؤتة، والأبطال القـواد: زيـد بـن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبدالله بن رواحة ينالون الشهادة، ثم تأتى لحظة الإنقاذ مع خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

إن مجالات الصبر كثيرة، خاصة ما اتصل منها بفقد ابـن أو قريـب أو عزيز، أو كان معاناة من مرض أو فقر أو إحدى منغصات الحياة. والسعيد من يقوى على نفسه، وينتصر على همومه، ويسلم الأمر لخالقه، فيسـتحق الجـزاء الأوفى من الله تعالى، قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤].

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسـنه، والله صبور حليم، وغفور كريم .

---

(١) سورة محمد ٣١ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) لقمان ١٧ .
(٤) الزمر ١٠ .

٥- الانتماء للدين والوطن وأثره فى قوة الأمة وبناء نهضتها

عاش الرسول ﷺ وأصحابه فى بداية الدعوة مرحلة عصيبة وشاقة، كانوا مشغولين فيها بزرع الإيمان فى القلوب، وتثبيت أركان دينهم الجديد، ونشر أنواره، والحفاظ على وطنهم، الذى تربوا فيه، وهاجروا منه، ثم عادوا إليه، واعتبروا أن كل موضع يحيون فيه هو جزء من كيانهم الكبير .

كان إقبال المسلمين الأوائل على دينهم، وارتباطهم بوطنهم أمرين لا ينفصلان، ويشكلان الرئتين اللتين يتنفس بهما العالم الإسلامى، والقدمين اللتين يسعى بهما إلى الوحدة والقوة والرخاء.

والانتماء إحساس قوى، وشعور فياض بمدى حب المؤمن لدينه، ووطنه، فإذا كان إيمانه بدينه قويا وراسخا كان حب الوطن ثابتا ورائدا وعظيما؛ لكونه أثرا أو ثمرة من ثمار الإيمان واليقين .

إن حب الوطن والإحساس بعظمة الانتماء لا يقتصر على مجرد التغنى بأمجاده والفخر بإنجازاته، إذ لابد أن يتحول المؤمن إلى قوة فاعلة، تعمل وتجتهد فى صناعة المستقبل بجهد ومحبة وإخلاص.

إن حب المسلم لوطنه من صميم معتقداته التى تعظم وتقدس كثيرا من الأمكنة والأزمنة، خاصة ما اتصل منها بالفروض والسنن، والهيئات فى الصلاة والحج وبعض العبادات الأخرى، وتجلى ذلك بوضوح فى حياة الرسول وأصحابه، الذين كانوا يشعرون بالألم والضيق والمعاناة، وهم يتركون وطنهم مكة المكرمة، فيهاجرون إما إلى الحبشة، أو إلى المدينة، أو إلى أماكن أخرى فى الأراضى العربية، ثم اضطر كثير من الصحابة والتابعين فى مرحلة تالية لمغادرة جزيرة العرب إلى البلدان الإسلامية الجديدة، التى تم فتحها تباعا، قال ﷺ: "من حمل علينا السلاح فليس منا"[١].

(١) رواه مسلم .

إن أهم ما ينعكس على الأمة من آثار قوة الشعور بالانتماء الدينى والوطنى ما يلى:

١ - تحقيق الأمن للناس جميعا، وتجلى ذلك فيما يخص بيت الله فى الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[١]وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[٢] .

عقد الرسول ﷺ بعد الهجرة معاهدة مع اليهود؛ للاتفاق على الدفاع المشترك عن المدينة المنورة ، كما هب المسلمون، ومعهم الرسول ﷺ لحفر الخندق حول المدينة؛ لحمايتها ورد الأحزاب الذين توجهوا للإغارة عليها فى العام الخامس من الهجرة، وكذلك الحال فى شأن الجهاد، ونشر الإسلام، إذ كان التحرك جماعيا، ومنظما فى الغزوات والفتوح، مع تأمين الثروات والممتلكات، والمرضى وكبار السن، والنساء والأطفال.

وكانت الهجرة من مكة ومن بعض البلدان الأخرى فى مراحل تالية، ليست هروبا أو انهزاما، وإنما كانت انطلاقا لنشر الدعوة فى أماكن جديدة؛ تنفيذا للأمر بالتحرك والتبليغ.

٢ - تماسك الأمة وتأكيد وحدتها، وقد تجلى ذلك فى المؤاخاة، التى عقدها الرسول بين المهاجرين والأنصار، والمعاهدة التى أبرمها مع اليهود؛ مما أسهم فى تحقيق كثير من الإنجازات، وإن اعتورتها بعض الخروجات من أهل المدينة، ممن يدينون بغير الإسلام، لكن ذلك راجع إلى عدم التزامهم ... ولا يعيب الإجراءات التى سلكها الرسول معهم، انتقالا من الرفق واللين إلى الحسم والشدة، قال تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٣]، وقال عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ

---

(١) البقرة ١٢٥ .
(٢) البقرة ١٢٦ .
(٣) الممتحنة ٨ .

وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١].

هذا هو الانتماء الذى كان عقيدة دينية، وإحساسا بالجماعة، وعناية بالوطن، وتفعيلا إيجابيا نابعا من أعماق عباد الرحمن الصادقين، قولا وعملا، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٢].

٣ – مصلحة الجماعة بتحقيق الرخاء وتنمية الثروة، إذ لا قيمة للأقوال والشعارات ما لم تتحول إلى أفعال إيجابية، تنعكس آثارها على الجماعة بتقوية الاعتقاد، وتحقيق الرخاء، وزيادة الثروة والنماء، قال ﷺ : "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحا لله ولكتابه ولإمامه، ولعامة المسلمين فليس منهم"[٣].

٤ – ردع المخالفين والمناوئين ... هؤلاء الذين يفرقون بين جماعة المسلمين، ويمزقون وحدة الأمة، ويأتون بالمنكر الذى يجب مقاومته، والتصدى له، فعن رسول الله ﷺ قال: "مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا"[٤].

بعض المواقف والسلوكيات من التاريخ الإسلامى

يزخر التاريخ الإسلامى بالمواقف الخالدة التى تؤكد منهاج الإسلام فى الدعوة إلى تنمية الشعور الدينى، والتمسك بالوحدة الإسلامية، وتأكيد العزة

---

(١) الحشر ٩ .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) رواه البخارى .

والانتماء والترابط ، ومقاومة التجاوز والانحراف، وتجلت القـوة فـى أعلـى درجاتها من خلال شخصية الرسول ﷺ ، فقد خرج من مكة مهاجرا إلى يثرب، واتجه إلى موطن صباه ومربع أحلامه، وأخذ يناجى مكة المكرمة بلده الحبيـب قائلا "والله إنى لأخرج منك، وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بـلاد الله إلى، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت"۰

ولما حل بالمدينة هتف قائلا: "اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد" ، وقال: "اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبـراهيم مكـة، اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم"۰

ولما رجع من الحج أو من تبوك أو من خيبر، ورأى جبل أحد، قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه"[١]۰

وينقل التاريخ الإسلامى صورة ناصعة لواحدة من النساء الفضليات، وهى الخنساء الشاعرة المشهورة بإسلامها وشعرها، وحضها لأبنائها على الجهاد فـى سبيل الله، وحرصها على غرس حب الوطن فى صدورهم، حيث دفعت بفلـذات كبدها الأربعة إلى موقعة القادسية، وقالت لهم: "والله إنكم لأبناء رجل واحد، مـا خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجبت نسبكم، ثم حمستهم على خوض غمار المعركة التى أسفرت عن استشهادهم جميعا، فقالت عبارتها الخالدة التى سـتبقى محفورة فى ذاكرة التاريخ وهى: "الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم[٢]، وأسأل الله أن يجمعنى بهم جميعا فى مستقر رحمته" ــ هدانا الله جميعا إلى سواء السبيل ۰

---

(١) البخارى جـ٩ صـ٤٦٥ [٤٠٨٤] وراجع فى ذات الموضوع جـ٧ صـ٤٣٦ ۰
(٢) أى استشهادهم ۰

٦ ـ التعاون على البر والتقوى

من ألزم الخصائص التى يتميز بها عباد الرحمن أنهم يمتزجون بالواقع الصحيح ، ويتمسكون بأمر القرآن الكريم فى التعاون على البر والتقوى، الذى يشكل معالجة، أو مقاومة لأى انسحاب، أو تحلل من المعيار القويم لبناء الإنسان٠

ففى معية الدعوة الإسلامية يتطلب من المسلم أن يحيا لنفسه، ولغيره، وبحيث لا يكون فردا منعزلا عن المجتمع، بل يبقى مشاركا ومسهما فى التكافل الاجتماعى، والتعاون على الخير، وعلى تقوى الله تعالى ٠

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[١]٠

ومعنى التعاون: تبادل المعونة والمساعدة، والكلمة تدور حول القوة والفائدة، التى هى مسعى كل طرف من الأطراف، التى تسعى إلى البر والتقوى٠

"والتعاون: خلق من أخلاق القرآن الكريم وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم "[٢] كما أن من صفات الله تعالى أنه المستعان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٣]، حيث يلجأ الناس إليه سبحانه وتعالى، خاصة فى ساعات الضيق والشدة والمعاناة، إذ يقول الناس فى كل صلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤]، وجاء الحديث عن التعاون بصيغة الأمر، الذى ينبغى أن يخضع له المسلم، ويرضى به لنفسه، وللناس جميعا ٠

والبر: هو المعروف الذى يقره الشرع، والتوسع فى عمل الخيرات والأعمال الصالحة ، وهو بمعنى الصدق والصلاح، والرضا والطاعة، وأول صنائع البر ما توجه به الإنسان إلى الوالدين، فعن النواس بن سمعان ﷺ قال :

---

(١) المائدة ٢ ٠
(٢) موسوعة أخلاق القرآن الكريم للدكتور الشرباصى جزء ٥ ص١٧٠ ٠
(٣) يوسف ١٨ ٠
(٤) الفاتحة ٥ ٠

"سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[١]. أما التقوى فهى "إتقاء ما يضر الفرد أو الجماعة، فى الدين والدنيا، وفى الحسيات والمعنويات[٢] وفى مقابل ذلك يكشف الإثم عن كل فعل قبيح ، لا ترتضيه العقول السليمة، ولا تقبله النفوس القويمة، والعدوان هو تجاوز لحدود الشرع، والعرف الصحيح للمعاملة أيا كان نوعها.

التعاون: منهج إسلامى ، وخلق قرآنى، وأسلوب حضارى يظهر حبا وإشفاقا، وتلاحما وانطلاقا إلى ما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، إذ لا ينبغى أن يحيا المسلم منعزلا عن الآخرين، فلا يتاح له أن يعامل الناس معاملة حسنة، ويتحمل منهم ما لا يروق له، فهو لا يحيا فى غابة، وإنما يعيش فى ظلال أخلاق القرآن الكريم، وسيرة محمد سيد المرسلين.

وأية البر التى ذكرت فى أول هذا الكلام هى دعوة من الله للتعاون على البر، وقد قرنه الله بالتقوى "لأن فى التقوى رضا الله تعالى ورضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس، فقد تمت سعادته وعمت نعمته"[٣].

ولقد تجلى التعاون المحمود فى العديد من المواقف التى تحدث عنها الوحى الإلهى، والهدى النبوى، حيث تكاتف فيها الصحابة مع رسول الله ﷺ ، أو شمر فيها التابعون عن سواعد الجد، وانضموا إلى الكوكبة الإسلامية من حملة مشاعل الهداية؛ لإنارة بقاع المسلمين وخدمة الإنسانية جميعا، واتضحت هذه التجليات فى أحداث الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة بعد محاولات سابقة إلى أماكن أخرى، كما تجلى التعاون وفعل الخيرات والإقبال على نشر الدين الجديد فى جماعة المسلمين بالمدينة، وهم يتحملون مزيدا من العناء والرغبة فى المقاومة، والدفاع عن الوطن، فلما تحقق النصر فى (غزوة بدر) تسابق المهاجرون

---

(١) رواه مسلم والترمذى.
(٢) موسوعة أخلاق القرآن جزء ٥ ص١٧٢ .
(٣) تفسير القرطبى جـ٦ ص٤٧ .

والأنصار؛ لاستضافة أسرى قريش، إلى أن يتم الاستقرار على رأى فى مستقبلهم.

مما يحسن التعاون فيه: البر بمعنى الصدق فى القول والفعل، قال ﷺ: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة"[١].

وقد يأتى الصدق بمعنى الصبر على النوائب، والرضا بالقضاء والسيطرة على النفس، وكبح هواها. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[٢].

ومما يؤكد حتمية ممارسة البر بمعنى الطاعة وفعل الخير، قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[٣].

وقد جمعت هذه الآية بين عدة وجوه أو ألوان أو صور للبر والمعروف مع الناس جميعا، كما أن من ألوان البر الإحسان إلى الوالدين، والحرص على طاعتهما، فقد جاء فى صحيح مسلم أن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: "أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله، قال: فهل من والديك أحد حى؟ قال: نعم بل كلاهما، قال: فتبتغى الأجر من الله؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى والديك فأحسن من صحبتهما".

---

(١) البخارى ومسلم.
(٢) البقرة ١٥٥.
(٣) البقرة ١٧٧.

كما ورد فى صحيح مسلم أيضا أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يستأذنه فـــى الجهاد، فقال: أحى والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد" وتمتد وجوه البر إلـــى ذوات الأرحام، اللاتى يجب الإحسان إليهن، والتكرم معهن، فقد روى أنس بـــن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثـــره فليصل رحمه"[١].

ويقابل ذلك أهمية التحذير من أى تعاون وتعاضد فى الانتقـــام والاعتـــداء على الآخرين وسلب حقوقهم، وحقوق أهاليهم والمقربين إليهم؛ حتى تتوحد الأمة، وتزداد الروابط والعلاقات قوة ومتانة، وتماسكا واعتزازا.

---

(١) اللفظ فى صحيح مسلم (كتاب البر).

٧ ـ النهوض بالمسئولية، والالتزام بحقوقها وواجباتها

وضع الإسلام منهاجا قويما لمعاملات الإنسان مع الآخرين، من ناحية المسئولية المنوطة به، حتى لا تترك الأمور سدى، بلا ضبط وإحكام، كان ذلك شأن عباد الرحمن الذين يتحملون ما أوكل إليهم فى أضواء الحق واليقين٠

لقد حدد الإسلام المعيار القويم للحياة حتى تسير فيه الأمور بضبط والتزام، وينهض ـ من خلاله ـ كل شخص بمسئولياته، التى كلف بها فى الدين والدنيا، فإذا كانت للإنسان ولاية على الآخرين باختلاف درجاتها، فلابد أن يمارس مهامه ومسئولياته بأمانة وصدق وإخلاص٠

والإنسان مسئول عن نفسه ابتداء، تلك المسئولية التى تمتد إلى زوجته وأبنائه ووالديه، وهى فى عمومها جزء من الأمانة أو التكاليف، التى حملها الله للإنسان، ذلك الكائن الذى يظلم نفسه كثيرا، جهلا وإعراضا٠

وللرسول ﷺ فى هذا المقام حديث جامع لسائر المتحملين للمسئولية، أيا كانت، قال ﷺ : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذى على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عن رعيته. والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهى مسئولة عنهم ٠

وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته"(١)٠

إن القيادة أو المسئولية التى يكلف الإنسان بها فى حياته توجب عليه كثيرا من التبعات والمهام، والتى تخضع للمعيار الشرعى الصحيح، الذى يعامل الناس على أساسه ابتغاء إرضاء الله تعالى أولا، ثم يأتى بعد ذلك إرضاء الناس، وإن كان رضاهم جميعا غاية صعبة، إذا كانت الأهواء مختلفة، أما إذا انطلقت معايير المسئولية على العدالة والإنصاف والمساواة، فقد يمكن الوصول إلى المثالية المبتغاة، التى ينشدها ويسعى إليها الأتقياء والمخلصون من عباد الرحمن الرحيم٠

---

(١) البخارى ومسلم ٠

لقد حض الإسلام على الرفق فى منهاج العلاقة بين الوالى، أو الإمـــام، أو الرئيس، وسائر الناس٠

وحدد الرسول تلك الصفة بالحديث الذى روته السيدة عائشـــة رضـــى الله عنها قالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى: "اللهم من ولى من أمر أمتـــى شيئا، فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئا، فرفق بهم، فأرفق به"[1]٠

كان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، رائدا فـــى ولايتـــه على الأمة الإسلامية، خاصة فيما يتصل بالضعاف من الناس، وكان يقـــيم فـــى المدينة، ويجاهر بقوله خشية وإشفاقا: "لو أن دابة عثرت فى العراق، لســـأل الله عنها عمر: لم لم يمهد لها الطريق يا عمر"٠

وكان الرسول ﷺ يستشير أصحابه فى سائر الأمور؛ احتراما لهم وتقـــديرا للمسئولية التى نهض بها، ويقبل الرأى الآخر، ويعمل به متـــى استشـــعر فيـــه إخلاص الرؤية وصدق العزيمة ، وعين الصواب، وقد حدث ذلك قبـــل غـــزوة بدر، وأثناء القتال، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، كما استشار أصحابه فـــى غزوة الخندق وغيرها، وهم الصحابة الأجلاء والمخلصون الأوفياء رضوان الله عليهم جميعا٠

يفرض النظام الاجتماعى للإسلام على الرجل كثيرا من المهام الملقاة على عاتقه، فعليه أن يخلص فيها، ولا يتخلى عنها، فهو مسئول عن أهله ــ والـــده، والدته، وأقاربه الآخرين. كما أنه مسئول عن زوجته وأبنائه، وقد أثنى الله على نبـــى الله إســـماعيل فقـــال تعـــالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[2]٠

إن مسئولية الرجل عن أبنائه تفرض عليه أن يكون قدوة طيبة لهم، ويعدل بينهم، ولا يحجب خيرا عن البنات، مثل الذى يقع فيه بعض الناس، فعن حصين عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنهما وهو على المنبر يقول:

---

(١) مسلم ٠
(٢) مريم ٥٥ ٠

"أعطانى أبى عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله، قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال: فاتقوا الله ، واعدلوا بين أولادكم، قال: فرجع فرد عطيته"(١).

وتتوالى مهام عباد الرحمن بالمسئولية المنوطة بهم، فقد كانوا يسعون إلى التعرف على أحوال الآخرين خاصة الذين لا يستطيعون عرض مشكلاتهم، ففى الحديث الشريف: "أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى، فإن من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر"(٢).

وتنهض المرأة بدورها الإنسانى ورسالتها الخالدة فى رعاية الأسرة: زوجة وأبناء وأقارب لزوجها، ممن يحتاجون للعون والمساعدة، وأن يكون هدفها عند القيام بدورها تجاه المشمولين منها بالرعاية والمتابعة هو الأمانة والصدق، والرضا بما منحها الله من الخير والبر والمعروف، وأن تحرص على عفة زوجها ، وصيانة ماله، وتربية عياله.

ومن توجيهات الرسول ﷺ فيما يخص العلاقات التعاونية بين الناس "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم"(٣).

وتمتد أغصان المسئولية إلى من يعملون لحساب الآخرين، مثل الموظفين والعمال، والخادمين لأرباب الأموال، وأصحاب المنشآت، ومن على شاكلة هؤلاء.

ذلك هو حديث الرسول الذى أناط شرف المسئولية لبعض النماذج الفاعلة والمؤثرة فى حركة الحياة.

لقد حفلت حياة المصطفى ﷺ وأصحابه وتابعيه بالكثير من المواقف الرائدة، والتجليات الصادقة، التى تتعمق فيها المسئولية الدينية والدنيوية، بحيث

(١) البخارى ومسلم واللفظ من البخارى رقم ٢٥٨٧ ــ جزء ٥ ص٢٥٠ .
(٢) رواه البيهقى والطبرانى والترمذى .
(٣) متفق عليه .

تصب فى أنهار الإيمان، أمانة وإخلاصا وتقوى وورعا، وشفافية وحبا، ولم تتناقص المواقف ، أو تنهزم النفوس، وإن كانت الحياة فى مجموعها تشكل منظومة متكاملة يمكن أن يتخللها ــ أحيانا ــ بعض السوالب والمنغصات التى لا تمحى من الذاكرة، بل تبقى نموذجا مفيدا يتعلم منه المسلمون أهمية الالتزام بما يراه أولو الأمر .

المسئولية انضباط وتشاور، وعدل وإتقان، وعفة واعتصام، وقدوة وامتثال، وأمانة وتكليف، تنظم جميعها أبعاد المسئولية وحدود التكاليف .

وفيما يتصل بالإطار المحدد لواجبات القائد الذى يمثل الإمام المختار والمكلف بالمسئولية، ذكر سيدنا رسول الله مجموعة من المواقف التى تحدد جزءا من ملامح الصورة التى يجب أن يمتثل بها المسئول، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال: "ما بعث الله من نبى، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر، وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله"[١].

ويتصل برسالة الإمام أو القائد أو الخليفة ما يمكن أن يقع فيه الناس من مخالفات شرعية تسئ إلى جوهر العلاقة بين الرئيس ومرؤسيه مثل الرشوة التى يضيع بسببها كثير من الحقوق التى تذهب إلى من لا يستحقها .

وهنا يتحتم على المسئول أن يحفظ الحقوق ، وأن يقاوم المتعاملين بالرشوة لحرمة هذا السلوك الشائن، فعن أبى حميد الساعدى قال: "استعمل رسول الله ﷺ رجلا يقال له ابن اللتبية.. قال عمر وابن عمر ــ على الصدقة ــ فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدى إلى، قال: فقام رسول الله ﷺ عن المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدى إلى، أفلا قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه؛ حتى ينظر أيهدى إليه أم لا، والذى نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئا، إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه.. بعير له رغاء، أو

---

(١) فى صحيح البخارى .

بقرة لها خوار، أو شاة تسير، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت .. مرتين"[١].

وقد قال بعض السلف قديما: "صنفان إن صلحا صلح الناس، وإن فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء".

أما فيما يختص بالزوجة فلابد أن تضع فى ذاكرتهـا الإيمانيـة واجبـات العلاقة الزوجية، التى ينبغى أن تخلص فيها ابتغاء لله وإرضاء للزوج، فقد روى عن رسول الله ﷺ قال: لو كنتُ آمراً أحدا أن يسجد لأحد، لأمـرت المـرأة أن تسجد لزوجها"[٢] والله يهدينا إلى صراط الله المستقيم.

---

(١) متفق عليه.
(٢) حديث حسن صحيح، رواه ابو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد.

٨ ـ تجليات الأخلاق الحسنة فى حياة عباد الرحمن

انتقل الرسول ﷺ بعد البعثة بأصحابه وتابعيه من عباد الرحمن المخلصين، متجاوزا المرحلة الأولى بما فيها من منهاج إسلامى جديد، يستقى من القرآن والسنة إلى حيز التطبيق العملى لأخلاق الإسلام، ومنتقلا بالمجتمع العربى من الجاهلية الحمقاء إلى أنوار الإيمان واليقين، ولذلك كان حريصا على الكلمة الطيبة، والخلق الحسن، فى تبليغ الرسالة، وإيصال الدعوة إلى كل راغب ومحب، للمتغيرات الجديدة فى ظلال الإسلام.

لقد ذكر عبد الله بن المبارك رحمه الله فى تفسير حسن الخلق، قال: هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى(١).

فالأخلاق الحسنة لا تتوقف عند كلمة هادئة، أو عبارة ناعمة، أو مجاملة مستحقة، وإنما هى سلوك عام يعالج علاقات المسلمين بعضهم ببعض، قولا حسنا وفعلا إيجابيا متحضرا، ووجدانا وعاطفة صادقة، خالية من كل سوء أو فحش أو تجاوز لمعيار المنهج الخلقى فى الإسلام.

وبدأت تعاليم الدين الجديد تتوجه إلى الرسول ﷺ ،حتى يبقى نموذجا وقدوة لكل المسلمين ، ولغيرهم ممن يحسنون الظن بالإسلام، فيرون فيه رسالة للدين والدنيا، للفرد والجماعة، وللضعفاء والأقوياء، وقد زكاه الله سبحانه وتعالى فقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

حيث كانت أخلاق الرسول (ﷺ) نابعة من القرآن الكريم .

وحقيقة الخلق فى اللغة ، هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب .. لأنه يصير كالخلقة فيه ...... ولم يذكر خلق محمود، إلا وكان للنبى ﷺ منه الحظ الأوفر. وقال الجنيد: سمى خلقه عظيما، لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى ، وقيل سمى خلقه عظيما؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، حيث يدل عليه قوله عليه

---

(١) رياض الصالحين ص٢٨١ .
(٢) القلم ٤ .

السلام: "إن الله بعثنى لأتمم مكارم الأخلاق"(١)وقيل:لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه،بقوله تعالى:﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢) ٠

وتتجلى الأخلاق الحسنة فى كثير من السلوكيات الإيجابية مثل الكلمة الطيبة، والجملة الصادقة، ومحبة الناس، والعدل فى الشهادة، وكظم الغيظ، وحسن الظن، وتقوى الله، وفعل البر، وسعة الصدر، وضبط النفس، وكتم الأسرار، وعزة النفس، ورحمة الخلق، وإيثار الآخرين، إلى غير ذلك من الأخلاق، الإسلامية الحميدة٠

إن المعالجة البيانية للأخلاق الحسنة جاءت ممثلة ومطبقة على شخصية الرسول ﷺ أو كانت حوارا شارحا ومفسرا لبعض السلوكيات، التى تتفق مع الأخلاق، أو تتعارض معها، وذلك يتضح فى بعض أقواله وسلوكياته، مثل قوله (ﷺ) فيما رواه أنس بن مالك ﷺ إذ قال: "كان رسول الله أحسن الناس خلقا"(٣)٠

وعن أبى ذر ـ ﷺ ـ قال : " قال رسول الله ﷺ : " اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن "(٤)٠

وأعظم ما يمكن أن تتحقق الأخلاق الحسنة من خلاله هو القدوة الطيبة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى، قد أمر عباده المسلمين أن يهتدوا بالرسول، ويتمسكوا بأخلاقه الفاضلة، وشمائله الطيبة، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٥)٠

قال الشيخ محمد الغزالى رحمه الله : "وحسن الخلق لا يؤسس فى المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر أو النواهى المجردة، إذ لا يكفى فى طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره: افعل كذا، أو لا تفعل كذا، فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة، ويتطلب تعهدا مستمرا"٠

---

(١) فى رواية مالك جاء الحديث على هذا النحو "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"٠
(٢) تفسير القرطبى جزء١٨ ص٢٢٧ ، والآية ١٩٩ سورة الأعراف٠
(٣) متفق عليه ٠
(٤) رواه الترمذى٠
(٥) الأحزاب ٢١ ٠

وقال أيضا: "وقد كان رسول الإسلام بين أصحابه مثلا أعلى للخلق الذى يدعو إليه، فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامى، بسيرته العاطرة، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات"[١].

وقال (ﷺ) : "إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شئ، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا"[٢].

إن الأخلاق الحسنة ،والسلوكيات الطيبة من أهم الأمور التى تمثل الدين الإسلامى ، ظاهرا واضحا ، أو خفيا مستترا ، وقد تجلى ذلك فى بعض المواقف الحوارية بين الرسول وأصحابه، منها، أنه سألهم يوما قائلا: " أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا ،فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح فى النار"[٣].

وهذا حديث آخر للرسول مع أصحابه رضوان الله عليهم جميعا، ذكره أسامة بن شريك قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله تعالى، قال: أحسنهم خلقا"[٤].

ويبقى أن نوضح أن الأخلاق الحسنة دالة على قوة الإيمان وسلامة العقيدة، وأن مكافأة الله لعباده على هذا السلوك، لا حدود لها، فضلا عما تكشفه الأخلاق الحسنة وتؤكده من سمو وعلو وامتثال.

---

(١) خلق المسلم ص١٥ .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه الطبرانى .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : "سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل النـاس الجنة فقال: تقوى الله وحسن الخلق"[١]٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسـول الله ﷺ : " إن الله رفيـق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى علـى سواه" [٢]٠

إن الأخلاق الحسنة سياج واق لكيان المسلم، فلا يعتدى على الآخرين، ولا يمارس الآخرون طغيانا عليه. وقد كانت هذه السلوكيات محل عناية واهتمام عند الكثيرين، من عباد الرحمن المخلصين، فإذا ما تحلل منها مسلم، فلا يلـومن إلا نفسه بعدما أساء إلى دينه ودنياه٠

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح ، وجاء فى الرواية ذاتها استكمالا لمـا ذكـر الآتى: وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الفم والفرج"٠
(٢) رواه مسلم ٠

٩ ـ الدعوة إلى الإصلاح بين الناس

يشكل المجتمع الإسلامى كلا متكاملا، تتوحد فيه الرؤية للإصلاح بين الناس، والدعوة إلى إزالة الكراهية، وفض المنازعات، وتحقيق الهدوء الخلقى فى منظومة العلاقة بين طوائف المجتمع وتركيباته، على اختلاف أعمارها وتوجهاتها •

وينهض عباد الرحمن فى كل عصر بالقيادة والريادة لغيرهم، ممن يحيطون بهم، ويتعاملون معهم، ويتوجهون وفقا للمعايير الشرعية التى يحكمها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة •

١ ـ دعوة الإسلام إلى الإصلاح بين الناس:

إن الإسلام رسالة اجتماعية تمتاح هديها وبيانها من القرآن والسنة، وفى مجال العلاقات بين الناس كان الوحى الإلهى معنيا بالدعوة إلى فض الخلافات، وتهدئة النفوس، وغرس بذور الوفاق بين التركيبة الاجتماعية مع اختلاف توجهاتها، ودواعى الخير والشر فيها، وذلك ما ذكره القرآن صراحة فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١] •

وقد ذكر القرطبى فى أمر الإصلاح بين الناس أنه: "عام فى الدماء والأموال والأعراض، وفى كل شئ يقع التداعى والاختلاف بين المسلمين، وفى كل كلام يراد به وجه الله تعالى"[٢] •

ويحرص عباد الرحمن المتقون على أن يكون الهدف من تداخلاتهم مع الآخرين هو الإصلاح بين النفوس المتباعدة، وإزالة الخلافات المتداعية بأسلوب هادئ رصين، تغلب عليه الكلمة الطيبة، والنصيحة الهادئة، والحكمة الرشيدة، حتى لو سار الحديث بهم غير مطابق للواقع ما دام الهدف من توجيهه هو إزالة الشحناء والبغضاء من النفوس •

٢ ـ بعض الطوائف الاجتماعية التى يوجه إليها الإصلاح:

إذا كان الإصلاح بين الناس خلقا إسلاميا فاعلا، ومؤثرا، ينهض به عباد الرحمن وسائر المسلمين، فإن التدخل للإصلاح يوجه إلى كثير من الفئات

---

(١) النساء ١١٤ •

(٢) القرطبى جزء ٥ ص٣٨٤ •

والأنماط الاجتماعية، التى تعجز كثيرا عن الفصل فيما ينشب بينها من صراعات حول رغائب الحياة، ومن ثروات وطموحات، وأمال كبار، يرى كل مؤمن أنه جدير باستحقاق ما يسعى إليه.

وأول من يستحق التدخل للإصلاح هم الأخوة المؤمنون الذين تتكامل بهم الوحدة الإسلامية، توصلا إلى توحد أشمل تزداد به الأخوة الإيمانية تماسكا وامتزاجا، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] .

ثم يوجه الإصلاح أيضا إلى الأزواج والزوجات فى حدود المعيار الإسلامى لعلاقة الرجل بالمرأة المبنية على التقوى والمعروف، فإذا ما استشعرت المرأة انحرافا فى ميزان العلاقة الزوجية كان لها ــ وللزوج أيضا أن يخضعا للتحكيم العادل ، الذى يتحقق به الصلح والإصلاح بعدل وإنصاف ، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ ﴾[2].

إن الإصلاح بين الزوجين مسألة شاقة لا ينهض بها إلا العدول من أفراد الأمة ، إذ أن هذه العلاقة مرتبطة بعقد أو بميثاق غليظ له من القداسة والتقدير ما يجعل الخوض فى هذا الأمر مسألة خطيرة، لا يرقى إليها إلا المخلصون من أهل الزوجين؛ ليكون هذان المصلحان بمثابة حكمين يسعيان إلى الإصلاح بين الرجل وزوجته، لأن القداسة فيها راجعة إلى ما يترتب عليها من آثار، ونشوء علاقات جديدة ، تعود إلى أهل الزوج، وكذلك إلى أهل الزوجة.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ ﴾[3].

إن الخضوع للصلح بين الزوجين ينبغى أن يكون عند ظهور بدايات الخلاف والشقاق، وليس فى زمن انهيار العلاقة المقدسة، تقديرا واحتسابا لما بينهما من صلات ذات أبعاد متعددة.

---

(١) الحجرات ١٠ .
(٢) النساء ١٢٨ .
(٣) النساء ٣٥ .

ويأتى الإصلاح بمعنى التنشئة الصحيحة والإعداد القويم وإصلاح الشأن فيما يتصل باليتامى، الذين يحتاجون إلى العون والمساعدة، فى ظل غياب الوالد، وافتقاد من يتولى رعاية اليتيم، ابتغاء مرضات الله ·

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ ﴾[(١)].

لكن الإصلاح فى معناه العام لا يقتصر على هذه الأنواع، أو الشرائح الاجتماعية، وإنما يشمل الناس جميعا حتى لو كان غير متوافقين مع خصائص عباد الرحمن ، فقد قال النبى ﷺ لأبى أيوب ، "ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا"[(٢)].

٣ ـ مع الإصلاح قولا وسلوكا:

لا يتحقق الإصلاح بين الناس فى ظل الأهداف النبيلة والأخلاق السامية ــ لا يتحقق بالإكراه والقسوة، وإنما يتوافق هذا التوجه مع قدرات أى شخص فى إزالة الرواسب الراسخة فى أعماق النفوس المتباعدة، إذ أن الإصلاح فى إطاره العام يكون محكوما بعدالة المصلح، واستعداد الخصوم للحوار الهادف، والقول الحسن، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ ﴾[(٣)].

وإذا ما تحقق الإصلاح وهدأت النفوس، واستقامت الحياة فإنه من الخطورة أن ينقلب الحال، أو يتبدل الموقف من الإصلاح الذى تحقق إلى الإفساد الناشئ بحمق وكراهية، واصطياد فى الماء العكر، كما يقولون، إذ أن بعض العائلات فى حياتها المعاصرة تنمو بين أفرادها بذور الكراهية، أعواما ثم تهدأ النفوس، ويتم الإصلاح، ولكن الموقف يمكن أن يشتعل من جديد فى ظل نماذج بشرية لا ترغب فى الهدوء ، وتسعى إلى الإفساد بين عناصر المجتمع ·

قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ﴾[(٥)] ·

---

(١) البقرة ٢٢٠ ·
(٢) تفسير القرطبى جزء ٥ ص٣٨٥ ·
(٣) هود ٨٨ ·
(٤) هود ١١٧ ·
(٥) الأعراف ٨٥ ·

وتبقى ثمرات الإصلاح بين الناس باقية خالدة فى صحائف عباد الرحمن، إذ لا تضيع مجهوداتهم ومداخلاتهم؛ لإزالة ما يترسب فى النفوس المتنافرة ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[١] .

وتلك الخصائص على اختلافها تشكل أساسا راسخا وقواعد ثابتة، للانطلاق منها لفض المشكلات بين الناس، والإصلاح فيما بينهم.

---

(١) الأعراف ١٧٠ .

١٠ـ الزهد فى الدنيا، والعمل للآخرة

تفرض طبائع الحياة أن يحسن الإنسان تدبير أحواله، وتصريف أفعاله بما لا يوقعه فى الأخطاء والتجاوزات ،التى نهى الشرع الحكيم عنها، بحيث تـأتى الحياة فى قالب متوازن بين الحذر من الدنيا، والزهد فـى مغرياتهـا، والعمـل للآخرة والاستعداد لها، ذلك أن عباد الرحمن يجمعون بين اعتدالهم فـى الزهـد الدنيوى، واتزانهم واتخاذهم الحذر مع ما فى الدنيا من ملهيات ومغريات.

١ـ حقيقة الزهد:

قال ابن تيمية عليه رحمة الله " الزهد ترك ما لا ينفع فى الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره فى الآخرة ".

وقيل: إن الزهد هو خلاف الرغبة فى الدنيا، وهو بمعنى العـزوف عـن المباح مع القدرة عليه؛ تهذيبا للنفس المؤمنة، وإيثارا لنفع الآخرين.

وقال بعض الحكماء: من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد، وذلـك لأن الزهد يكون أولا فى المال، ثم فى الطعام، ثم فى اللباس، ثـم فـى الاسـتئناس بالناس[١].

ولا ينبغى أن يفهم الزهد على أنه الكراهية المطلقة للحياة، والاقتصار على العبادة، إذ أن دعوة الإسلام إلى الزهد تنصرف إلى تحكم الإنسان فـى ذاتـه، وانتصاره على شهواته، وسعيه للعيش فى الحياة، دون أن يكون ذليلا لها، منقادا لملذاته فيها، وذلك على حساب تقصيره فى العمل للآخرة، مكتفيـا فـى زهـده بالقليل، قانعا بما يسره الله له، فلا يحزن على ما فاته منها، ولا يقصر فى تعامله معها، وإنما يأخذ حياته مأخذ الجد والمثابرة، بحيث ينتصر على ذاته، ولا ينهزم أمام المغريات، ويفوض الأمر لربه سبحانه وتعالى، ويوقن أن وجوده فى الدنيا إلى فناء، وأن استقراره فى الآخرة إلى بقاء، فعن كعب بن عيـاض ﷺ قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتى المال"[٢].

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[٣].

---

(١) انظر من وصايا الرسول صـ٦٤٥ .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) فاطر ٥ .

إن من خصائص عباد الرحمن أنهم يرضون بما قسمه الله لهم من عطاء، ويقنعون بما فتح الله عليهم من جاه، فلا ينظرون إلى ما ليس فى أيديهم، ويبقى نشاطهم فى الدنيا موسوما بالقناعة والرضا٠

فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما أتاه"(١)٠

٢ـ معيار الزهد فى الدنيا فى ضوء القرآن والسنة٠

تخضع مسيرة عباد الرحمن فى ضوء القرآن والسنة، للتوازن بين الزهد فى الدنيا، وعدم الانخداع بها، والحذر من الآخرة، وضرورة العمل لها، وهذه بعض مثبطات المناعة الزهدية التى قد تتأثر بما فى الدنيا من أموال وأولاد، ومراكز متميزة ووجاهة اجتماعية بارزة؛ لأن تلك الأمور يمكن أن تغير من سلوكيات الناس، فيقعون تحت سطوة أمور الدنيا، ويعجزون عن مواجهتها، فينسحبون إلى رغائبهم، التى تؤثر فى مقياس زهدهم، خاصة مما يشاهدونه فى أيدى الناس٠

وهذه بعض أحاديث الزهد منها ما رواه أبوالعباس سهل بن سعد الساعدى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : "يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس قال: ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"(٢)٠

وفى الحديث عن فتنة الدنيا روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقه بورك له فيها، ورب متخوض فيها فيما اشتهت نفسه، ليس له يوم القيامة إلا النار"(٣)٠

على أن الدنيا مهما سيطرت على الإنسان، وأفقدته جزءا من ورعه وتقواه، بسبب ما بها من مغريات، فإن الاستمتاع بها ــ مهما طال مداه ــ قليل بالنظر إلى نعيم الآخرة الأكبر، خاصة فى حق عباد الله المتقين ٠

قال تعالى:﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾(٤)٠

---

(١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة٠
(٢) رواه ابن ماجة٠
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير، ورواته ثقات٠
(٤) النساء ٧٧ ٠

٣ـ هل يتعارض الزهد مع حركة الإنسان فى الحياة؟

إن الإسلام دين ودنيا، عقيدة وعمل، دين يراعى متطلبات الإنسان فى الحياة، ويحثه على استعداده للآخرة، بمعنى أن المسلم يسعى فى زهده للدنيا وحذره من حساب الآخرة مدركا أن التواجد الدنيوى ينصرف كثيرا إلى اللهو واللعب، بينما الآخرة هى دار الحياة الحقيقية.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[١].

إن الزهد ليس معناه على الإطلاق أن يتفرغ المؤمن للعبادة، أو أن يحيا بالمسجد دائما، أو أن يتواصل صومه ليلا ونهارا أو أن يسهر للعبادة دائما، أو يقاطع النكاح فلا يتزوج، إنه مطالب بأن يكون عضوا قانعا راضيا، وقد قال سيدنا عمر ﷺ "لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لم تمطر ذهبا ولا فضة".

٤ـ الزهد فى بعض أمور الحياة

تحدث أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ عن الزهد فيما هو من ضرورات الحياة وذكر منها: المطعم، الملبس، المسكن، أثاث البيت، النكاح، المال، الجاه وهما ملك القلوب ويعدان[٢] وسيلة إلى الأمور الخمسة الأولى.

ومعنى الجاه: ملك القلوب بطلب محل فيها؛ ليتوصل به إلى الاستعانة فى الأغراض، والأعمال، وكل ما لا يقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته، وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة فى قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر، لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه"[٣].

وهذه الأمور تفترق فى التأثر بها والتحكم فيها أو السيطرة عليها من شخص إلى آخر، والزاهدون الأقوياء هم الذين يهزمون رغائبهم، ويسيطرون على شهواتهم، فلا ينخدعون بأطعمة فاخرة، أو بملابس راقية، أو بمساكن متميزة، أو بأثاث لمنازلهم المتحضرة، كما لا يجعلون النسب فى النكاح وسيلة إلى غاية مكبوتة، أو غير معروفة.

---

(١) العنكبوت ٦٤ .

(٢) أى : المال والجاه .

(٣) إحياء علوم الدين جزء ٤ ص٢٣٤ .

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢).

كما أن السعى فى الحياة ضرورى لتواصل الأجيال، فعن النبى ﷺ أنه قال "ما أكل أحد طعاما خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داؤد كان يأكل من عمل يده"(٣).

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: "يتبع الميت ثلاث أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله"(٤).

لم يوجه الرسول ﷺ الزاهدين من عباد الرحمن إلى الانقطاع للعبادة، والتفرغ لها، والانصراف عن السعى فى طلب الرزق، كما أن الزهد – فى حقيقة الأمر – ليس تقشفا أو ارتداء عمامات ملونة، أو ألباس مرقعة، أو ترك أعضاء الجسم بلا صيانة أو تنظيف؛ لأن الذين يفعلون ذلك عن قصد أو عن غير قصد واهمون فى فهمهم لمعنى الزهد، لكن التعامل مع معطيات الحياة يكون اكتفاء بالقليل منها، والابتعاد عن الصراع والتنافس على المال فيها، ولنتذكر مقولة أحد الحكماء وهى: "الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة" ولنتدبر دوما دعاء النبى ﷺ الذى قال فيه: "اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى إليها ميعادى، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر"(٥).

إن الزهد فى الدنيا خلق إسلامى يلتزم به، ويحرص عليه صفوة المؤمنين من عباد الرحمن، الذين يترجمون بسلوكياتهم ما يجيش فى صدورهم من مراعاة التوازن بين الاعتدال فى الإقبال على الدنيا، والعمل للآخرة.

---

(١) النور ٣٧.
(٢) المنافقون ٩.
(٣) رواه البخارى وغيره.
(٤) رواه البخارى ومسلم ،وكذا رواه الترمذى والنسائى.
(٥) أخرجه مسلم.

١١ ـ التحدث بنعم الله تعالى

يبقى عباد الله المخلصون فى تواصل مستمر مع المولى سبحانه وتعـالى من خلال نعمه الكثيرة، التى تفضل بها عليهم، ولكن بعضا من الناس يغفلون عن عطاءات الله، التى ينبغى أن يشكروه عليها، فهم يتعاملون بها فى الليل والنهار، ولا ينتبهون لها إلا إذا سلبت منهم، فيعودون إلى وعيهم الإيمانى، شاكرين ربهم على ما منحه لهم، ومتحدثين بنعم الله عليهم إلى من يرون فيهم هداية ورشـدا، وإيمانا وتقوى.

١ ـ بيان النعمة، وأنواعها، واستحالة حصرها.

ذكر أبو حامد الغزالى: النعمة وأقسامها قائلا فى بيان حقيقتها: "اعلـم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمـة، لكـن النعمـة بالحقيقة هى السعادة الأخروية"(١).

ومفاد ذلك أن كل مطلوب للبشر يستفيد منه ، ويستمتع به، يسمى نعمـة، أما السعادة فى الآخرة فإنها أعلى درجات النعم، ولذلك اعتبر أن تسمية ما عداها بأنه نعمة هو إطلاق جوازى واتساع فى بيان النعمة ومفهومها.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾(٢).

وقال تعالى:﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾(٣).

إن أول ما يأتى الحديث عنه فى شأن النعم، هو تذكرها والاعتراف بهـا، خاصة إذا ارتبط فقدانها بالسعادة الأخروية، إذ أنها فى قمـة نعـم الله سـبحانه وتعالى.

وتشهد مسيرة الدعوة الإسلامية فى إتمام النعمة لأمة الإسلام باكتمال نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ذلك ما استقبله فى المرحلة الأخيرة من حياتـه حيث نزل عليه قول الله تعـالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين جزء ٤ ص٩٦ .
(٢) آل عمران ١٠٣ .
(٣) إبراهيم ٦ .
(٤) المائدة ٣ .

كما أن نعم الله لكثرتها ولتنوعها ولمطابقتها للإنسان والزمـــان يصـــعب حصرها وإحصاؤها، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[١].

تلك النعم الكثيرة منها: الأموال والأولاد والأزواج التى ينبغـــى التحـــدث عنها، وعدم التجاهل لها، واعتبارها بمثابة فتنة، أو امتحان لمدى سيطرة الإنسان على نفسه ·

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٢].

وقال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[٣].

كما أن من نعم الله تعالى ــ فضلا عن المال والجـــاه والأبنـــاء ــ نعمـــة الصحة والقوة وطول العمر، أما الهداية والرشد والتأييد والتسديد فلا خلاف فـــى كونها من أعظم النعم[٤] ·

إن معونة الله تعالى للانسان تقفز به إلى أعظم النعم وأجل الهدايات، مـــا دامت المعونة الإلهية تحوطه وتشمله ولذلك قيل:

إذا لم يكن عـــون مـــن الله للفتـــى ∴ فأكثر مـــا يجنـــى عليـــه اجتهـــاده

ذلك أن الهداية الربانية تعد فى أعلى درجات النعم، ثم تنضم إلى هذه النعم عطاءات إلهية أخرى مثل، الطعام والجمال وحواس الإنســـان،قال تعـــالى:﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[٥].

٢ ـ التحدث بالنعم·

إن حديث الإنسان عن نعم الله عليه إقرار بولائه لربه واعتراف بنعم الله سبحانه وتعالى عليه، مصداق ذلك ما جاء فى القرآن الكريم بحق رسولنا (ﷺ) قال تعـــالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[٦].

---

(١) إبراهيم ٣٤، والنحل ١٨ ·
(٢) المنافقون ٩ ·
(٣) الأنفال ٢٨ ·
(٤) انظر : إحياء علوم الدين جزء ٤ ص١٠٥ ·
(٥) الإسراء ٣٦ ·
(٦) الضحى ١١ ·

إن ما اختص الله به رسوله ﷺ من نعمة وكرامة تقتضى كلها أن يتحدث بها ﷺ ؛ للإقرار بحق الربوبية عليه ﷺ ٠

ويتواصل الأمر الإلهى بالتحدث عن نعمة الله، وعدم الغفلة عنها، وحتمية ذكرها، وعدم نسيانها، كما أن رسالة الإسلام توجه البشر إلى حتمية التواصل الإيمانى مع النبى ﷺ ومن خلاله؛ استهدافا للاقتراب من الله سبحانه وتعالى، والحياة تحت ظلال رحمته وغفرانه، وأن مقتضيات الحديث بنعم الله أن يتمتع الإنسان بها تمتعا معقولا بلا إسراف وخيلاء، أو شح وتقتير ٠

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: "إذا أصبت خيرا، أو عملت خيرا، فحدث به الثقة من إخوانك"[١].

إن التحدث بنعم الله تبارك وتعالى خلق من أخلاق القرآن، وتوجه يستظل به عباد الرحمن، كما جاء فى حديث الله للرسول فى سورة الضحى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢] ، "أى ما جاءك من الله تعالى من نعمة وكرامة كالنبوة أو القرآن، أو جميع الخيرات الأخرى، فحدث بها واذكرها وادع إليها"[٣].

وقد توسع الدكتور الشرباصى ــ رحمه الله ــ فى بيان التحدث بنعمة الله فذكر فى هذا الأمر قولين: "أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، وقوله: أنعم الله على بكذا أو كذا. قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعم عليك فى هذه السورة، من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة .... والقول الثانى: أن التحدث بالنعمة المأمور به فى هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة"[٤].

ورأى آخرون أن النعمة التى أمر الرسول بالتحدث بها : هى النبوة، أو تبليغ الرسالة، أو القرآن، والرأى أن التحدث بالنعمة فى حق الرسول يعم ويشمل النوعين السابقين، إذ أن كلا منهما نعمة ينبغى شكرها والتحدث بها، وعلى عكس التحدث بها يكون جحودها وإنكارها، خاصة إذا كانت نعمة من الله تبارك

---

(١) القرطبى جزء ٢٠ ص١٠٢ ٠
(٢) الضحى ١١ ٠
(٣) موسوعة أخلاق القرآن جزء ٦ ص٨٥ ٠
(٤) موسوعة أخلاق القرآن جزء ٦ ص٨٨، ٨٩ ٠

وتعالى،فقال القرآن فى حق هؤلاء المنكرين: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١]٠

٣ ـ الحفاظ على النعم٠

إن الحفاظ على النعم التى تكرم الله بها على عباده يقتضى صيانتها، ففى نعمة المال يتحتم عدم إضاعته، ووجوب إخراج الزكاة وإنفاقه فى الوجوه التى نص الشرع عليها، كما ينبغى ــ فى ظل الثقة بالله ــ الرضا بقضاء الله والعيش فى هدوء وثقة، وتقدير للآخرين، ذلك أن بعض عطاءات الله تكون بمثابة اختبار أو ابتلاء للإنسان، وعليه أن يتحصن بالقناعة والرضا، وأن يقر بنعم الله عليه، أو بالنعم التى يسوقها الحق من خلال البشر، الذين يكونون سببا فى إيصال الخير لجماعة المسلمين؛ لأن منظومة المجتمع الإسلامى تهدف إلى التكافل والتضامن، والإقرار بما لله سبحانه وتعالى تجاه البشر، كما يلحق بذلك الخير أو النعمة، التى تساق من إنسان لآخر، بلا من ولا أذى، ومن تمام الحفاظ على النعم أيضا التوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر والثناء٠

وقد تحدث صاحب ظلال القرآن عن هذا الأمر فقال: "وأما التحدث بنعمة الله ــ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ــ فهو صورة من صور الشكر للمنعم يكملها البر بعباده، وهو المظهر العملى للشكر، والحديث الصامت النافع الكريم، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢] ٠

إن متطلبات الإيمان تقتضى التحدث بنعم الله، وتوجيه الشكر إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى العباد، والاستفادة من متع الحياة والإقرار بها، والتحدث عنها، والدعاء إلى الله بأن يبارك فيها، وأن يوفق المؤمن إلى حسن التعامل بها، وعدم إنكارها، والغفلة عنها، وعلى الله قصد السبيل٠

---

(١) النحل ٨٣ ٠

(٢) الأحقاف ١٥ ومعنى أوزعنى: أى ألهمنى ٠

١٢ ـ الحرص على العلم، وتبليغه إلى الراغبين فيه

بدأت الدعوة الإسلامية فى زمن قطع الإنسان فيه شوطا من الرقى والتحضر، فجاء الوحى داعيا الإنسان إلى القراءة والمعرفة، التى سيصل من خلالها إلى اليقين الإيمانى بذات الله العليا.

فكان الصحابة فى السنوات الأولى من عصر المبعث يلتفون برسول الله ﷺ فى دار الأرقم، أو فى موضع آخر، للاستماع إلى الجديد من الوحى والتعرف على إيضاح الرسول لبعض ما غمض عن المسلمين الأوائل.

١ ـ دعوة الإسلام إلى العلم

تبرز السنة النبوية إلى جانب الوحى القرآنى خصائص الدعوة الإسلامية فى الحض على العلم.قال رسول الله ﷺ :"طلب العلم فريضة على كل مسلم"[١] .

إن هذه الفريضة التى تعامل معها عباد الرحمن بكل همة ونشاط، وعزيمة وإصرار، حيث كانوا حريصين معها على تلقى الجديد من الوحى إلى رسول الله ﷺ الذى كان يشرح لهم ما غاب عنهم، ويفقههم فى دينهم، ولذلك تكرر كثيرا فى القرآن الكريم لفظ "ويسألونك" وهذه الأسئلة كانت توضيحا وتبيانا، لما غاب عنهم فى دعوة الإسلام، وكانوا يأتون إلى رسول الله (ﷺ) جماعات وأفرادا؛ لعرض ما فى حوزتهم من أسئلة، ولإزالة ما يكتنف عبادتهم من غموض، وكانوا على يقين تام بأن ما عرفوه يعد قليلا بالنظر إلى طموحاتهم الكبيرة فى العلم والمعرفة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٢].

وكانت البعوث أو الوفود تأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ للتفقه فى الدين والعودة إلى أقوامهم؛ لينهضوا بدور التعليم لمن لم يمكن إلى الاستماع من الرسول، والتعرف على الجديد فى مسيرة الدعوة الإسلامية.

قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾[٣].

---

(١) أخرجه البيهقى وابن عبدالبر، وغيرهما، ورواه أحمد فى العلل .
(٢) الإسراء ٨٥ .
(٣) التوبة ١٢٢ .

وروى عن معاوية ﷺ أن النبى ﷺ قال: "من يرد الله به خيرا يفقهه فـــى الدين، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمـــر الله، ولا يضرهم من خالفهم، حتى يأتى أمر الله"(١).

وأشارت أحاديث الرسول ﷺ إلى تفضيل العلماء على غيـــرهم ممـــن لا يعلمون، وإن الله سبحانه وتعالى يرفع شأنهم، لما للعلم من سبيل، لزيادة خشيتهم واقترابهم من الله سبحانه وتعالى.

وتحدث القرآن الكريم عن العلم والعلماء باتساع وإفاضة، حتى كان لفــظ العلم من أكثر الكلمات ورودا فى كتاب رب العالمين، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾(٢) وقـــال عـــز مـــن قائـــل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾(٣).

٢ ـ السعى فى طلب العلم.

تعانى الأمة الإسلامية فى وقتها الراهن من أمية دينية، تسفر غالبـــا عـــن مردود سيئ لتوجهات الخطاب الدينى، الذى يتوخـــاه ويحـــرص علـــى تنقيتـــه وترشيده الصفوة من العلماء، الذين يناط بهم مهمة التبليغ والتذكير لسائر عمـــوم المسلمين، ذلك لأن التواصل بين الأجيال يحتم بذل الجهد مع اخـــتلاف أنواعـــه لبقاء العلم؛ شعارا لأمة (اقرأ) فى تحدياتها مع الآخرين، هذا التحدى يتواكب مع حتمية تنمية المعرفة، وزيادة المدخر الثقافى عند عباد الـــرحمن، فـــى حيـــاتهم الحديثة، وقد تجلى ذلك فى مسيرة الدعوة عبر رحلتها الطويلة التى امتدت إلـــى واقعنا المعاصر، وأنها سوف تبقى ذخرا عند هؤلاء فى مستقبل الأيام.

لقد تحتم التفهم الكامل لخصوم العقيدة فى سائر أنحاء الكون؛ لأنهم ربمـــا يكونون معنيين بفصل الواقع المعاش عن الموروث الثقافى والعلمى، الذى نعتز به ونحرص عليه .

(١) رواه البخارى ، وابن ماجه، وغيرهما وفى التاج (رواه الأربعة).
(٢) الزمر ٩ .
(٣) المجادلة ١١ .

وقد عرضت السنة النبوية لكثير من متطلبات العلم بها فى تحويل المعرفة العلمية فى سائر علوم الدين والدنيا إلى تماسك اجتماعى، يرتقى بالأمة إلى مرحلة يشتملها الله سبحانه وتعالى بالرحمة والتماسك والترابط، والإخاء والتيسير، وتلقى العلم وحسن فهمه، ونشره على الراغبين فيه .

فعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده(١)، ومن بطأ به عمله(٢) لم يسرع به نسبه"(٣).

وهذا حديث آخر رواه أبوالدرداء الذى كان موجودا فى دمشق، فجاء إليه رجل من أهل المدينة فقال له أبوالدرداء: ما أقدمك؟ قال: ما جئت إلا لحديث سمعته عنك: قال أبوالدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها(٤) رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض، حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا

---

(١) وذكرهم الله فيمن عنده: أى فى الملأ الأعلى، لرفع شأنهم، ومجموع هذه المعانى الأربعة هى الروضة الواردة فى حديث الطبرانى وغيره: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا يا رسول الله . وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلم. من هامش التاج الجامع للأصول كتاب العلم حـ١ ص٥٣ .

(٢) أى أخره عمله السيئ .

(٣) أى لم ينفعه نسبه الشريف العالى قال تعالى : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ المؤمنون (١٠١) وهذا الحديث رواه مسلم وأبوداود والترمذى، وهو شأن عظيم لمجالس العلم والعلماء.

(٤) أى تكف عن الطيران، وتحف المشتغلين بالعلم، فتقتبس من رحمتهم، وأنوارهم (من هامش التاج جزء ١ ص٥٣) .

العلم،[١] فمن أخذ به[٢] أخذ بحظ وافر"[٣]۰

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع"[٤]۰

وقال ﷺ : "اطلبوا العلم ولو بالصين"[٥]۰

إن حديث الرسول عن الأمر بطلب العلم حديث عام، لا يقتصر على بلد بعينه، وإنما تأتى مهمة المعرفة من حتمية السعى إليها والأخذ بها من أى إنسان، وفى أى مكان، ما دامت صحيحة صادقة، ولا تتعارض مع شرع ولا علم، وإن ذكر الصين ليس إلا إشارة إلى حتمية تحمل المصاعب وبذل النفقات للوصول إلى المعرفة، مهما طالت المسافة إليها۰

٣ـ أهمية تبليغ العلم۰

لا يقتصر تلقى العلم على مرحلة دون أخرى، وأن هذا التلقى يكون بالقراءة، أو الاستماع، أو المشاهدة، ومتى زادت قدرات الشخص ومعارفه أصبح مطالبا بتبليغ ما تحصل عليه إلى غيره من الناس۰

فلما كان الوحى ينزل فى زمن البعثة كان الصحابة يجلسون إلى رسول الله، ويستمعون إلى تفسيره للقرآن الكريم، وإلى تحصيل المعرفة منه سواء أكان ذلك عن طريق القول، أم الفعل، أم الإقرار، أم الصفة، التى يكون عليها رسول الله ﷺ ۰

وتواصلت الأجيال مع العلم الذى ازداد تشعبا وعمقا، وفقا للمتطلبات الحضارية للدين الإسلامى. فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى (ﷺ) قال: " بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"[٦]۰

---

(١) أى تركوه للعلماء۰

(٢) أى بالعلم ۰

(٣) أى بنصيب عظيم ودرجة رفيعة فى الدارين ــ رواه أبو داود والترمذى، واللفظ له (بسند منقطع) وقال البخارى: إن له سندا آخر أصح من هذا (من التاج)۰

(٤) رواه الترمذى وقال : حديث حسن ۰

(٥) رواه ابن عدى، والبيهقى فى المدخل والشعب، من حديث أنس، وقال البيهقى متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة ۰

(٦) رواه البخارى وأحمد والترمذى، ومعنى ولا حرج: فى الحديث: أى بلا ضيق، ولا تحفظ ولا إثم عليكم، وهذا فيما لم يرد فيه نهى ۰

وقد كتب الماوردى عن عدم كتمان العلم وضرورة إذاعته ونشره فقال: "ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون ، فإن البخل به[١] لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسود لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل، وأتوه عفوا من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشح، لما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى، ولو استن بذلك من تقدمهم، لما وصل العلم إليه، ولانقرض عنهم بانقراضهم، ولصاروا على مرور الأيام جهالا"[٢].

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: "لا تمنعوا العلم أهله، فإن فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[٣].

وروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: "من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"[٤].

٤ ـ قيمة العلماء ورسالتهم فى الدين والحياة.

إن طريق العالم إلى المعرفة ينبغى أن يكون غاية إلى هدف عام يخدم العقيدة، بأن يكون العلماء قدوة لغيرهم، ونموذجا للأتقياء الذين يتحولون إلى نور وضياء للآخرين بهدف اتقاء الله وخشيته وتبصير الناس بما غاب عنهم، وتذكيرهم بحتمية التماسك، والتقوى بأنوار المعرفة واليقين، ويكون ذلك ابتداء فى مجال الدعوة.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٥].

وقال الرسول ﷺ : "الدال على الخير كفاعله"[٦].

---

(١) فإن البخل به : أى بالعلم .

(٢) أدب الدنيا ص٩٤، ٩٥ .

(٣) البقرة ١٥٩ .

(٤) رواه أبو داود ،والترمذى، وابن ماجة .

(٥) فصلت ٣٢ .

(٦) رواه الترمذى ومسلم وأبوداود .

وتبقى آية العلماء (فى سورة فاطر) واضحة جلية فى بيان أهمية العلماء، وأنهم ــ بخاصة ــ هم الذين يخشون الله سبحانه وتعالى حق خشيته من بين عباد الرحمن،قال تعالى:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾(١).

وعن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: إن الله لا يقبض العلم انتزاعــا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخــذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"(٢).

ولذلك يجب أن يترفع العلماء عن الوقوع فى الصغائر؛ لأنها تعد بالنســبة لهم مثل الكبائر، فهم محل نظر، ومتابعة من الآخرين، خاصــة علمــاء الفقــه والإفتاء حيث يمثلون الصفوة بين علماء الإسلام؛ لما يترتب على أرائهــم مــن تحريك لرؤية الآخرين، وتثبيت المتشككين فى الأمور والــذين يبحثــون عــن الحقيقة، ولا يرضون بديلا عنها، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: "خيار أمتــى علمائها، وخيار علمائها فقهاؤها"(٣).

وقد أثبت سيدنا رسول الله ﷺ شيئا من خلق العلماء، واختص العدل لما له من دور فى بيان صحة الحديث وعدمه، كما يتحتم فى ضوء قول الرسول عــن اتصاف العلماء بالأمانة فى النقل، والصدق فى القول؛ لما ينهضون به من تحقيق الأقوال ونفى التحريف، وإبطال الوضع والتأويل، والكذب فعــن رســول الله ﷺ قال: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"(٤) .

٥ ـ أخلاق العلماء.

يجب أن يتحلى العلماء بالأخلاق الحميدة مثل الأمانة والعدالة، والصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، والالتزام بما يقولون، وعدم التناقض، والحــرص على زيادة المعرفة؛ حتى تبقى رسالتهم حية متجددة يتوارثها الناس من بعــدهم

---

(١) فاطر ٢٨ .

(٢) رواه الشيخان والترمذى، (فى رياض الصالحين متفق عليه).

(٣) أورده الخطيب البغدادى، وذكره ابن الجوزى، وهو فى جمع الجوامع بــرقم (١٣٦٩٤) جزء ٢ ص١٧٣٦ .

(٤) أدب الدنيا ص٤٤ .

سواء أكان ذلك متعلقا بعلوم الدين، كالفقه أم بعلوم الدنيا، التى يكون الهدف منها خدمة الإنسان، وتبصيره بأمور دينه ودنياه.

وعلى المسلم أن يتحمل مشقات طلب العلم، وإكرام العلماء (المعلمين) والصبر على شدتهم، وهم ينقلون ما عرفوه إلى الذين سيتحملونه عنهم، فى قابل الأيام، وأن المسلم الحريص على العلم عليه الاجتهاد القويم، والنظر إلى المتميزين فى هذا السعى، والاقتداء بهم، وتمنى أن يكون له مثل ما عندهم .

فعن ابن مسعود ﷺ أنه قال: قال رسول ﷺ "لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها، ويعلمها"[١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وقد بين الشافعى ـ رحمه الله ـ كل علم من علوم الدنيا، إذ أنها تمثل تعضيدا، أو تقوية لمعرفة علوم الدين"[٣].

لا يقتصر تفضيل الله للعلماء على معيشتهم فى الدنيا، وإنما يستمر ذلك، ويتواصل من خلال ميراثهم، الذى ينقل إلى الأجيال من بعدهم، قال رسول الله ﷺ : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[٤].

وأن العالم الحريص على علمه لا يكتفى بالقليل، وإنما يحرص دوما على زيادة معرفته وثقافته، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٥].

كان الرسول دائما يختبر ما عند أصحابه من العلم، فيسألهم، وينتظر الإجابة، وربما يعرفون، وقد تغيب عنهم المعلومة، فيذكرها لهم رسول الله ﷺ

---

(١) متفق عليه، وأخرجه البخارى فى باب الاغتباط فى العلم .
(٢) الزمر ٩ .
(٣) راجع تفصيل ذلك فى أدب الدنيا والدين ص٤٥ .
(٤) رواه مسلم ـ ورواه البخارى والنسائى .
(٥) طه ١١٤ .

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [1] .

يتبقى علينا أن نؤكد فى هذا الموضوع حتمية السعى فى طلب العلم، وتنمية المعرفة، وتوجيه ذلك إلى خدمة الدعوة، على أن ينهض كل مؤمن فى فرع العلم الذى اختاره وسار فيه، وألا يقحم نفسه فيما يغيب عنه. إذ أن كل واحد مهيؤ لمجموعة من الخصائص التى تميزه عن الآخرين.

إن النجاح والتقدم فى العلم — على اختلاف دروبه وألوانه — مهم فى مسيرة الدعوة ، لما يترتب على ذلك من تماسك وتقدم وازدهار، لا ينعكس على فرد بخاصة، وإنما يتواصل إلى سائر عباد الله، الذين ينبغى عليهم أن يستمعوا إلى القول، فيتبعوا أحسنه، والله ولى التوفيق.

---

(١) العنكبوت ٤٣ .

كتب للمؤلف

الكتاب	تاريخ الطبع
١ - شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى.	١٩٨٤
٢ - ياقوت الحموى أديبا وناقدا.	١٩٨٨
٣ - امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين.	١٩٨٩
٤ - الغموض فى شعر أبى تمام.	١٩٨٩
٥ - شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام.	١٩٨٩
٦ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الأولى).	١٩٨٩
٧ - من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى .	١٩٩٠
٨ - من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى.	١٩٩١
٩ - أوزان الشعر - دراسة فى العروض والقافية.	١٩٩٤
١٠ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية)	١٩٩٥
١١ - دراسات فى الأدب الجاهلى.	١٩٩٨
١٢ - أطوار الأدب العربى فى العصر الإسلامى.	١٩٩٩
١٣ - دراسات فى الأدب الأندلسى.	١٩٩٩
١٤ - مناهج البحث فى الأدب واللغة والتربية.	٢٠٠٠
١٥ - رحيق المعرفة.	٢٠٠١
١٦ - تاريخ الأدب الجاهلى.	٢٠٠١
١٧ - أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة.	٢٠٠٥
١٨ - دراسات فى الأدب العربى الحديث .	٢٠٠٥
١٩ - الثروة فى الإسلام .	٢٠٠٦
٢٠ - قطوف من السيرة والدعوة.	٢٠٠٦
٢١ - أصوات الأرض والحب والثورة.	٢٠٠٦
٢٢ - قضايا ثقافية .	٢٠٠٦
٢٣ - ألوان من الأدب والفكر والحياة.	٢٠٠٦
٢٤ - دراسات فى الأدب العربى الحديث.	٢٠٠٧
٢٥ - أنوار اليقين - الجزء الأول	٢٠٠٧

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية :

١ - المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت ٢٥١٢٠٨٤ /٠٢

٢ - مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة ت: ٢٣٩٥٦٧٧٠ /٠٢

٣ - مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا ٢٣٩٠٠٨٦٨ /٠٢ - القاهرة.

بيان استرشادى عن بعض موضوعات الكتاب

م	الموضوع	البيان
١	الخوف من الله.	بدأت كتابته فى يوم الجمعة ١/٦/١٩٧٩م
٢	محبة الله ورسوله والناس جميعا.	نشر الموضوع أولا بعنوان (الحب فى الله) فى جريدة اللواء الإسلامى العدد(٨٦) فى ١٥/٩/١٩٨٣م.
٣	الإسلام والعلاقات الإجتماعية.	نشر ابتداء فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (٩٢) فى ٢٧/١٠/١٩٨٣م .
٤	ثواب السعى فى مصالح الأخرين.	نشر الموضوع موجزا فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (١٣٥) فى ٢٣/٨/١٩٨٤م
٥	منهج الإسلام فى التثبت من الأخبار.	نشر فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (١٤١) فى ٣/١٠/١٩٨٤م .
٦	رعاية اليتامى.	أذيع الموضوع فى برنامج عالم الإنسانيات بإذاعة البرنامج الثقافى فى ٤/٧/٢٠٠٠م ثم نشر فى جريدة عقيدتى بالعدد (٤٢٢) فى ١٦/١٢/٢٠٠٠م .
٧	النذر فى الإسلام.	نشر فى جريدة عقيدتى العدد (٤٢٥) فى ١٦/١/٢٠٠١م .
٨	من مظاهر التيسير فى الدين الإسلامى.	نشر فى جريدة عقيدتى العدد (٥١٨) فى ٢٩/١٠/٢٠٠٢م.
٩	قيمة الوقت فى الإسلام.	نشر كاملا فى جريدة صوت الأزهر بالعدد (١٦٨) فى ١٣/١٢/٢٠٠٢م.
١٠	الأخوة الإسلامية.	نشر فى جريدة عقيدتى العدد (٥٢٥) فى ١٧/١٢/٢٠٠٢م.
١١	التوكل على الله.	نشر أولا فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (٧٨) فى ٢١/٧/١٩٨٣م .
١٢	التواضع.	نشر بعضه فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (٩٥) فى ١٧/١١/١٩٨٣م .
١٣	الحياء من الإيمان.	نشر فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (١٠١) فى ٣٠/١٢/١٩٨٣م.
١٤	القناعة.	نشر موجزا فى جريدة اللواء الإسلامى العدد (١١٧) فى ١٩/٤/١٩٨٤م.

م	الموضوع	البيان
١٥	طلب الحلال فى الطعام والشراب والكساء وسائر النفقات .	تم تسجيله لبرنامج عباد الرحمن بإذاعة القرآن الكريم يوم الجمعة ٢٠٠٧/٣/١٦م وتمت إذاعته فيما بعد .
١٦	المسارعة إلى فعل الخيرات .	تم تسجيلها لبرنامج عباد الرحمن بإذاعة القرآن الكريم يوم الجمعة ٢٠٠٧/٥/١١م وتمت إذاعتها فيما بعد .
١٧	العفو والصفح والإعراض عن الجاهلين .	
١٨	الصبر على البلاء والرضا بالقضاء .	
١٩	الانتماء للدين والوطن .	
٢٠	التعاون على البر والتقوى .	سجلت لبرنامج عباد الرحمن بإذاعة القرآن الكريم يوم الجمعة ٢٠٠٧/٧/٢٠م . وأذيعت فى أيام تالية .
٢١	النهوض بالمسئولية والإلتزام بحقوقها وواجباتها .	
٢٢	تجليات الأخلاق الحسنة فى حياة عباد الرحمن .	
٢٣	الدعوة إلى الإصلاح بين الناس .	تم التسجيل لبرنامج عباد الرحمن بإذاعة القرآن الكريم يوم الجمعة ٢٠٠٧/٨/٢٤م وأذيعت فيما بعد .
٢٤	الزهد فى الدنيا والعمل للآخرة .	
٢٥	التحدث بنعم الله تعالى .	
٢٦	الحرص على العلم وتبليغه إلى الراغبين فيه .	

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣
٢	أولا : من البيان القرآنى	٥
٣	مع سورة العصر (١)......................................	٧
٤	مع سورة الكوثر(٢)......................................	١٣
٥	مع سورة الإخلاص(٣).....................................	١٧
٦	اهدنا الصراط المستقيم (٤)	٢٢
٧	ثانيا : مع الرسول صلى الله عليه وسلم :..................	٢٧
٨	السنة والبدعة (١)	٢٩
٩	من الهدى النبوى (٢).....................................	٣٤
١٠	عتاب الله للرسول صلى الله عليه وسلم (٣)................	٣٩
١١	ثالثا : قضايا إسلامية:	٤٥
١٢	الحلال والحرام (١)	٤٧
١٣	الخوف من الله (٢)	٥٤
١٤	محبة الله ورسوله والناس جميعا (٣)........................	٦٠
١٥	الإسلام والعلاقات الإجتماعية (٤)..........................	٦٨
١٦	ثواب السعى فى مصالح الأخرين(٥).........................	٧٣
١٧	منهج الإسلام فى التثبت من الأخبار (٦)...................	٧٦
١٨	رعاية اليتامى(٧)..	٨٠
١٩	النذر فى الإسلام (٨)	٨٥
٢٠	من مظاهر التيسير فى الدين الإسلامى (٩)	٨٩
٢١	قيمة الوقت فى الإسلام (١٠).............................	٩٥
٢٢	الأخوة الإسلامية (١١)	١٠١

م	الموضوع	الصفحة
٢٣	تنظيم الإسلام لحياة الإنسان (١٢)	١٠٩
٢٤	رابعا : من أخلاق الإسلام :	١١٧
٢٥	التوكل على الله (١)	١١٩
٢٦	التواضع (٢)	١٢٧
٢٧	الحياء من الإيمان (٣)........................	١٣١
٢٨	القناعة (٤)........................	١٣٦
٢٩	العدالة فى الإسلام (٥)........................	١٤٢
٣٠	الرحمة (٦)	١٥٣
٣١	النصيحة (٧)........................	١٥٩
٣٢	الشكر (٨)........................	١٦٤
٣٣	العودة إلى الله بالتوبة الصادقة (٩)	١٧٢
٣٤	معالم الأمانة فى الأفعال والأقوال(١٠)........................	١٨٠
٣٥	خامسا : من صفات عباد الرحمن :........................	١٨٧
٣٦	طلب الحلال فى الطعام والشراب والكساء وسائر النفقات (١)	١٨٩
٣٧	المسارعة إلى فعل الخيرات(٢)........................	١٩٢
٣٨	العفو والصفح والإعراض عن الجاهلين(٣)........................	١٩٥
٣٩	الصبر على البلاء والرضا بالقضاء(٤)........................	١٩٨
٤٠	الانتماء للدين والوطن(٥)........................	٢٠١
٤١	التعاون على البر والتقوى (٦)........................	٢٠٥
٤٢	النهوض بالمسئولية والإلتزام بحقوقها وواجباتها(٧).........	٢٠٩
٤٣	تجليات الأخلاق الحسنة فى حياة عباد الرحمن(٨).........	٢١٤
٤٤	الدعوة إلى الإصلاح بين الناس (٩)	٢١٨

م	الموضوع	الصفحة
٤٥	الزهد فى الدنيا، والعمل للآخرة(١٠)	٢٢٢
٤٦	التحدث بنعم الله تعالى (١١)	٢٢٦
٤٧	الحرص على العلم ، وتبليغه إلى الراغبين فيه (١٢)	٢٣٠
٤٨	كتب للمؤلف	٢٣٨
٤٩	بيان استرشادى عن بعض موضوعات الكتاب.........	٢٣٩
٥٠	فهرس الموضوعات...............................	٢٤١

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

٢٠٠٧/٤٢٦٢م

الترقيم الدولى : I.S.B.N

977- 224 -522 - 1